

الله فِي الْأَلْفَيْهِ اللَّهُ دِيَانَتُهُ فِي صَعُود

د. مُرَاد هوفمان

مكتبة الشروق

د. مُراد هوفمان

الاسلام في الألفية الثالثة
ديانة في صعود

تعريب

عادل المعلم يس إبراهيم

مكتبة الشروق

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٧	* مقدمة
١٧	* مفتون - الغرب المثير (الألمان)
٣٥	* الشرق المثير للتساؤل
٦٣	* سنوات طويلة من الغضب
٧٩	* وسائل الإعلام تحت المراقبة
٩١	* عن الحقوق الشرفاء وغيرها
١٠٥	* ديمقراطية وشوري قراطية
١٢٧	* متساوى الحقوق أم سواسية؟
١٥١	* لماذا محمد؟
١٦٧	* عيسى يُفرق - عيسى يوحد
١٨٥	* لا تفرقة على أساس اللون
١٩٧	* ماذا يريدون هنا؟
٢٠٩	* ماذا يجب أن يتغير؟
٢١٧	* طالبو إحسان أم شركاء؟
٢٣١	* إسلام صنع أمريكا
٢٤٣	* ماذا سيحدث إذا أتوا فعلاً؟
٢٥٩	* مراجع أخرى

مقدمة

شعار : «إنني لا أستطيع إلا أن أقرر- بصفتي طبيباً- أن الإنسانية غارقة في أزمة رهيبة».

(فريدرش ديرغات NZZ بتاريخ ١٩٩٠/٤/٦)

لقد تمكنت الألفية الجديدة منا. فبعد الاحتفالات والغبطة وكل ما صاحب قدوم الألفية من إثارة، وجدنا أنفسنا نواجه حياتنا اليومية المعتادة في اليوم الأول من يناير عام ٢٠٠٠. ألم يحدث أى شيء؟ هل كانت مشكلة الصفرتين في الحاسوبات الآلية هي مشكلتنا الوحيدة؟ ألا تعانى جميع الأنظمة المسيطرة على حياتنا ومجتمعاتنا من الأزمات؟ هل المستقبل هو ما كان يوماً ما؟

لم يكن العالم يفتقر إلى مؤشرات دالة على الأزمة التي تعانى منها مجتمعاته كافة ونحن على اعتاب ألفية جديدة، هذه المؤشرات التي ساهمت وسائل الإعلام المختلفة في تأكيدها وتضخيمها حتى أصبحت بثابة رعب هستيري من نهاية العالم وفناه الإنسان، وتخوف من الألفية الجديدة، وتأهب لما ستاتي به هذه الألفية من شرور.

ولكن سبقت هذه المخاوف بسنوات طويلة حالة غريبة انتابت المجتمعات الغربية، هي حالة اللا مبالاة حيال الكوارث المتوقعة، هذه الحالة من اللامبالاة ترجع إلى شعور بالإحباط والانهزامية وليس بالتفاؤل.

لقد استبدل العالم حالة جديدة من الاسترخاء بحالة من الذعر غير المعقولة من نهاية العالم المرتقبة- والتي كانت حتى وقت قريب يتفرد بالتحذير منها أصحاب الثقافة الخضراء، أى أنصار البيئة.

فمن ذا الذي انتابته مخاوف ليلة رأس السنة لعام ١٩٩٩ مع انتظار قدم أول أيام عام ٢٠٠٠ مثل: استمرار سريان قانون الطوارئ، واحتمال وقوع حرب نووية بين القوى النووية، والتدمير الهائل للغابات وموت الكثير من أشجارها، وثقب الأوزون وتأثيره على التغيرات المناخية، وتكرار مأساة تشيرنوبيل، وزيادة درجة حرارة الأرض، والإنسان الزجاجي، وأمراض مثل الإيدز وجنون البقر، واشتراك قوات الدفاع الاتحادية في معارك حربية؟

لقد واكب خفوت رومانسية أنصار البيئة تضاؤل المخاوف على هذه البيئة وحمل سبابي: لقد أصبح المأزق الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي - هذا إن وجد الأخير - كيف يكون الأمر في ألمانيا على غير هذا النحو؟ إنها أزمة مريحة تناسب مع تناول البيرة والخمور.

لقد استبعد هذا المنتج الوعاد بامكانيات استخدام هائلة «حالة ترقب لنهاية العام» قبل أن يطرح في الأسواق.

لم يتم احتفال المسلمين بالآلفية الجديدة بتناول الخمور، ولكن اتسم بهذه الاحتفال أكثر عما حدث في الغرب. فلقد صادف قدم الآلفية الثالثة أن يكون هذا في وسط العام ١٤٢٠ للتقويم الهجري^(١). كما أن قليلاً من المسلمين يهتمون بأسرار الأرقام. ولا يفترض أصلاً أن يكون لقدم الآلفية الجديدة تأثير بالغ على المسلمين، حيث إن الساعة يمكن أن تقوم في أي وقت، أي أن يتنهى العالم في أي لحظة^(٢).

كما أن كتابة التاريخ الإسلامي تهتم بتسمية كل قرن باسم شخصية كان لها تأثيرها البالغ في هذا القرن بوصفه مجدداً. فأطلق اسم الفيلسوف أبي حامد

(١) لقد انطلق المسلمون في تقويمهم من عام هجرة الرسول من مكة إلى المدينة (٢٢-١٠ سبتمبر ٦٢٢) بناءً على اقتراح الخليفة الثاني عمر.

ولقد صارت بداية أول عام هجري - وهو سنة قمرية - يوم ٦ من يوليو عام ٦٢٢ بأثر رجعي. (انظر G.S.P Treemann - Grenville: The Islamic and Christian Calenders AD 622 - 2222 (All 1 - 1650)

الإسلامي والتقويم المسيحي). Gamet: Reading (Uk) 1995. p.4.

(٢) القرآن الكريم: الآية ٦٣ من سورة الأحزاب، الآية ١٨ من سورة الشورى، الآيات ٤٢-٤٦ من سورة النازعات.

الغزالى (توفي عام ٥٠٥ هجرى- ١١١١ ميلادى) على القرن الخامس الهجرى . وحمل القرن الثامن اسم الفقيه ابن تيمية (توفي ٧٢٨ هـ- ١٣٢٨ م) ، وسمى القرن الثانى عشر بقرن شاه ولى الله ، المصلح الهندى (توفي ١١٧٦ هـ- ١٧٦٣ م) ، وكذلك اسم محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية فى السعودية (توفي ١١٨٧ هـ- ١٧٨٧ م) .

وعرف القرن الرابع عشر بقرن الشيخ محمد عبد المجدد المصرى (توفي ١٣٢٣ هـ- ١٩٠٥ م) .

لقد تقبل المتصوف الهندى أحمد سيرهند (توفي ١٠٣٤ هـ- ١٦٢٤ م) عضواً الطريقة النقشبندية فى حياته ، أن يحمل اللقب الشرفى غير الرسمى «مجدد الألف الهجرى الثانى»^(٣) .

لا يمكننا أن نستنتج من شخصية المجدد المرتبطة؟ . لقد قال الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم- وهو على يقين بأن المستقبل والغيب لا يعلمهما سوى الله- : «إِنَّمَا يَعْلَمُ بِكُمُ الْأَمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» . «لَا تَرَالْ طَائِفَةً مِنْ أَمْتَى ظَاهِرَةٍ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهَا مِنْ خَالِفَهَا»^(٤) . ولكن حذر محمد- صلى الله عليه وسلم- أن كل جيل سيكون أقل تمسكاً بعقيدته من الجيل الذى سبقة^(٥) . «لَنْ يَأْتِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رِبَّكُمْ»^(٦) . وسيكون من قرب علامات الساعة حدوث مثل هذه الظواهر: التي جاءت فى أحاديث كثيرة منها: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُثْبَتَ الْجَهْلُ، وَيُشَرَّبُ الْخَمْرُ، وَيُظَهَّرُ الزَّنَافِرُ»^(٧) . وسينقسم المسلمون على أنفسهم ويشرذمون فى مجموعات تفوق فرقة اليهود والمسيحيين ، كما جاء فى الحديث:

(٣) لقد قام بدور الوسيط بين الفرق الصوفية المتطرفة وبين من يرفضونها على أساس المذهب الحنفى .. انظر عبد الحق أنصارى ، ونظرية الشيخ سيرهند عن وحدة الشهود فى- Islamic Studies 37/ No. 2 1s- Iamabad 1993.

(٤) البخارى جزء ٦ رقم ٥٠٤ / مسلم ٤٧١٥- ٤٧٢٢ .

(٥) البخارى جزء ٨ رقم ٦٨٦ / التووى ٤٠٩ .

(٦) البخارى جزء ٩ رقم ١٨٨ التووى ٩٢ .

(٧) البخارى جزء ١ رقم ٨٠ وجزء ٨ رقم ٨٠٠ .

«افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمته على ثلاث وسبعين فرقة»^(٨).

لم يشهد الدين الإسلامي فترة ازدهار وذروة تحقيق ذاته بعد انقضاء فترة توهجه الأولى وبداياته تحت القيادة الكاريزمية لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا في لحظات نادرة. فحتى الفترة الذهبية، فترة الخلفاء الراشدين التي امتدت من عام ١١ إلى ٤٠ هـ (٦٣٢-٦٦١)، نلحظ فيها عند الفحص والدراسة الدقيقة ملامح يوتوبية تعليمية. وهذا لا ينفي بطبيعة الحال عظمة وتوهج هذه الفترة.

على أي حال لم يشهد الإسلام تحولاً له، وتحقيقاً لجوهره في الحياة العملية، لا في عهد الأمويين الذين حكموا من دمشق حتى عام ٧٥٠^(٩) ولا في ظل حكم العباسيين من بغداد الذي امتد حتى القرن الثالث عشر رغم كل ما فيه من ازدهار ثقافي وحضاري، ولا حتى في قمة ازدهار الحضارة الإسلامية بالأندلس قبل حلول عام ١٤٩٢^(١٠).

بالرغم من أن الإسبان لا يزالون إلى يومنا هذا يصيرون «الله» عندما يقولون ٠١٦ «أليه».

ينطلق المسلمون اليوم من معرفة مفادها أن العلم والمعرفة لا يبنيان فقط على أعمال السلف، ولكنها يشهدان إضافة وزيادة، حتى إن بعض المسلمين يمكنهم عن حق أن يدعوا أن معرفتهم بتراث الإسلام وبالقرآن، تفوق معرفة أسلافهم^(١١). ولذلك فهم يتعلمون بكل جدية، خصوصاً أن القرآن يأمرهم

(٨) صحيح [أبو داود] [٤٥٩٦].

(٩) يشكك بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين فيما نسب للأمويين من اتهامات بالاتحراف عن الإسلام ومخالفة الكثير من قواعده في الحكم، فهل حدث هذا فعلاً، أم أن هذه الاتهامات أصفت بهم بفضل الدعاية المضادة لهم والتي أشعلها وقادها العباسيون؟ (تلك المعارضية اقتصرت على ذكر موضوعات دينية لأسباب سياسية بطبيعة الحال).

(١٠) يوفر Jayyusi نظرة جيدة على الحضارة الأندلسية.

(١١) خذ على سبيل المثال الآية الثانية من سورة العلق. فلم يكن أوائل المسلمين يعلمون معنى العلق كما يعرفه المعاصرون اليوم.

بالمعروف وينهادم عن المنكر لأنهم خير أمة أخرجت للناس^(١٢)، وكذلك عندما يخاطبهم القرآن قائلاً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ»^(١٣).

ولكتنا لا نستطيع أن نؤكد بعد انقضاء احتفالية رأس السنة، أن مخاوف الجانبيين - المسلم والغربي - تلاشت تماماً.

فلا نستطيع أبداً أن نتفق مع ما تنبأ به فرانسيس فوكوياما بأن نهاية التاريخ تلوح من خلال سيادة الحضارة الغربية في صورة سيطرة نظام حكمها الليبرالي الديمقراطي، وما يحمله من قيم على العالم كافة^(١٤).

لا نستطيع أن ننكر أن العولمة في المجالات المختلفة الاقتصادية - التكنولوجية - الأيديولوجية - الثقافية، قد أخذت تنمو وتؤتى ثمارها فيما تستهدفه من تحويل العالم إلى «قرية صغيرة».

لكن في نفس الوقت بدأت الشكوك تتباطب الغرب فيما شعر به من زهو وانتصار بعد انهيار الشيوعية، فهل كان الغرب محقاً في إحساسه بهذا الانتصار؟

أو لم يتضح بالدليل القاطع والبرهان بين أن القرن العشرين المنصرم، كان أكثر القرون دموية في تاريخ البشرية، بكل ما شهد من حروب عالمية مدمرة وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر، ومعسكرات الإبادة وعمليات التطهير العرقي وغيرها من مأسى البشرية؟ وكل هذا يشهده العالم بعد مرور ٢٥٠ عاماً على بداية عصر التنوير ومشروع الحداثة! وتركت هذه الأعمال الوحشية المهينة للبشرية في أوروبا «المتحضرة» الشديدة الزهو والفخر بعقلانيتها وإنسانيتها^(١٥).

فهل تعانى المجتمعات الغربية من مرض ما؟ أم يتهددها خطر السقوط الأخلاقي كما حدث للبولشفية من قبل؟

(١٢) كما جاء في الآية ١١٠ من سورة آل عمران: «كُنْتُمْ خَيْرَ أَمَّةٍ أَخْرَجْتَ لِلنَّاسِ تَأْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

(١٣) الآية ١١ من سورة الرعد.

(١٤) فوكوياما (١٩٩٠).

(١٥) لقد شهد القرن العشرون سقوط أكثر من ثلاثة مليون قتيل من الشباب.

لقد ثبت أن نظريات صمويل هنتجتون بشأن صدام الحضارات الذي لا مفر منه خاصة بين الغرب والإسلام بكافة «أبعاده الدموية»، ما هي إلا صيحة إنذار ذات طبيعة دفاعية في المقام الأول^(١٦).

ومنذ ذلك الوقت، فإنه تستمع دائمًا إلى نغمة تشاوم لا سبيل إلى تجاهلها عندما يتم استدعاء ذكرى حضارات العالم التي امتنعت عما يسمى بالـ Social ^(١٧)، أي بإعادة الهيكلة الاجتماعية والاقتصادية Re - engineering

لقد تكون في الغرب شعور بضرورة وجود قطبين في العالم، أي هنا وادى السيليكون . . . وهذا مكة^(١٨). كما لو أن العالم لم يتطور منذ أعلن إرنست رينان Ernest Renan يوم ٢٣ فبراير عام ١٨٦٢ في الكوليج دي فرنس Collège de France «أن الإسلام هو النفي التام (النقيض) لأوروبا».

لن ينكر معاصر دارس للثقافات والسياسات، أن تطور عالمه - أيًا كان موقعه الجغرافي - في القرن الحادى والعشرين سيتأثر - إن لم نقل سيكون محكمًا - بما سيشهده الإسلام وما سيؤثر فيه. هل سيقوم العالم الإسلامي بتحديث نفسه؟ أم سيمثل هذا العالم لأسلوب الحياة الأمريكي؟ أم أن هذا العالم سيستمر في رفضه لأسلوب الأمريكي في الوقت نفسه؟ هل سيستمر انتشار الإسلام في الغرب كما حدث في الثلث الأخير من القرن العشرين؟ هل سيتم هذا بالوسائل السلمية؟

(١٦) هنتجتون (١٩٩٣).

(١٧) تعد تركيا أوضاع الأمثلة. فلقد باءت محاولات أتاتورك ومن سار على نهجه في تحويل تركيا، فسرًا، إلى قطعة من أوروبا بالفشل، نظرًا للمجذور الثقافي والتاريخية الإسلامية الراسخة. فبالرغم من جميع محاولات التغريب، فإن الإسلام يؤدي اليوم دورًا أكبر مما كان يقوم به في الثلاثينيات في حياة مصطفى كمال.

(١٨) لا تزال النظرة المشائمة لضرورة اختلاف الحضارات والثقافات بعضها عن بعض شائعة بين كثير من الدارسين والمهتمين بأفرع العلم المختلفة، ويؤدي هذا إلى مقولات مؤسفة وخطأ، مثل الحكم العام بأن البلاد الإسلامية غير قادرة على ممارسة الديمقراطية لطبيعتها، كما لا يمكن لهذه المجتمعات أن تحول إلى مجتمعات مدنية تحمي حقوق الإنسان بسبب بنيتها الثقافية. وبعد بسام طيبى (١٩٩٤) أحد ممثلي هذه المقوله المهينة للمسلمين.

ما النتائج المترتبة بالنسبة للغرب والمؤثرة فيه في حالة فشل العالم الإسلامي في القيام بعملية تجديد أخلاقي وإحياء لبنائه؟

وما النتائج المرتقبة في حالة نجاح العالم الإسلامي في أن ينهض من جديد؟ وبالتالي يكتسب قوة جاذبة في الغرب؟ هل يمكن أن يصبح هذا الدين - وهو نظرى وعقائدى - بالفعل دينا يسود العالم؟

هل يصبح الإسلام في هذه الحالة العلاج والشفاء الذي سينقذ الغرب من نفسه؟ وهل سيصبح الغرب قادرًا على الاعتراف بالإسلام كدواء يصلح لشفائه، دواء يساعد الغرب على تخطي أزمته وإنقاذ حضارته؟

هذه هي خلفية هذا الكتاب، وهذه هي الأسئلة التي يطرحها هذا الكتاب محاولاً الإجابة عنها.

* * *

يتضمن هذا الكتاب قائمة من المراجع، تبدو كبيرة جداً ومستفيضة، وستجد بها أغلب الكتاب الذين شاركوا في المناقشات الدائرة حول الإسلام خاصة في العقود الثلاثة المنصرمة.

لم أستق هذه القائمة من الإنترنت، ولكنني قرأتها كلمة كلمة. وساعدني في تحقيق هذا، عملى كناقد للكتب في مجلة The Muslim World Book Review في العدد الرابع سنوية.

إننى أدين بالشكر لكتابين هما: «التناقضات الثقافية للرأسمالية» - The Cultural Contradictions of Capitalism - Daniel Bell عام ١٩٧٦ لكاتبه Daniel Bell .

لقد شخص Daniel في هذا الكتاب مساوى الحضارة الغربية وأدبياتها المدمرة. من الجدير بالذكر أن Daniel Bell كان أستاداً للعلوم الاجتماعية بجامعة هارفارد.

أما الكتاب الثاني، فهو «صلة المخازة على روح السياسات الحديثة» - Requiem for Modern Politics .

وهذا الكتاب يعد دراسة تحليلية دقيقة في غاية الذكاء لما تتضمنه المجتمعات الغربية من إمكانات رفض قاتلة، بسبب أيديولوجية التقدم والتطور التي تتبناها تلك المجتمعات.

والأراء التي يتضمنها هذا الكتاب ليست نتاج قراءات بالمفهوم الضيق، ولكنها قامت على خبرات معيشية أكثر منها على قراءات فقط.

وساعد على ذلك أنني، منذ اعترافى من عملى كدبلوماسي في صيف عام 1994، أتجول كمحاضر متغلاً دون فترات راحة تذكر. في الغرب والشرق، من هلسنكي إلى كوالالمبور، من الرياض إلى لوس أنجلوس، ومن الخرطوم إلى ليمازج في ألمانيا، حتى أساعد في شرح كل جانب للجانب الآخر، ولكن أقيم جسوراً من التفاهم بين الغرب والشرق، وألأساهم في إزالة مشاعر العداء التي يكنها كل طرف للطرف الآخر⁽¹⁹⁾.

لقد ظهرت بعض هذه المحاضرات ونشرت في مجلات متخصصة عن الإسلام مثل الإسلام (ميونخ)، دراسات إسلامية (إسلام آباد). The American Journal of Islamic Social Sciences (Herndon, Virginia) الجريدة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية.

آفاق Horizons. (إنديانا بوليس). اقرأ Igra. (سان چوزيه كاليفورنيا). وكذلك Encounters. (Markfield, Leceister).

لقد استخدمت مادة علمية من هذه المحاضرات، ولكنني لم أنشرها من قبل بشكلها المكتمل.

إن حجم البليوجرافيا ليس هائلاً ولا يتضمن عناوين أجنبية كثيرة، لكن أثير الإعجاب بي أو أعطى انطباعاً إيجابياً عنى. ولكن لنعطي معلومات يمكن للغير الاستفادة منها، ولكن تعبّر عن:

(19) لقد قمت بالقاء 139 محاضرة في الفترة ما بين منتصف عام 1994 و منتصف عام 1999 تدور كلها حول موضوعات إسلامية في تسع بلدان غربية و تسعة بلدان إسلامية، كما حضرت 27 ندوة و مؤتمراً كان الإسلام فيها الموضوع الرئيسي.

- ١- كثافة المناقشات الإسلامية بين المسلمين حول الموضوعات الكبرى في زماننا، مثل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، ودور المرأة. وكيف أن هذه المناقشات تدور بلا أدنى وجود لمحرمات. (تابو) - مسابقة.
- ٢- زيادة سطوة الموضوع حتى أصبح يفرض نفسه على الدراسات الاجتماعية.
- ٣- الدور الجديد الذي تؤديه اللغة الإنجليزية حتى في الحوار الإسلامي، فلقد أصبح للإسلام الآن لغتان رئيستان: فاللغة الإنجليزية ينشر بها الآن عن الإسلام أكثر مما ينشر بالعربية، ولذلك أعتقد أن إلقاء نظرة على البي bliography يستحق هذا العناء. إنني أقصد في الإشارة إلى مقولات محددة، وأفضل ذكر أعمال بكمالها، حتى يكون الكتاب مستساغاً في أثناء القراءة، ولا يت忤زد شكلاً علمياً بحثاً.

كما أنني لم أرمز إلى قول «عليهم السلام» الذي نعقب به على ذكر الرسل: موسى وعيسى ومحمد، كما يفعل المسلمون بما هو متعارف عليه في الكتب الإسلامية بـ (s) أو (pbuh) (٢٠) (Peace be upon Him)، فهذا أمر بدائي يفعله كل مسلم من تلقاء نفسه.

مراد فيلفريد هوفمان
إستنبول
الأول من يناير عام ٢٠٠٠

(٢٠) (S) تعني صلوا الله عليه وسلم و (pbuh) يعني عليه السلام.

مفتون - الغرب المخيم - (الأثمان)

الشعار الأول: حيث تغيب الآلهة تسود الأشباح وتسسيطر.

(مقولة لنو فاليس أحد أدباء الرومانسية)

الشعار الثاني: إن الاعتقاد بضرورة تبني الشعوب غير الغربية لقيم ومؤسسات وحضارة غربية، لهو أمر غير أخلاقي في نتائجه. (بالنظر إلى نتائجه وتوابعه)

(صامويل هتتتجتون: «الغرب الفريد» ص ٤١)

-١-

إذا أراد المرء أن يتبعاً بالتطورات المستقبلية للغرب وللشرق (الإسلامي). أو أراد على أقل تقدير وصف المقومات التي يتطلبها التطور المرجو. فعليه في بادئ الأمر أن يقوم بعملية حصر للعوامل المتعلقة بهذا الموضوع. عليه أن يبدأ بالسؤال التالي: ماذا يحدث على الجانين الآن؟.

أعتقد أن أنساب الناس وأقدارهم على الإجابة عن هذا السؤال هم من يتمتعون بتفكير نبدي سليم، وأتيحت لهم الفرصة بأن يعيشوا في الجانين دون أن يتذكروا بجذورهم الأصلية. أعتقد أن حكم هؤلاء على الوضع الراهن، ورأيهم بجذيران بالإجابة عن سؤالنا عن الوضع الراهن في الجانين.

وإنى إذ أقول ذلك، يخطر على ذهنى هؤلاء الطلبة الزائرون الذين يعودون إلى بلادهم بعد استكمال دراساتهم في الغرب (هؤلاء يشاهدون بلادهم بنظرة جديدة) وهم بطبيعة الحال غير اللاجئين إلى الغرب سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية؛ إذ أن هؤلاء - نظراً لوضعهم - لا يملكون إلا إبداء الإعجاب الشديد بالبلد المضيف أو

الاعتماد الكلى عليه، وبالتالي أراهم غير قادرين على ممارسة النقد التزيم أو التفكير بشكل نقدى سليم.

ولتحقيق ذلك، سأقوم بخلق شخصيتين من بنات أفكارى لطلابين مسلمين ناطقين يعيشان في الغرب حالياً، وسأقوم بتوجيه الأمثلة إليهما عن هذا الغرب، حتى أصفه من خلال عيونهما. أما في الفصل التالي، فسأقوم بهذه التجربة مع طالبين أوروبيين. هما بطبيعة الحال شخصيتان ابتكرتهما أنا في خيالي. اعتقدنا الإسلام فأأسألهما عن انطباعاتهما عن العالم الإسلامي. وسأضيف إلى الشخصيتين المتخيلتين بعداً إضافياً من خيالي، فإذا حدى الشخصيتين اختارت هذا العالم وطنًا لها، أما الأخرى فلا ترى داعيًا للهجرة وطنها الأصلي.

ومن خلال هذه التجربة سنشاهد هذا العالم - العالم الإسلامي - من خلال عيون غريبة عنه.

أما النتيجة فأعتقد أنها ستكون محببة.

-٤-

ينتمي الطالب الأول الذي نستمع إليه، إلى ما يمكن أن نسميه بالإسلام الميلادى، فهو مسلم بالميلاد والجذور والبيئة، أكثر منه مسلماً بالممارسة، أي ممارسة الإسلام. هذا الطالب طالما حلم بالغرب قبل أن تطأه قدماه. منذ طفولته كان الغرب بتقديره مثالاً له (كان منذ طفولته يضع تقدميته كمثال يجب الوصول إليه حتى في فسادها الماركسي).

فلا غرابة إذاً في أن يحاول تشرب هذه الحضارة الغربية التي طالما عشقها، حتى إنك لا تغىّب عن محياطه الغربي الذي يعيش فيه.

إنني لا تحدث عن تجربة وخبرة، حيث إنني انتقلت عام ١٩٥٠ وعمرى آنذاك ١٩ عاماً من ألمانيا المقسمة، المهزومة، المحتلة، والمنكسرة إلى: Union College في نيويورك، في قلب جنة ما بعد الحرب العالمية الثانية بأمريكا في قمة ازدهارها، حيث تسيل أنهار من الكواكولا و (مilkshakes - ميلك شاكس).

لقد كان تأثير أمريكا متذبذباً. والآن الغرب بأكمله - على المهاجرين من الشباب أشبه بتأثير المخدرات التي تصور لهم مستوى معيشة أفضل. فالكل يتخيّل إمكانية تحقيق أي شيء وكل شيء هنا. هنا في هذا العالم حيث يجد الأصحاب والشّابرون الفرص العظيمة بمنتهى السهولة، حتى يخيّل لهم أنها ملقة في الشارع ليلتقطوها.

أما أسباب هذا التصور فواضحة. فالغرب متقدم تكنولوجيا بدرجة عالية جداً. الغرب يعيش بعد اختراعات القرن العشرين ثورته التكنولوجية الثالثة، حيث تنهال الابتكارات التي تقلب صناعة المعلومات رأساً على عقب.

فالعالم لم يعد هو العالم نفسه منذ اختراع الإنترنت.

أعتقد أن وصف الطالب المسلم - المسلم ميلادياً - بحكم المولد والبيئة، للغرب الذي يكن له تقديراً كبيراً سيكون كالتالي:

كل ما يتعلق بالتقنولوجيا. بما في ذلك الطب والبيروقراطية. يسير على أكمل وجه، حتى إن الإنسان أصبح هو عامل الإزعاج الوحيد والأخير. هذه الكفاءة نجدها تسود كذلك مجالات مثل الاقتصاد والإدارة والتربية. يلتزم غالبية المواطنين بالقوانين ويطبق الدستور بشكل روتيني في الدولة. فدولة الدستور حقيقة وواقع مطمئن. والحديث عن الرشاقليل جداً، والقوات المسلحة تدين بالولاء التام للحكومة المدنية المنتخبة، ولا يتعرض أتباع الأديان والمعتقدات المختلفة للسجن أو التعذيب. والدولة تحمل مسؤولية مواطنيها من المهد إلى اللحد. كما تحمل الدولة مسؤوليتها في المحافظة على البيئة. ونادراً ما ينقطع التيار الكهربائي أو المياه أو التدفئة. (عند هذه النقطة من وصف الغرب، يرحب المرء بوصفه مواطناً يعيش فيه). في التوقف، حيث يشعر بجمل شديد من ذكر كل الأمور التافهة هذه. أما بالنسبة لمواطن من العالم الثالث، فما ذكر ليس من التفاهات بشيء، بل كلها إنجازات يحمد عليها الغرب). فالفرد يقف في موقع المركز، سواء في الدولة أو المجتمع أو الاقتصاد بسوقه المشبع حتى التخمة. هذا الفرد يتمتع بأقصى حماية من قبل الشرطة والقضاء ضد أي ظلم يقع عليه أو تعسف يمارس ضده. كما يقوم الأفراد باختيار حكوماتهم بحرية تامة. العمالة ثابتة وكل ما يقوم بشرائه من منتجات وأدوية سليمة وغير مغشوشة، فهناك رقابة صارمة على الجودة. وهنا في الغرب لا يجد العاطل

عن العمل نفسه مضطراً إلى مدينه ليتسول. حتى الأضطرابات العمالية لا تتدخل
الشرطة لإنهائها!

الفكرة والقيمة السائدة هي الحرية والتحرر. التحرر من الظلم والقهر والخوف
والجحود والندمة والرقابة واللوائح، والحياة. هنا تسود حرية إبداء الرأي وحرية
التجمع وحرية الاعتقاد وحرية اختيار مكان الإقامة وحرية أداء الخدمة العسكرية.
ومن خلال ملاحظاتنا لسوق العمل - وكذلك ملابسها - يتبيّن لنا أن العوائق كافة قد
زالت من طريق المرأة لتحقيق ذاتها. فالتحرر الجنسي أصبح حقيقة ملموسة. لقد
تحررت المرأة تماماً، والقانون والمبدأ السائدان بين الجنسين هو: ما يهواه المرأة فهو
مسموح به. ويتضمن هذا بطبيعة الحال الاعتراف بحياة الشواد حياة مقبولة
ومتساوية مع غيرها. لم يصبح الشواد في حاجة إلى التستر أو الاختفاء، بل
بالعكس يمكنهم اليوم إنشاء تنظيم خاص بهم.

مجمل القول: ينظر طالبنا المسلم المندمج في الغرب إلى هذا العالم نظرة شديدة
الإيجابية، حيث يراه أقصى ما بلغته الحضارة الإنسانية من مراحل وأزهاها،
وبالتالي يحق للغرب وحضارته أن يسودا العالم.

٣٠

نجد في مقابل هذا الطالب في الغرب نوعية أخرى من الطلبة الأجانب، وهم
الذين يمارسون شعائر الإسلام ويرفضون الغرب المذكور سابقاً. رغم مميزاته. جملة
وتفصيلاً، بل إنهم يلعنونه بشكل مطلق، حتى إن المرأة كثيراً ما يتساءل لم لا
يعودون فوراً إلى أوطانهم ليتركوا «الشيطان الأكبر» المكروه منهم لحاله؟^(١).

(١) النمط الأكثر انتشاراً المثل لهذا الموقف، هم أعضاء حزب التحرير الإسلامي، تلك المنظمة المعارضة
التي تأسست عام ١٩٥٢ على يد الشيخ تقى الدين النبهانى، والتي لها تأثير قوى في كل من الأردن
والولايات المتحدة. وتتميز ببنائها للعنف، فهذه الجماعة تتوقع أن تجد مشكلات العالم كلها حلاً عن
طريق عودة الخلافة التي ألغتها مصطفى كمال أتاتورك وتشكيل نظام إسلامي قوى. إن هذه الحركة
تقوم بنشر أعمالها عن طريق «منشورات الخلافة» في بريطانيا وفي الولايات المتحدة عن طريق TINA
(تنظيم الإسلام لشمالى أمريكا).

ونحن نريد الآن أن نتبع مسار تفكير أحد هؤلاء الطلبة، وهو بطبيعة الحال شخصية متخيّلة وليس حقيقة. إنه يسوق مسوّغات منطقية وحججاً قوية ومسوّغة لحكمه السلبي على الغرب، شأنه شأن زميله المغرم بالغرب.

يبدأ هذا الطالب أول ما يبدأ بتجهيه تقدّه إلى النزعة العقلانية الغربية، والتي يرجع إليها الفضل في ظهور ما يسمى بـ«مشروع الحداثة»؛ منذ القرن الثامن عشر.

فال بتاريخي الحقيقي والفعلي للغرب منذ عصر التنوير، لم يكن تحقيقاً للعقل بقدر ما كان سلسلة متتالية من الفظائع والأعمال غير الإنسانية، مثل: عمالة الأطفال، تحويل قطاعات ضخمة من المزارعين إلى عمال في قطاع الصناعة وما ترتب على ذلك من أضرار للأراضي الزراعية، تجارة العبيد والتفرقة العنصرية، اشتعال حربين عالميتين مدمرتين، استخدام أسلحة كيميائية ونووية، إرهاب قارسه الدولة تحت شعارات أيديولوجية كالبولشفية، وكذلك نزعات كالشوفونية الفاشية، وليس آخر هذه الفظائع عمليات التطهير العرقي في وسط أوروبا كما هو الحال في كرواتيا والبوسنة وصربيا.

لا نستطيع أن ننفي عن آباء التنوير المسؤولية غير المباشرة عن هذا الفشل الفريد لفكرة عظيمة، هي سيطرة العقل على أفراد مستقلين وعلى تصرفاتهم. فمفكرون من أمثال ديفيد هيوم (1711-1776)، فولتير (1694-1778)، فريدرick الكبير (1712-1786)، ليبينج (1729-1781)، وجوته (1749-1832)، ومن قبلهم سونتاني (1533-1592) وديكارت (1596-1650) ولوك (1632-1704) وكذلك ليبتس (1646-1716). هؤلاء جميعاً لم يكونوا ملحدين ناكرين لوجود الله، ولكنهم كانوا مؤمنين بإله كعلة أولى، ناكرين للوحي، مؤمنين بإله واحد بعيد وليس بصورة الثالوث الإلهي الذي تتبناه الكنيسة المسيحية. اعتمد إيمانهم على ملاحظة الطبيعة وتأملها والتفكير فيها، وليس على التسليم بالوحي. لم ير غب هؤلاء في إلغاء فكرة عقيدة أو ديانة، ولكن اتجهت جهودهم إلى القضاء على سيطرة الكنيسة على معتقدات البشر وعلى نفوذ الكهنة.

ولقد استغل بعض التنويريين الإسلام (كعملية التفاف) للإسراع بعملية التحرر

من نير الكنيسة. لقد حقق ليسينج هذا بشكل مناسب من خلال مسرحيته «ناثان الحكيم»^(٢) التي كتبها عام ١٧٧٩ التي أبرز فيها مثالية وإيجابية المسلم.

أما فولتير، فقام بمحاولة سابقة. غير لائقة. حيث قام في عام ١٧٤٢ بكتابه مسرحية «ماهومت النبي الكاذب». لقد أراد من خلال عمله نقد الكنيسة من خلال هجومه على الإسلام^(٣). ولقد كافأه فريدريك الأكبر على عمله هذا بمنحة وساماً.

أما بالنسبة لأعمال كاظن النقدية، فلم تكن ضد الدين بقدر ما كانت موجهة ضد الكنيسة، فلم يدلل كاظن. ولم يرغب أصلاً في التدليل. على عدم وجود الله في عمله «نقد العقل» (١٧٨١)، ولكن أراد نفي إمكانية الاعتماد على تصورات ميتافيزيقية تتعدي نقد المعرفة، وبالتالي تحول حتماً إلى لعب بالألفاظ كما كان سيقول فيتجلشتين. لقد جلأ كاظن في عمله التالي عام ١٧٨٨ «نقد العقل العملي» إلى أن المسلمية (الفرضية المسلمة) «الله» ضرورة لسير المجتمع. ولكن بالرغم من ذلك أدى التحرر من سيطرة الكنيسة على البشر كنتيجة لعملية التنوير، إلى تهميش دور الدين. لقد احتل الإنسان الفرد مكانة الله بحسبان أنه هو الإنسان الفرد مقياس ومعيار كل شيء. لقد تماهى الإنسان في تقدير ذاته وقدراته حتى أصبح الوثن الجديد لهذا العصر.

لم يكن في مقدور غالبية الناس التعايش مع ما يمثله كاظن من موقف اللاأدبية إزاء المعرفة واللامعرفة، بمعنى أن يتارجح ما يتعلق بالموقف الفلسفى والدينى، أى أن يحيى و كان الله موجود دون أن يملك دليلاً علمياً على هذا الوجود؛ ولذا كان

(٢) Kuschel 1998.

(٣) لقد قام القيصر فريدريك هذا بالتفاوض عام ١٧٧٥ مع ألف «عائلة محمدية» ليستوطنوا بروسيا الغربية، ويقيم هو لهم فيها بيوتاً وينشئ لهم بها المساجد (جاءه هذا في خطابه إلى فولتير في ١٣ من أغسطس). فريدرick هذا كان يعي تماماً أن صديقه فولتير لا يعرف عن محمد أكثر من معرفته عن إمبراطور الصين (خطاب ١٧٧٦/١٠/١٠). لقد اعترف فولتير في خطاب منه إلى فريدرick في ديسمبر عام ١٧٤٠ أن «محمد إنما يأت بفعل الخيانة الذي يستخدمه فولتير موضوعاً لهذه المسرحية» (ماهومت)، ويعتذر عن جهله بالتاريخ وعبيده بمقولة يشيد لها الولدان: «من يجرؤ على إشعال حرب في بلده وذلك باسم الله، أوليس قادرًا على فعل أي شيء؟» في الخطابات المتبادلة بين فولتير وفريدرick. Voltaire - Friedrich der Groesse - Briefwechsel Haffmans Verlag Zurich 1992.

الفرد العادى فى القرن الثامن عشر يميل إلى الأخذ بفرضية باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢)؛ إذا ما أخذ المرء بعيداً الإيمان بالله، فإنه إذا تبين أن ذلك حق، فاز حيثذا بكل شيء، وإذا تبين خلافه فإنه لن يخسر شيئاً. ولكن كان من البدئي، بل من الضروري، أن يؤدى القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، قرن الإلحاد، ومثليه الأساسيين لودفيج فویرباخ (٤ - ١٨٧٢ - ١٨٠٤) وشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) وكارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩).

وفى اللحظة التى أصبح فيها الله مجرد إسقاط لرغبات البشر، أصبح المجال مهياً لتأليه الإنسان فى صوره المختلفة، سواء كان ذلك بتأليه الجماعة فى الدولة (الماركسية، الاشتراكية، الفاشية) أو تأليه الفرد (الفردية، الليبرالية، الرأسمالية، النزعة النفسية).

ولذا أمكن لفردرىش نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) أن يعلن بعد ١٠٠ عام فقط من صدور عمله «العلم السعيد» (٤)، وانهفاء صورة الإله كما وردت في المسيحية. وبهذا الإعلان سهد نيتشه للقرن العشرين المشغل بالأيديولوجيات الكثيرة المختلفة وبصراحتها.

لقد أيقن من منطلق خبراته الخاصة ما عرفه المسلمون من قبل، وهو أن اقتصار الدين على المجال الخاص للشخص، هو أولى الخطوات للقضاء عليه والتخلص منه. منذ تلك اللحظة عاشت الإنسانية مالم تره من قبل وما لا مثيل له: فالحضارة الغربية هي الحضارة الأولى من نوعها التي تظن أن بإمكانها الحياة بدون الإيمان بكل ما هو مقدس (٥)، بدون إله وبدون غيبيات، وذلك عن طريق سلوكيات تتسم بالإلحاد، حتى وإن لم تؤمن نظرياً بالإلحاد.

تحول الإلحاد في المعسكر الاشتراكي إلى البديل الدييني، خاصة في كل من ألبانيا والصين الماوية.

(٤) لقد أثبتت نيتشه في كتابه الأول: «Wir Furchtlosen Die Fröhliche Wissenschaft»، أن أحدث وأعظم الأحداث هو أن الله قد مات، أي أن الإيمان بالله المسيحية أصبح غير مقبول أو مصدق به، وقد أخذ يلقى بظلاله على أوروبا. انظر Nietzsche الجزء الأول من ٤٨٩.

(٥) لم يوضح أحد معنى ضياع «القدس» كما فعل Rudolf Otto.

أما في ألمانيا الديقراطية، فلقد أثبتت إحصاءات أجريت بعد 10 سنوات من زوال الحكم الشيوعي عنها أن النجاح لم يحالف النظام إلا من خلال محاولته فرض العقيدة الشيوعية وتعليم الإلحاد في المناهج الدراسية. وخير دليل على ذلك طقوس الشبيبة، فطبقاً لها كان كل من يؤمن بالله يوصم بالخروج عن المجتمع، بل يُعدّ من المهمشين^(٦).

أما اليوم، فالإحصاءات تعطى صورة عن إيمان الشعب الألماني، كما يلى: يُعدّ ٤٧٪ من الألمان أنفسهم لا دينيين، و٩٪ يسمون أنفسهم ملحدين. ويرتفع هذا الرقم إلى ١٨٪ في ألمانيا الشرقية. أما بالنسبة لمن يُعدّون أنفسهم مؤمنين فيذهب ٩٪ منهم بانتظام إلى قداس الأحد، ولا ينبغي أن نعجب إذا وجدنا ٣٢٪ من البروتستانت الألمان يؤمنون بـ«قوة عليا»، بينما ٣١٪ منهم يؤمنون بالإله الذي تدعوا الكنيسة إلى الإيمان به.

إنهم بآياتهم هذا إنما يخلون ويبعدون، بدونوعي، عن صورة الإله الاستشرافي (الغبي) عن طريق الوحي الإلهي السامي، ويتوجهون بتقديسهم، أيضاً بلاوعي، إلى الصورة الفلسفية للإله الواحد الذي يتجلّى في الطبيعة، وهي صورة للإله تبناها من قبل مفكرون يونانيون سبقوا ظهور الديانة المسيحية. وهذا المنطق يفسر خروج المئات من المسيحيين من الإيمان الكنسي، فلقد فقدت الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا عام ١٩٩٧: ١٢٤ ألفاً من أعضائها. وهذا التطور يعود إلى ما يدور في عقول الناس من تفكير، أكثر مما يعود إلى ضرورة الكنائس المالية.

وإذا كانت الإحصاءات قد بنت في عام ١٩٩٦ أن ٣٩٪ فقط من الألمان يتبعون إلى الكنيسة الإنجيلية و٣٣٪ إلى الكنيسة الكاثوليكية، فإن ذلك يعني بطبيعة الحال أن ربع تعداد السكان الألماني بلا مذهب ديني.

لقد ذكرت مجلة «دير شبيجل» في عددها ١٥ من يونيو عام ١٩٩٢ من خلال مقالة بعنوان: «وداع الله» أن ألمانيا قد تحولت إلى بلد كافر، بها بقايا مسيحية. ولقد

(٦) لن تجد اختلافات بين استبيانات الناس في ألمانيا الغربية والشرقية إلا في مجال الدين. انظر FAZ ٢٢/٤/١٩٩٨ و ١٠/١١/١٩٩٨ و ٢٤/١١/١٩٩٨.

دفع ذلك رئيس الأساقفة الكاثوليك «ليهمان» إلى القول بأنه منذ بونيفاتيوس لم تشهد ألمانيا مسيحيين أقل منها اليوم.

وتُعدُّ بعض الطرق السوقية والفجة لنشر نظريات علمية، عاملًا أساسياً في هذا التطور. فنظرية داروين على سبيل المثال تجعل البعض يؤمن بأن كل شيء ما هو إلا نتاجة لسلسلة من التطورات تقع بمحض الصدفة، والتي يمكن إعادة تها بطريقة عكسية «reverse engineering»). واستنادًا إلى نظرية النسبية لأينشتاين، يعتقد البعض أنه لا يمكن الثقة بأى شيء. أما ستيفن هاوكنج^(*) فيجعلهم يعتقدون أنه لا أهمية لوجود الله لتفسير بدء الخليقة، حيث يُستبدل بذلك الـ (Big Bang). أما الوصول إلى سر الحياة والروح والوعي، فهو مسألة وقت لا غير، كما يراها رجل الشارع العادي. وستتكلف الكيمياء الحيوية وعلوم الكمبيوتر بحل هذه الألغاز.

ولا يختلف إنسان العصر الحديث، إنسان القرن الحادى والعشرين كثيراً عن سلفه إنسان القرن التاسع عشر؛ فهو كسلفه. وإن اختلفت حداة وتطورات الشعارات العلمية. يرى ويتوقع أن يفسر الوعي من خلال معطيات مادية، وأن يتوصل إلى صيغة للعالم على أساس ميكروفيزيقى، بمقتضاهما يمكن تفسير كل وجود العالم من خلال حجر بناء أساسى دون الحاجة إلى اللجوء إلى تفسيرات فلسفية.

وأعراض هذه الحالة تمثل في عملية الاستبعاد لكل ما هو دينى من المجال العام. فإذا كان المستشار الألماني لم يعد مستعداً. وكذلك لم يعد يرغب. في أداء مين منصبه أن يذكر الله، وإذا كان الله لم يذكر في خطابات أعياد الميلاد الألمانية الرسمية، فإن هذا ليس يدل فقط على تحول أوروبا الغربية عن المسيحية⁽⁷⁾، ولكنه يدل على ما هو أعظم أثراً من ذلك، وهو تسلل ودخول نزعة مادية فظة إلى نفوس ووجدان الكثير من الناس في الغرب.

(7) انظر Paul Schwarzenau: «عصر ما بعد المسيحية، عناصر لدين كوكبي» في Kirste ص ٤٧٨ وما يليها. وينطلق علماء لا هوت مسيحيون آخرون، مثل Hans Küng و John Hick من عدم وجود عالم مسيحي، وأن هذا العالم لن يوجد مرة أخرى.

(*) عالم أمريكي بريطانى الأصل كسيع له كتاب مشهور عن بداية العالم (الناشر).

هذا الإنكار لله الذي يعيشة الغرب. هو عدم مبالاة بأمور الآخرة أكثر منه إلحاداً. وتاليه الإنسان، سيكون لهما على المدى الطويل آثار وخيمة العاقبة، بل سيجلبان الخراب بعينه، وإن طال الأمد.

يعرب عن هذا الرأي أوتو فون هابسبرغ، إذ يقول: «إن أوروبا بلا مسيحية كيّت من الورق لا بد وأن يهوي»^(٨).

ومن قبله توصل جلبرت سيسنترتون عام ١٩٠٥ في «Heretics» إلى حكم مفاده: أن الحداثة إذا ما وصل المرء بتفكيره إلى ما مستكون عليه نهايتها، فإنه سيراهما تقود إلى الجنون بعينه. ولكن هذا لن يقع بسرعة، فالمجتمع الذي أصابه الإلحاد سيستفيد لفترة من القيم المتوارثة والسلوكيات التي ترسّس الإنسان عليها، وكذلك بعض المعتقدات التي تترسّج فيها الخرافات مع معتقدات جوته. ولكن سرعان ما يتّهى هذا الرصيد. فسرعان ما يبدأ البشر في البحث عن اللذة ومحاولة الحصول على كل ما يمكن من ملذات الحياة في عمره المحدود، ويترزّب بالطبع إهمالهم للصالح العام وللعائلة. ويُمكن للمرء أن يتّعلم كيفية التمتع بالحياة في معاهد «البحث عن السعادة». هذه الظاهرة - على ما أعتقد - أبلغ من أي قول عن العقلية الحاكمة لزماننا هذا، حتى أصبح الإعلاء من شأن الفرق في الملذات وإعطاء الأولوية لمنع الدنيا كأنه الدين غير الرسمية للدولة. عندما نصل إلى هذه النقطة، وقد وصلت إليها أجزاء كبيرة من العالم الغربي - تنهار الأسرة، البناء الأساسي والأول للمجتمع، وأعراض هذا الانهيار مخيفة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية نجد أن ١٥٪ فقط من الزيجات التي تمت حديثاً يتوقع لها - إحصائياً - الاستمرار.

وحقيقة أن هناك الملايين من الأمهات اللاتي يتحملن بفردهن تنشئة الأطفال بسبب غياب الأب، وهذا يؤدي بالقطع إلى وجود الكثير من الأطفال المضطربين. ولا يعاني هؤلاء الأطفال وحدهم من عدم رؤيتهم لأبائهم (إذا ما وجدوا أصلاً) في عطلات نهاية الأسبوع^(٩)، ولكن كذلك يعاني أطفال الأسر التي يعمل بها كلاً الأبوين.

(٨) Paneuropa, Otto von Habsburg رقم ٤/١٩٩١ ص ٦.

(٩) يطلق الفرنسيون على هؤلاء الآباء «pères démissionnaires».

فهؤلاء الآباء والأمهات إنما يحاولون تبرئة ضمائرهم من تهمة إهمال أطفالهم بإغراق المزيد من المتع المادية عليهم، كاللعبة، وهذه واحدة من صور الرشوة «الشراء» حب أطفالهم، وهم بذلك إنما يربون مبتهجين صغاراً، وجيلاً جديداً من المستهلكين الشرهين (جيلاً جديداً ضحية للتزعع الاستهلاكية). ويتولى عن هؤلاء الآباء «مجموعات الأصدقاء» مسئولية التنشئة الاجتماعية للأبناء. هذه المجموعات تضم في معظمها أحداثاً تحولوا إلى تجار مخدرات ونشئوا ينبع عن مجرمين عتاة مستقبلاً.

لقد فقد الأطفال الأميركيون منذ السبعينيات ١٢ ساعة أسبوعياً كان بإمكانهم أن يقضوها من قبل مع ذويهم. وفي الوقت نفسه، تباعد الأجداد الأميركيون عن حفظتهم. وفي الفترة الزمنية نفسها، تضاعفت معدلات الاتجار بين المراهقين، وسجلت معدلات أعمال العنف الصادرة عن الشباب زيادة تصل إلى أربعة أضعاف. فإذا كان الرفض هو ما يقابل به الطفل أو المراهق الأميركي حتى بين أصدقائه وفي مدرسته، فإن أعمال العنف - كما هو المعتمد في المدارس الأمريكية - هي النتيجة المنطقية المتوقعة. وما كان للعنف الذي يبثه التليفزيون، وألعاب الفيديو التي تروج للعنف كحل لكل المشكلات، وتحول الجنس إلى بضاعة في متناول الأطفال، ما كان لكل هذا أن يكون له هذا التأثير المفزع إذا ما أتيحت لهؤلاء الأطفال الذين يتصدقون بشاشات التليفزيون فرصة مشاهدة ما يذاع مع ذويهم ومناقشة كل ما يرون مع آبائهم، ولكن هؤلاء بالطبع غائبون. وهكذا ينخطط الأطفال المحرومون من العاطفة والمشاعر الأبوية، دون وعي بذلك، الحدود الفاصلة بين العالم الخيالي والعالم الحقيقي.

ويترتب على شعور الأطفال بعدم الاتمام داخل الأسرة المفككة، وشعورهم بأنهم غير مرغوب فيهم، زيادة أعداد الأطفال الذين يعانون من الاكتئاب حتى أصبح ٥٥٪ من المراهقين الأميركيين من المدخنين، وهم يلجهتون إلى التدخين للتغلب على الضغوط العصبية أسوة بالبالغين.

ويرى المراهق من خلال وسائل الإعلام قبل بلوغه سن الرشد، في المتوسط ١٥ ألف جريمة قتل واغتصاب واعتداء بالضرب، وهذا ليس مستغرباً إذا ما علمنا أن

هذا المراهق الحديث ما هو إلا رفيق الشاشة الصغيرة، يقضى حوالي ٣٠ ساعة أسبوعياً في متابعة التليفزيون وألعاب الكمبيوتر. عنف يولد عنف. والمدهش في أعمال العنف - كالتى وقعت في مدرسة ثانوية في دنفر عام ١٩٩٩ - أن هناك من لا يزال يتعجب من وقوع مثل هذه الأعمال.

ويؤدي الميل إلى تناول الخمور دوراً أساسياً في مثل هذه الأعمال، هذا الميل الراسخ في أعماق الحضارة الغربية. فلقد خبرت بنفسي وأنا طالب في the Union College بـ Schenectady عام ١٩٥٠ أنهم لا يتناولون الخمر للاسترخاء والتتمتع بصحبة جيدة مثلاً، بل إنهم يشربون حتى الشمالة ليفقدوا وعيهم. وهذا الميل يبدأ في أمريكا منذ سن مبكرة، سن الدراسة الثانوية.

كان وأد البنات حديثي الولادة في بلاد العرب قبل الإسلام لظروف اقتصادية صعبة، وذلك قبل أن ينهي القرآن^(١٠) عن هذا الفعل المشين. أما اليوم، فيتم تحديد نوع الجنين من خلال كشف مبكر بالموجات فوق الصوتية، وبناء على ذلك يتم انتقاء نوع الجنين والتخلص من غير المرغوب فيه، ويتم من خلال هذه العملية التخلص من ملايين الأطفال قبل أن يولدوا. ففي مدينة برلين وحدها، لا يرى إلا ثانى طفل نور الحياة. ولكن هذا لا يتم بسبب ظروف اقتصادية، فغالبية النساء الشابات يعتقدن أنهن وحدهن يملكن الحق في التصرف في «أرحامهن» حتى وإن ارتبط هذا بقتل طفل لم يولد بعد.

وبناءً على قرار خاص بالموت السريع، يتم تفتيت أجنة في مراحل متأخرة من النمو، ويتم القضاء على أطفال قادرين على الحياة.

وسابقاً، كان القضاء على أناس غير قادرين على الحياة بشكل طبيعي، يُعدُّ من قبيل الأعمال النازية.

ويُعدُّ التحول في موقف الرأي العام من الشذوذ الجنسي أحد الأعراض المميزة

(١٠) كما جاء في الآية [١٥١] من سورة الأنعام: «وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ». والآية [٣١] من سورة الإسراء: «وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ خَشْيَةٌ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ».

للتتوحش والعبث الجنسي⁽¹¹⁾ الذي أحدثه «الثورة الجنسية». كان الطب النفسي حتى فترة طويلة عقب الحرب العالمية الثانية، يَعُدُ الشذوذ الجنسي أحد أشكال الفساد الجنسي وإحدى صور انحطاطه الواضحة. أما في عام ١٩٧٢، فقد حدث تغير ما حين صنف المعجم الأمريكي لتصنيف الأمراض النفسية الشذوذ الجنسي مرضًا نفسياً. ولكن سرعان ما ظهر الشذوذ الجنسي أسلوباً للحياة، وانتفت عنه صفة المرض النفسي في الطبيعة لللاحقة للمعجم. فالشذوذ الجنسي طبقاً لذلك ما هو إلا توجه معين في الحياة، وممارسة لاحتمال قائم، أى أنه ظاهرة طبيعية لا يجب إخضاعها للعلاج النفسي.

وبناءً على هذه المعطيات كان من الضروري إخفاء أدلة علمية قوية على حقيقة ارتباط نشأة فيروس فقدان المناعة (الإيدز) بالشذوذ الجنسي بين الرجال وما يرتبط به من عوامل اكتساب. كما ثارت محاولات لإخفاء حقيقة ارتباط هذا الفيروس بعوامل أخرى ذات تأثير سلبي على جهاز المناعة كالخمر والمخدرات⁽¹²⁾.

كان يجب توجيه النظر بعيداً عن الأسباب المؤدية لظهور مرض الإيدز، والكامنة، بل والمستوطنة، في المجتمع الأمريكي، ولزاماً كان يجب إخفاء نشأة مرض الإيدز في مجتمع سان فرانسيسكو، وإلقاء المسؤولية بعيداً، ولن تجد أبعد من أحراش إفريقيا والقرود الخضر لتحمل هذه المسؤولية عنهم.

ولقد أدى هذا إلى أن يتعرض الزواج كمؤسسة إلى خطر داهم. إن إقبال الشواد الجنسي من الجنسين، رجالاً ونساءً، على عقد زيجات بين أفراد الجنس الواحد، لهو أمر غريب وموضع للتساؤل.

تشهد صور النهم الشديد لإشباع المللذات الجنسية كافة، فتظهر في الصور الإباحية بجميع أشكالها وجسمع وسماع وسائل نشرها، وكذلك التزعمات السادية والماسوشية، وصور تبادل الأزواج والزوجات، والتحرش الجنسي، بل والاستغلال الجنسي للأطفال. وتدل هذه الصور كافة على أن الغرب يحتفل بأخر انتصاراته لنزع عوامل الكبت البشري!

(11) Sexual Wilderness: Vance Packard.

(12) انظر مالك بدري (١٩٩٧) وجاءود جميل.

الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، هي أن المجتمع الغربي أصبح في بنائه مجتمعاً مدمداً أيًّا كانت الصورة التي يظهر عليها هذا الإدمان: خمر، نيكوتين، ماريجوانا، كوكايين، هيلروين، تليفزيون، ألعاب الكمبيوتر أو الإنترنت، وهو وضع يُعدُّ المسلمين انحرافاً عن الطريق الموصلة إلى الله.

من المعتاد أن تُتَعْرَفُ بما لا يقبل الشك على مدمدين يرتادون معك وسائل المواصلات في نيويورك وواشنطن وسان فرانسيسكو.

ثم إن تناول المخدرات والتَّعُودُ عليها يُؤدي دائمًا إلى المزيد من الإدمان. كذلك الحال في الممارسة الجنسية، حيث يدفع التَّعُودُ إلى مزيد من درجات التحرر لا يستطيع المرء معه أن يتخيّل إلى أين سيُمْضي به هذا الانحلال بشكله الواسع هذا! وليس من العجب أن يُتَالِ كل هذا الفساد كرامة المرأة، وإحدى الصور الواضحة لذلك هي مسابقات الجمال.

يشعر الإنسان في الغرب بـزيد من الوحدة والفراغ رغم التقدم الهائل في مجال وسائل الاتصالات وما نجم عنها من تضخم في المعلومات، حتى إن البعض يسميه «تخمة معلومات».

إن كتاب شارلز رايش الذي حقق أعلى المبيعات عام ١٩٧٠ وكان بعنوان «الخضراء أمريكا». قد مثلَّ وعداً لـ«المهزومين» بازدهار فكري وروحي لأمريكا بعد حرب فيتنام^(١٣). أما ما عرفته أمريكا وخبرته فهو على النقيض: بروادة شديدة جمدت العلاقات الإنسانية، ونزعَة عنف لم يسبق لها مثيل.

ومن المظاهر التي تبعث على القلق، هذه الوحدة التي تفرض على كبار السن، هؤلاء العجزة الذين يتم ترحيلهم إلى دور رعاية المسنين. وأسباب هذه الظاهرة لا تكمن فقط في الحقيقة التالية: هناك أعداد غفيرة من الشباب ذوى الطموح إلى درجة ال�وس بأعمالهم (يطلق عليهم *Yuppies*)^(١٤)، والمتطلعين فقط إلى تسلق

(١٣) كان كتاب Reich أكثر من تحليل. لقد كان بثابة إعلان، مانيفستو، أصاب به عصب جبله وإحساسهم ورؤيتهم للحياة.

(١٤) أي رجال أعمال من الشباب شديدى الطموح (Young, upward mobile professionals) *Yuppies*، والمتطلعين فقط إلى تسلق السلم الاجتماعي.

سلم النجاح المهني (يطلق عليهم: متسلقو الأهرام - *Pyramid climbers*^{١٥}). وهؤلاء ينتقلون من مكان إلى آخر وفق انتقالهم من وظيفة إلى وظيفة^{١٦}، ويؤدي هذا إلى تفكك الروابط الأسرية.

ويمكن إرجاع أسباب الوحشة كذلك إلى تقلص عدد الأسرة الحديثة إلى ٣ أفراد بحد أقصى، وليس ذلك فحسب، بل هناك فراغ هائل يفرض على الإنسان الغربي، حتى إنه يصير عضوا في «جماعة وحيدة»^{١٧}. هذا العضو يجد نفسه وحيداً أمام عجلة قيادته برغم الزحام الذي يحيط به، وكذلك يجد نفسه وحيداً أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به.

وكان من الممكن أن تؤدي الكنيسة دوراً فعالاً في هذه الفوضى الأخلاقية، إلا أن هناك جموعاً من المؤمنين تفر فراراً من الكنيسة كلما حاولت هذه إظهار عملية تحديد لها^{١٨}. فالكنيسة تفقد الكثير من أهميتها حينما تغير جلدها وتحول إلى مؤسسة اجتماعية تنافس غيرها من المؤسسات العلمانية والدينية. فلقد حدث في منطقة Oberbayern بألمانيا أن أعلنت راهبة تابعة للكنيسة عدم إيمانها بحياة أخرى بعد الموت. كما قام بعض أساتذة اللاهوت بتحويل يسوع إلى مصلح اجتماعي فقط، وفي ظل مثل هذه الواقع، يترك الكثير من المسيحيين المؤمنين الكنيسة، ليس إلى دين آخر، ولكن لينضموا إلى هذا البحر الهائل من المتشككين.

نستطيع إذاً أن نقول إن الخبرة الأساسية التي عاشتها الحداثة هي الفشل، وكان

(١٥) لقد صاغ *Vaixe Packard* مصطلح *Pyramid climbers* أي متسلق الهرم في كتابه الذي يحمل العنوان ذاته ١٩٦٢.

(١٦) لن نجد مجالاً يظهر فيه إصرار العاملين على النجاح والتحرك والتنقل مثل مجال البنك الاستثماري.

(١٧) لقد صاغ *David Riesmann* هذا المصطلح في الخمسينيات من خلال كتابه *«The Lonely Crowd»* أي «الجمع الوحيدة».

(١٨) إن شمالي أمريكا أقل بعدها عن المسيحية مقارنة بأوروبا، وذلك بناءً على عضوية الناس هناك في الكنائس والاعتراف العلني في المجالات العامة بوجود الله.

لقد تباً أسد (١٩٣٤) بهذا التطور، فقال بما معناه: إن كثيراً من المسيحيين لم يعد يقبل أن يتهن عقله عن طريق التعاليم التي تروجها الكنيسة مثل التجسيد وإرث الذنب والخلاص على الصليب والثالوت، وسينصرفون أزواجاً ليس عن الكنيسة فحسب بل أيضاً عن دينهم.

لابد لمشروع الخداعة أن يفشل؛ لأنَّه يرتكز على خطأ في التصميم (البناء الفكري)؛
يرتكز على الفرد الليبرالي كفاعل عاقل.

يمكِّننا أن نلاحظ أنَّ المسلم الذي يتناول الأمور بعين ناقدة لم يتطرق في نقاده إلى
نظام الدولة والاقتصاد. وإذا ما تحدثنا إليه في ذلك يأخذ في الهميمة بأنَّ العهد
بحرية الإنسان ليس بعيداً، كما أنَّ الدولة تتنهج منهجاً قصيراً النظر حيال المسلمين،
وتصم آذانها عن مشكلاتهم. أما بالنسبة للصحافة، فإنَّها وإن لم تكن تخضع لرقابة
حكومية إلا أنها تخضع لرقابة أخرى تحكمها المحرمات السياسية وغيرها في
المجتمع.

هذه هي ملاحظات شخصية المسلم المتخيلة، هذا المسلم الذي يؤمِّن عن اقتناع،
ويمارس الإسلام عن يقين. هذه الملاحظات التي تؤدي إلى إصدار حكم قاطع على
الغرب ورفضه، بل هو يرفض رفضاً باتاً أن يقتدي بهذه الحضارة التي تعانى أزمة
وجود، ويتنمَّى أن يبعد عن وطنه ما يؤدى به إلى هذا المصير. فهو يرى أنه ليس من
العقل في شيء أن يتبع ثروة تطور أثبت فشله، أو أن يسير خلف عملية تنوير
تؤدي في آخر الأمر إلى لا عقلانية الأخلاق وتوابعه الختامية.

الا يؤدى هذا بنا إلى التساؤل: هل شاهد كل من المسلم المؤمن عن اقتناع
ويقين، والمسلم بالميلاد، هل شاهد فعلاً كل منهما نفس العالم ووصفه كل
منهما حقاً؟

نعم! لم يقم كل منهما بهذا فحسب، بل إنَّ كلاً منهما - بأحكامهما المتباعدة بشدة
- على حق. فهناك في الغرب هذه الأيام الكثير مما يدعو إلى الإعجاب والاقتداء به،
وهناك أيضاً بالفعل ما يتنافى تماماً مع الطبيعة الإنسانية، بل ما يجرد الإنسان من
إنسانيته، حتى إن كل هذا يمكن أن يؤدى إلى انهيار هذه الحضارة وإنجازاتها إن لم
تسرع بتدارك الأمر.

وإذا كان الحق كل الحق مع الترميلين في حكمهما، فإنَّهما قد جانبهما الصواب
في رد فعليهما. فيجب عليهما - وعلى كل إنسان في الغرب - ألا يسير خلف كل
مظاهر الأزياء (الموضوعات)، ولكن أن يواجهها، وأن يستفيد بالإنجازات الغرب

الحقيقة، وأن يقاوم أمراضه الحضارية. «الانتقاء هو السبيل». ويتحقق هذا عندما تخيل أنفسنا مرافقين لشابين مسلمين مُتخيلين من الغرب، يقومان برحلاة إلى الشرق المسلم؛ لأن هناك الكثير مما يثير الإعجاب ويحضر على الاقتداء به، كما أن هناك الكثير مما ينفر، بل ويثير النقد الشديد.

* * *

الشرق المثير للتساؤل

شعار: يجب أن يكون هذا هو العصر الذي نسمو فيه على احتياجنا إلى دين.
(سلمان رشدي: ٦ من مارس عام ١٩٩٩ في كلامه عن الألفية الثالثة).

١٠

يمكن أن نلاحظ وجود مجموعتين من الطلبة الغربيين المعتنقين للإسلام. فهناك من أدى اعتناقه إلى الإسلام إلى تحول هائل في شخصه، حتى إنه أصبح يعيش بين عالمين، مثل عبد الهادى كريستيان هوفمان. والبعض الآخر من قرأ كتب Karl May في صباه، اكتشف في نفسه شغفًا شديدًا بكل ما هو عربي وإسلامي وشرقي، فاتجه إلى دراسة علوم الإسلام. وهم يحاولون الآن تحقيق الإسلام بدقة واتباعًا أدق تفاصيل سنة^(١) الرسول. (صلى الله عليه وسلم). في أنفسهم وأسلوب حياتهم، حتى في اتباعهم الهجرة^(٢)، إذ أنهم يهاجرون إلى العالم الإسلامي لأسباب عقائدية. وبعض هؤلاء من معتنقى الإسلام، يبالغون في التعرب في ملابسهم ومطعهم ولغتهم وإيماءاتهم، حتى إن بعض المسلمين يتهمونهم بالرومانسية

(١) السنة هي المصدر الشانى للدين الإسلامى بعد القرآن، وهى تضم مجلماً أقوال وأفعال الرسول. (محمد صلى الله عليه وسلم). وما سمع به وما نهى عنه. وتُعدّ السنة بناءً على هذا مثالاً يقتدى به المسلم.

(٢) الهجرة هي خروج الرسول محمد. (صلى الله عليه وسلم). وموعد حوالى ٢٠٠ من أتباعه عام ٦٢٢ م من مكة فاصلين بشرب التي تبعد ٤٠٠ كم عن مكة، والتي أصبحت فيما بعد تعرف باسم المدينة، حيث استطاع المسلمون لأول مرة أن يمارسوا إيمانهم بلا خوف أو اضطهاد، ويملؤوا على إقامة أول دولة لهم. ولا يزال أمر الهجرة هذا ملزماً لل المسلم الذى لا يتمكن من إقامة شعائر دينه في البلد المقيم به، لأسباب وعراقبيل تضعها الدولة وتمنع المسلم من عمارته دينه.

الشديدة في تناولهم للإسلام، ويتهمنهم بأنهم يتجاهلون عالمية الإسلام التي لا يحدوها زمان أو مكان. بل إن محاولتهم للتعرّب هذه، تزيد من تأكيد حكم مسبق يطلقه الغرب ويتبنّاه، مفاده أن الإسلام دين قبلي عربى، هذا بالرغم من وجود أعداد من المسلمين الهنود تفوق أعداد المسلمين العرب. أما بالنسبة للـ 250 مليون مسلم إندونيسى وماليزى وتايلاندى وفليبينى، فحدث ولا حرج ^(*).

٤٠

بادئ ذى بدء، نود أن نستمع إلى المسلم الغربى - الشخصية المتخيلة - وهو يرّضخ الأسباب الشخصية لرغبته في الهجرة إلى بلد إسلامى . ما العوامل الحضارية - التي تكاد تزيد عن عشرين عاملاً - والتي تجعل أحد المجتمعات الإسلامية جذاباً إلى درجة الرغبة في الحياة هناك؟ كيف يعتقد أوروبى أن يقدّره أن يعيد شحن بطاريته الأخلاقية والروحية في أحد المجتمعات الإسلامية، وهناك فقط ، وأن يعيش الإسلام في هذه البقعة وحدها؟

هيا نستمع إليه:

في مقابل العائلة الغربية الصغيرة غير المترابطة ، تُعد العائلة الكبيرة الممتدة ، التي تربطها أواصر وثيقة تمثل لحسن الحظ اللبنة الأساسية الصلبة للمجتمع . ولا يتقصّ من أهمية هذا أن ظاهرة العائلة الممتدة لا تقتصر على العالم الإسلامي فحسب .

وبالرغم من الضغوط التي تتعرّض لها العائلة المسلمة بهدف تغريّبها ، والمتّمثلة في السياحة والأفلام الغربية المتحرّرة (والتي تزيّن الطلق) وتحسين الأحوال المعيشية التي تغنى عن التكافل ، وتزيد من حرية حركة النساء ، فإنّها - أي الأسرة - تتكافّل وتنما سكّ عادة في المجتمعات الإسلامية ، حتى يشعر أفرادها بالدفء العاطفى والحسنى ، فت تكون شكوى البعض من زيادة الاهتمام والرعاية وليس من غيابها .

ونرى حتى في المجتمعات النفعية المسلمة ، أي مجتمعات الوفرة ، اجتماع أعضاء العائلة من الذكور أسبوعياً في منزل كبيرهم فيما يطلق عليه مجلس العائلة .

(*) من جنس الملايو .

ولقد رأيت في البحرين ما يزيد على ٨٠ شخصاً في مثل هذه المجالس (لا ينتهي كل هؤلاء إلى العائلة بفهمها الضيق المحدود). وطالما يتكسب أحد أفراد العائلة، فلا يجوع فرد منها.

يتم دائمًا التفكير في الشيوخ والعجزة في العائلة، كما يتم أخذ الأعداد الغفيرة من الأطفال في الحسبان في أي أمر من أمور العائلة أو مصالحها.

فحتى في تركيبها، ما كان من الممكن أن تجد قبل عشر سنوات داراً للمسنين. كما يرفض - بشدة - ملك المغرب إلى الآن إقامة دار للمسنين؛ لأنه يرى في ذلك مؤشرًا لانهيار الضمانة الاجتماعية التي تؤمنها العائلة للفرد.

هناك حقيقة ثابتة هي: تمثل العائلة في العالم الإسلامي - سواء ثرية أو فقيرة - النسيج الاجتماعي الأساسي. وهذه هي المكانة التي كانت الأسرة في الغرب تتحلها يوماً ما قبل أن تتولى الدولة عن الأسرة الأعباء التالية: تأمين المرضى، والعاطلين عن العمل، وأصحاب المعاشات، ومن تعرض لحادثة، وكل من يحتاج إلى رعاية.

أما في الأسرة المسلمة، فيعيش الجميع معاً، يأكلون سوية، يصلون معاً، يحتفلون مجتمعين، يحزنون معاً، ويعايش بعضهم البعض حتى في الوفاة، ويتم كل هذا دون ممارسة ضغوط من أي فرد من أفراد العائلة لقمع الشخصية المترفة، فالعائلة مجتمعة تساند الموهوب الفردية. وهناك أمثلة واضحة، مثل تضامن العائلة لإنفاذ أحد أفرادها المهووبين لاستكمال دراسته في الخارج.

ولا تغفل طبيعة العائلة المذكورة عن الضيافة ومظاهرها، خاصة أن الإسلام يدعو إلى إيواء الضيف وإكرامه لمدة ثلاثة أيام بحد أدنى (**)، وتلبية لتلك الدعوة، نشأت أساليب ومظاهر ضيافة لا يستطيع الغربي أن يفهمها، خاصة أنه مرتبط ارتباطاً شديداً بخطط منزلية ثابتة. (كان على لف्रط كرم الضيافة أن أثير انتباه الزائرين الرسميين من الألمان إلى الجزائر والمغرب في أثناء شغلي لمنصب السفير في

(**) ففي الحديث: «من كان يؤمّن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيوفه جائزته» قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، وما كان وراء ذلك فهو صدقة». البخاري [٦١٢٥]، وأبوداود [٣٧٤٨].

هذين البلدين، إلى عدم إبداء الإعجاب الشديد، وبطريقة ألمانية، فيما تقع عليه أعينهم عند أحد مضيفيهم. أما من لم يستمع إلى هذا الرأي، فكان يجد ما جذبه وأبدى إعجابه به. مثل كتاب قيم، لوحة جميلة أو تحفة ثمينة. في حفائه).

عادة ما يقوم المسلم بإحضار أكثر مما يطلبه منه أحد معارفه. فإذا كان المطلوب شراء أسطوانة موسيقية واحدة فإنك تتلقى اثنتين. إذا ما اصطحب أحد الأفراد شخصاً إلى السوق لشراء طعام أو شراب لمنزله، فلن يكون مستغرباً أن يهدي شيئاً لمنزل صاحبه.

يتمثل الإحساس بالعائلة وكرم الضيافة، الخلفية للدفء الإنساني والاستعداد التام لمساعدة المحتاج، التي تشع من المجتمعات الإسلامية: شعور الإخاء الذي يسود بين أبناء الأمة^(٣). لم يسمع معظم المسلمين عن ضرورة أن يحب المرأة جاره كما يحب نفسه، ولكنه قرأ في القرآن أن المسلمين إخوة^(٤).

لذلك يعيش الأوروبي هذه الطيبة والتسامح الذي يتعامل به المسلمون في المناطق الإسلامية كتجربة خاصة تجلب له سعادة غامرة، وينتابه إحساس غامر بالدفء الإنساني وشعور الناس بعضهم ببعض. وهذه الحقيقة تعدّ أحد الأسباب التي تدفع بالكثير من الفلبينيين الكاثوليك عن يعملون بدول الخليج العربي إلى اعتناق الإسلام^(٥).

فالمسلمون - وإن لم يسبق لهم معرفة بعضهم ببعض - يتعانقون عند السلام، ويتحدثون بالفترة شديدة دون لهجة خطاب رسمية، من الممكن أن توقعها من جماعة متقوقة على نفسها، وليس من جماعة دينية يفوق تعدادها مليار نسمة. ولا نستطيع أن نغفل عن حقيقة أن الاضطهاد الذي يتعرض له المسلم في بعض المناطق غير الإسلامية، تدفعه إلى الاحتماء^(٦) المسلمين الموجودين معه، مما يؤدي

(٣) الأمة تعير يصف جميع المؤمنين بأنهم إخوة بعضهم البعض.

(٤) لقد جاء في القرآن في سورة الحجرات الآية ١٠ «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ».

(٥) تعمل منظمات كثيرة لتحقيق هذا الهدف، وتشعاون فيما بينها، مثل التبليغ الإسلامي في قطر والبحرين والإمارات و Islam Discover.

(٦) إنني أشير هنا إلى الوضع المهين لـ ٨٠ مليون مسلم في الهند بسبب تجاهل منظمات حقوق الإنسان لهذا الوضع ومخاطره. =

بالتألی إلى زيادة ارتباط المسلمين بعضهم ببعض . لكن إذا بادر المسلم فسأل مسلما آخر شيئا ، ففي الغالب يكون هذا الشيء هو الدعاء له .

ويتجلى شعور المسلمين بالإخاء في حبهم لبذل المال بعضهم لبعض، هذه الظاهرة التي تسجل في الولايات المتحدة الأمريكية أرقاماً قياسية. فبجانب أموال الزكاة، التي تُعدّ أحد أركان الإسلام الخمسة^(٧). هناك الكثير من الصدقات التي يدفعها المسلمون في أمريكا لأعمال الرعاية الاجتماعية. فالمسلم يعلم علم اليقين أنه لا يجوز له شرعاً أداء مناسك الحجـ. وهو أحد أركان الإسلام الخمسةـ. إذا كان جاره في حاجة إلى المال. وتبلغ حصيلة أي حفل عشاء يضم من ٨٠-١٢٠ مدعواً مقام لجمع تبرعات لصالح شأن من شئون الإسلام من ٥٠٠ ألف دولار إلى ١٠٠ ألف دولار في بعض الأحيـانـ. وهناك في الولايات المتحدة الأمريكية أطباء مسلمون أزموـا أنفسـهمـ منذـ أنـ كانواـ طـلـبةـ طـبــ بدـفعـ ١٠٪ـ منـ دـخـلـهـمـ لـصالـحـ شأنـ منـ شـئـونـ الإـسـلامـ،ـ وهذاـ مـدىـ الحـيـاةـ.

لكن حب بذل المال لا يفسّر وحده ظاهرة بناء المساجد المنتشرة في العالم الإسلامي. ولكن يضاف إليه دافع آخر وهو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم مفاده: «من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»^(٨). لذلك تم في تركيا في العقد الأخير بناء مسجد كل ست ساعات بالجهود الذاتية. أما الملك السعودى فهد بن عبد العزيز، فقد أقام من ماله الخاص ٦٠ مسجداً في العالم المتداين لوس أنجلوس وروما.

انظر عمر خالidi: Indian Muslims since Independence, Vikas Publishing New Delhi 1996
«الهند المسلمين منذ الاستقلال».

(٧) ففي الحديث: «بني الاسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً». البخاري [٨].

(٨) يتضاعف أجر وثواب بناء المساجد من الروايات الصحيحة التالية: فقد روت عائشة كما جاء في سن أبي دارد حديث رقم ٤٥٥ أن الرسول دعا إلى بناء مساجد في الأماكن المختلفة التي يستوطنها المسلمين. وبنى أبو بكر - أبو عائشة - أول مسجد «خاص» في مكة قبل الهجرة. أما عثمان بن عفان الخليفة الثالث، فروى عن الرسول قوله: «من بنى مسجداً لله بنى الله له في الجنة مثله». (البخاري [٤٥٠]، ومسلم [٥٣٣/٢٤]).

يتمثل هذا التضامن والشعور بالانتماء الذي يسود أمة المسلمين والذي يسمى فوق أي اعتبارات عرقية، حقيقة سياسية يمكن إبرازها في أي وقت.

هذا، وإن لم يستطع مسلم -يأخذ الأمور بشكل جدي ويعامل معها بدقة- أن يزعم أن الإسلام نجح في القضاء نهائياً على أي تفرقة إثنية أو أحكام مسبقة يمارسها عرق ضد عرق آخر (فهناك الكثير من الأدلة والشاهد المريء، ليس أقلها ما يحدث في موريتانيا وشبه الجزيرة العربية) فإنه يستطيع أن يقول -وهو لا يتجنن على الحقيقة- إنك لن تجد ديننا نجح في دحض العنصرية والتغلب عليها بالدرجة التي حققها الإسلام (انظر فصل «عنى ألوان»).

وتؤدي فريضة الحج وظيفة هائلة في هذا الشأن، حيث تتلاشى فيها كل الفوارق بما فيها العرقية، فيتحول الحج إلى مهرجان لا ترى فيه اختلاف ألوان البشر، وكان المرء مصاب بعمى ألوان، فلا يفرق بين لون وآخر. ولقد أدت تجربة حج واحدة بـ Malcolm X (مالكولم إكس) رئيس جماعة «أمة الإسلام» Nation of Islam الذي عرف عنه معاداته للسامية وللبيض، إلى أن يتبيّن أن جماعته «أمة الإسلام» الموجلة في العنصرية، تسير على الدرب الخاطئ. ومنذ تلك اللحظة، أصبح مسلماً سنياً حقيقياً، وانضم إلى كل من محمد على و Rap Brown ووارث محمد، وأسمى نفسه حاج مالك الشباظ (لقد دفع حياته ثمناً لهذا التحول) ^(٩).

ومنذ تلك الواقعة ظهرت أعداد كبيرة في المساجد العربية والهندوباكستانية، والمساجد السوداء، تحاول إصلاح مسارها والعودة إلى الطريق القويم للشريعة الإسلامية. (تجدد تفاصيل هذا في فصل: «إسلام صنع في أمريكا in USA»).

نستطيع أن نقول إن الإسلام في مجمله يتسم بدرجة عالية من المساواة بين

(٩) انظر Barboza u. Gardell . لقد تحول وارث محمد ابن إيجا محمد، مؤسس أمة الإسلام، بعد وفاته والده ورحلة الحج إلى مكة، إلى مسلم سني يدعو أتباعه إلى الاندماج مع المسلمين البيض. أما Rap Brown، فقد تاب عن إجرامه وأصبح الآن بفضل تمكنه من اللغة العربية يزاول مهنة إمام.

البشر ، ذلك أن القرآن ذكر أن المرأة بتقواه وعمله وليس بعنتها ونفوذه ، ولا بحسبه ونسبة ، ولا بجماله وشهرته ^(١٠) .

وتتجسد فكرة مراعاة العمل الصالح والتقوى ، في أفضلية المرأة إذا ما غاب الإمام الرسمي للجامع عن صلاة ما ، فسرعان ما يتم اختيار من يكون بين المسلمين أنقاهم وأعلمهم بشئون دينهم ، ولا يعتد بجنس أو عرق أو مال أو جاه في هذا الاختيار ^(*) .

ولا ينفي هذا وجود مظاهر قليلة لملك وإمارة دنيوية في العالم الإسلامي متمثلة في الشيوخ والأمراء والملوك وأمرائهم الكثيرين ، ولكنك لن تجد بلاط يذكرك ببلاط بيزنطة إلا في المغرب ، حيث لا يقبل أحد أيدي الملك في إمارات الخليج على سبيل المثال ، ولا يحنى أحد رأسه عند المصافحة بالأيدي بل يرفعها شامخة .

ومن التجارب المؤثرة أن تشاهد بعض البدو في السعودية يلبسهم البالية وهم يحاورون ولی العهد الأمير عبد الله في مجلسه الأسبوعي ، ويواجهونه برأيهم بل ويلوحون بشدة بأصابعهم في وجهه .

وتماثل فكرة المساواة عند البدو المنتشرة بين المسلمين فكرة أخرى ، وهي الاحترام خاصة لمن هم أكبر سنًا . هذه الفضيلة التي يُنفر الغرب عنها بصفتها رذيلة . فالمسلم يتعلم منذ نعومة أظافره احترام الله وكلمته ، القرآن ، واحترام السلطة الأخلاقية للرسول ، كذلك احترام مكانة الأب والأم ، واحترام المعلم ، وكل من هو أكبر منه سنًا ، حتى إن الأخ الأكبر (بالتركيبة أية) والأخت الكبرى (بالتركيبة أبله) يتمتعان باحترام الإخوة الأصغر سنًا . هذا النهج في التعامل باحترام مع الأكبر سنًا ، والذى طالما تعرض في الغرب للنقد والتجریح ، بل والاستهزاء ، من الممكن أن يؤدي في حالات فردية إلى أن يسبق مكانة الفعل الحقيقي للإنسان ،

(١٠) تقول الآية ١٣ من سورة الحجرات : «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ» ، وكذلك في أمر الزواج ، على المسلم أن يفضل المؤمنة على الجميلة والغنية وذات النسب (النورى رقم ٣٦٤) .

(*) ففي الحديث : «يَوْمَ الْقُومُ أَفْرَزُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ مُوَافِقُوْمَهُمْ فَأَعْلَمُهُمْ بِالسَّنَةِ الحَدِيثُ» . مسلم [٢٩٠/٦٧٣] ، وأبوداود [٥٨٢/٢] ، والنسائي [٢/٧٦] .

أو بمعنى آخر أن يتفوق العُمر على القيمة الحقيقة للإنسان، خصوصاً أنه ليس من الضروري أن يتواكب العُمر مع الحكمة. كما أن بالمدارس العديدة من المعلمين التافهين.

ولكن في آخر الأمر، يضفي استعداد الناس لإبداء الاحترام سمة إنسانية على المجتمع الإسلامي، فكثيراً ما نفتقد في ألمانيا مثلاً. هذا الاحترام، فنرى أحد التلاميذ يجلس فائحاً فاه وهو يلوك العلقة^(*)، وامرأة حاملاً لا تقوى على الوقوف، ولا يفكر أحد في أن يقوم ليجلسها مكانه.

هناك سلوك حميد آخر مرتبط بهذا الاحترام ينتشر في العالم الإسلامي، إلا وهو احترام الخصوصية، والذي تلحظه بدقة في مدن كمدينة فاس، تلك المدينة ذات المباني الشديدة الالتصاق بعضها ببعض. في هذه المدينة يستطيع كل إنسان أن يرى من سطح بيته بيوت الآخرين، بل أن ينظر كل إنسان داخل نافذة الآخرين، ولكن سرعان ما تراءى للمرء حقيقة أن كل إنسان يحجب نفسه عن الآخرين ويحتمي نفسه من أنظار الآخرين⁽¹¹⁾. إنني أرى عامة البيوت الإسلامية مبنية وفق معايير هندسية معينة؛ لتتوفر الحماية والخصوصية لاصحاب هذه البيوت كمعطف من الفراء وحاشيتها من الحرير. ودورات المياه المخصصة للرجال في العالم الإسلامي توفر خصوصية أكثر من مثيلاتها في الغرب، فكل حمام مغلق كما هو الحال للنساء فقط في الغرب.

وهناك ظاهرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة نفي الإسلام لأى هيراركية وإن لم يبد هذا لأول وهلة: ظاهرة دور الخطاب الشفوي في الحضارة الإسلامية.

فأول كلمة تلقاها محمد عام ٦١٠ من الوحي هي أقرأ (سورة العلق: ٥١). أقرأ هذه لا تتضمن فعل القراءة فحسب، بل أيضاً التلاوة على الغير، أى وجوب

(*) العلقة: اللبنة.

(11) لقد صورت فاطيما مرنسي الحياة في بيت قاس له خصوصيته وعالمه الخاص المغلق مصحوباً بحنين جميل.

Mernisi, Dreams of Trespass, Tales of a Harem Girlhood, Addison - Wesley
انظر: Reading, MA, USA, 1994.

توصيلها للغير ، ومنذ تلك اللحظة غدت تلاوة القرآن فنًا رفيعًا وراقىًا ، وأصبح حفظ القرآن مهارة تخوضى بتقدير واحترام بالعين ، وهى المهارة التى يحرص مئات الآلاف حتى اليوم على إتقانها^(١٢) .

ولكن بالرغم من هذا ، فإنه من قبيل الفكر المضلل أن تتفق مع Hans Küng فى رأيه ، حيث يدعى أن تجسد الله فى يسوع (أى التجسد المادى) يقابله فى القرآن تجسد الله فى الكلمة^(١٣) ؛ لأنك لن تجد مسلماً واحداً يقدس وجود الله المادى فى القرآن المكتوب ، ولكنه يحترم الكلمة الله عند تلاوته ، بدون ادعاء أن الله عالم لغة عربية .

ويلتحق بهذه المهارة - أى مهارة تلاوة القرآن - شكل آخر من التلاوة ، وهى إلقاء القصائد المطولة كالمعلقات وقصائد الغزل التى تُعد أرقى صور الموسيقى العربية .

حدينا هذا لا يدل بأى شكل من الأشكال على التقليل من دور كل ما هو مكتوب فى العلوم الإسلامية . وكيف يمكن هذا ، ونحن نعلم قيمة أعمال علماء الإسلام المكتوبة ، وذلك منذ القرن الثاني الهجرى ؟ لقد تم تدوين القرآن فى صحف متفرقة فى أثناء حياة الرسول ، وما لبث بعد فترة قصيرة أن ظهرت كتب مطولة يجمع فيها العلماء حديث^(١٤) الرسول ، كما ظهرت تفاسير كثيرة للقرآن الكريم . وكذلك ظهرت روايات لسيرة^(١٥) الرسول وعلوم التاريخ وعلوم المعاجم وعلوم

(١٢) لقد تبنت من خلال زيارتى لمدرسة تحفيظ القرآن فى واد مدنى (تبعد ٢٠٠ كم عن الخرطوم جنوباً وتقع بين النيلين الأبيض والأزرق) قمت بها منذ فترة قصيرة ، أنهم يقومون بالتدريس هنا كما كان يحدث منذ ٤٠٠ عام مضى . لكن إذا ما تمكنت مسيحي من حفظ المعهد الجديد ، فإن هذا يكون أمراً عجيباً يصور على أنه حدث استثنائى ومدعاً كما حدث للإنجليزى David Bathurst الذى حفظ العهد الجديد (FAZ ١٩٩٨/٦/٣٠) .

(١٣) Hans Küng. يعلمنا الإسلام نهاية الفصل بين الدين والسياسة فى Die Welt رقم ٥٥ برلين ٦/٣/١٩٨٩ ص ١٣ .

(١٤) أهم مجموعات الأحاديث الموثقة انظر : البخارى ومسلم ومالك .

(١٥) يتميز كل من الطبرى وابن كثير بأنهما مفسراً لقرآن وأنهما مؤرخان للتاريخ الإسلامى . ولقد ظهرت ترجمات لتأريخ الطبرى ، ظهرت ترجمة فرنسية فى دار نشر ستيدباد ، وأخرى إنجلزية من خلال State University of N.Y. in Albany (Oxford University Press) . أما تفسيره للقرآن فقد ظهر منذ عام ١٩٨٩ بالإنجليزية من خلال دار نشر Oxford University Press .

ويقدم محمود أبوب عرضاً يضم ١٣ مفسراً للقرآن من عصور وتوجهات مختلفة فى The Qur'an and its interpreters . State University of N.Y. Press; Albany 1984 & 1992 . ظهر إلى الآن منه جزءان 1984 & 1992 .

أخرى كالنحو والفقه^(١٦) وغيرها من العلوم. كانت علوم اللغة والبلاغة هذه منذ بدايتها وفي مراحل تطورها المختلفة حريصة دائمًا على أن تكون النصوص المقدسة وما يتعلق بها من نصوص كالتفسير في متناول كل إنسان بشكل مباشر، حتى الأمي، على عكس ما تجده في الكنيسة وعلاقتها بالنصوص المقدسة من ناحية وأتباعها من ناحية أخرى.

لم تكن علوم الدين الإسلامي ولا نصوصه علمًا سريا في أي وقت من الأوقات. وكل ما سبق ذكره يؤكد من قيمة الشفاهية في الإسلام، ويوضح ما يتمتع به الإسلام من صلابة وقدرة على مقاومة المتربيين به. فلم يستطع السوفيت القضاء على الإسلام في آسيا الوسطى؛ لأن اعتقال علماء الإسلام وحرق المكتبات وحده لا يفرغ الإسلام من قوته، فهناك عنصر الشفاهية - الذي سبق ذكره - كوسيلة تعليم واعلام.

يقوم صديقنا المسلم المغرم بالشرق برصد عدة عناصر أخرى في أسلوب حياة المسلمين - وإن بدت أقل أهمية مما سبق - ويفيد إعجابه بها. من ضمن هذه المظاهر التي يذكرها بإعجاب شديد، الصبر الذي يتسم به المسلم، وهذه الصحوة التي يلمسها في كل مكان، وهو يعني بها قدرة المسلم على تجنب المخدرات والخمور، حتى وإن وجدت.

لن يضطر رجل في مدن يمارس فيها الإسلام أن يأخذ حذره من سائق مخمور ولا تضطر امرأة إلى أن تختاط لنفسها خوفاً من مخمور يتهمها. لن تستمع إلى جلبة وصخب يحدثهما مخمور، سواء ليلاً في شارع ما، أو على منضدة مجاورة لك في مطعم قصته.

بل إن عينيك لن تدمعا بتأثير دخان من يجاورونك في أي مجلس؛ لأن أعداد المدخنين في العالم الإسلامي أقل بكثير من مشيلتها في أوروبا وحتى في الولايات المتحدة.

(١٦) تُعد «الرسالة» للإمام الشافعى عملاً يتسم بالأهمية الشديدة حتى إنه يستحق فعلاً أن يكون قاعدة لعلوم التشريع الإسلامية. انظر: خضورى. وكما هو متوقع من ابن رشد الطبيب والفيلسوف والفقىئ، فإن كتابه القانونى: «بداية المجتهد» يُعد نموذجاً إلى يومنا هذا.

ال المسلم الحق عادة ما يكون رشيقاً؛ لأنَّه اتبعاعاً للسنة لا يجوز للمرء أن يأكل حتى الامتناء^(*). بينما نجد أن مشكلة السمنة هي إحدى المشكلات المؤرقة في الولايات المتحدة، حيث تنتشر ظاهرة السمنة بشكل مفرط، لدرجة أنها تكاد تكون مشكلة قومية. ولذلك تجد منذ اللحظة التي تطأ فيها قدماك أرض أحد مطارات الولايات المتحدة أناساً يعانون من مشكلة السمنة من مختلف الأعمار.

ومن قبيل التفسير السطحي لدرجة الإخلال بضمون المشكلة، أن ترجع أسباب السمنة المفرطة في الغرب إلى الشراهة في تناول الطعام، بينما نعمل نحافة المسلم بصومه شهر رمضان. ولكن من المؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن مشكلة السمنة والنحافة لا يمكن تفسيرهما فقط في ضوء الأطعمة السريعة ذات السعرات الحرارية المرتفعة، أو اللحوم التي تحتوى على هرمونات تورث السمنة، ولكنهما يفسران كذلك في ضوء الحالة النفسية للمرء؛ فلا عجب أن تتحدث عن «شحِّن الهموم»، مما يعيينا إلى الحديث عن أهمية الإيمان ودوره في حياة الأفراد والمحافظة عليها.

هناك أيضاً بجانب عدم الإسراف في الملايات صورة من صور الهدوء والاسترخاء في البيئة الإسلامية الحقيقة. ويُجْنح البعض إلى توسيع هذا الهدوء في ضوء المناخ الحار، ولكنك تصادف ظاهرة الهدوء هذه في الأقاليم الباردة كذلك. ويحلو للبعض الآخر تفسير هذا الاسترخاء بكونه إرهاقاً متوقعاً من أناس يستيقظون مبكراً لأداء صلاة الفجر (قبل شروق الشمس بحوالي ساعة ونصف الساعة تقريباً). ولكن في حقيقة الأمر يعود السبب في هذا الاسترخاء إلى غياب الضغوط الحياتية المعتادة، والذي لا يمكن تفسيره -أي هذا الغياب- إلا من روؤية دينية للدنيا وشئونها.

هناك بطبيعة الحال أطباء نفسيون في العالم الإسلامي ومرضى في حاجة إلى هؤلاء الأطباء⁽¹⁷⁾. لكن إيمان الناس ويقينهم الثابت بالقضاء والقدر، وثقتهم

(*) ففي الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من يطن، يحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإنْ كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه». [صحيح الترمذى 2280].

(17) انظر بدرى (1979).

بهداية الله وحسابه العادل في الآخرة، واعتقادهم بالأخرة وجود حياة بحیاها الإنسان بعد الموت، يحفظ غالبية المسلمين من إحساس بعذاب ما يعرف بمرحلة ما بعد المخاتلة بما يتضمنه من ضياع وجودي وفراغ كوني واغتراب مأساوي. كما يحميهم من الشعور بالاكتئاب بسبب التقدم في العمر، كل هذه الأمراض التي طالما حولت الكثير من الأطباء النفسيين إلى أثرياء.

في حين المسلم وإيمانه العميق المكلل بالتفوّي يؤدى إلى تضليل أهمية أشياء كثيرة تبدو لغير المؤمنين ذات أهمية عظمى، بل إنها تفرغها من أهميتها نهائيا.

والامر المهم جداً، أنك تسمع الأذان خمس مرات يومياً في العالم الإسلامي مذكراً إياك أن الله هو مانع الحياة والعاطي لكل شيء.

ومن الوظائف التي يفترض أن يؤديها الأذان، تنظيم حياة المسلم. ولكن يبدو أن هذا لا يتم إلا في البلدان التي تُغلق فيها المحلات في مواعيد الصلاة دون غيرها من البلدان التي لا تلتزم بهذا الأمر. تسهل الدولة برفعتها للأذان على المسلم تذكر مواعيد الصلاة وأدائها، كذلك توفر له شراء اللحم الحلال وهو مغمض العينين من أي جزار؛ لأنّه على ثقة بأن الذبيحة قد ذبحت حسب الشريعة الإسلامية^(١٨). هذا التيسير لا يلقيه المرء في العالم الغربي، حيث يقضى وقتاً طويلاً في قراءة ما يكتب على أغلفة منتجات اللحوم ليتأكد من خلوها من لحم الخنزير ..

ويتسم المسلمون بهدوء شديد فيما يختص بالوقت والزمن، حتى يُخيل إليك أنك تتحدث عن شعور مختلف بالزمن، شعور شرقي بالزمن إن جاز التعبير.

ومن المنطقي أن يتعدّر وجود وقت أينما وحينما يساوي الوقت المال (Time is money). فحركة العالم تسرع خطاتها في العالم الغربي بسرعة حركة دوران المال. ويؤدي الإنترنت دوراً أساسياً في هذا الصدد؛ لأنّه يتيح الاتصال فيما يسمى Real Time أي الاتصال في نفس الوقت. ولذلك فمن المحتمل توافق الوقت حيث لا يتم مساواته بالمال. ومن النتائج الإيجابية للموقف الشرقي من الوقت هو انتفاء القلق

(١٨) إن اللحوم (ماعدا لحم الخنزير) حلال للمسلم لو تم ذبحها وفق الشريعة الإسلامية، أي تحرّر باسم الله وبصفى دمها. يقول اليهود عن هذا النحر Kosher، كوشير.

الدائم بأنك ستصل متاخرًا عن موعدك، هذا الشعور الذي يلح باستمرار على الغربي.

فالمسلم لا يحول الوقت إلى طاغية يحكمه، ولا يحدد مواعيد يرزع تحت وطأة اللحاق بها؛ فهو مثلا لا يحدد موعداً كالساعة ٢٠:١٦، بل يقول في الفترة ما بين صلاة العصر وصلاة الغرب. فالكل يعلم أن الأولوية للصلاة وأنها عذر مقبول لأى تأخير.

تصفى الصحوة والهدوء المذكوران سابقا وقارا، يزيد من هذا الوقار الخطوة التي يحكمها الجلباب أو الشوب^(١٩) والقططان.

إن أول ما يخطر على بال صديقنا المسلم هذا عند ذكر الوقار المرأة المسلمة؛ لأنها اتباعاً للقرآن^(٢٠) والسنة ترتدي ملابس محتشمة تقىها شر الدخول في منافسة للعرى مع المرأة الغربية، أو الدخول في منافسة مع الرجل في مجالات Muscle، Building، ولذلك فقد نجحت المسلمة في العالم الإسلامي في أن تحفظ نفسها ولا تقع فريسة للاستغلال كسلعة جنسية في الدعاية أو في مكان العمل.

لقد اتّخذت حركة تحرير المرأة في الغرب حماية المرأة والدفاع عن حقوقها هدفاً رئيسياً لها، ولكن المرأة المسلمة تفوقت فيما حققته من نجاح على مثيلتها الغربية، وهذا ما يدفع النساء في الغرب إلى اعتناق الإسلام، حتى إن عدد النساء اللاتي يعتنقن الإسلام في الغرب يفوق عدد الرجال، رغم كل الدعاية المضادة.

(١٩) الجلباب المصري أو الشوب العربي هو نوع من الملابس التي تصل إلى أقدام الرجال وذات أكمام طويلة، تكون في الصيف عادة ذات ألوان فاتحة وفي الشتاء ذات ألوان داكنة.

(٢٠) الآية ٣١ من سورة النور «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم»، والآياتان ٥٣ و٥٩ من سورة الأحزاب «يا أيها الذين آتوكم آلا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إنما ذلك ولكن إذا دعكم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستشرين لحديث إن ذلك كان يؤذن النبي فستخجى منكم والله لا يستخجى من الحق وإذا سألتموه من متاعا فامسأله من وراء حجاب ذلك أظهر لكم لقولكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجا من بعده أهداه إن ذلك كان عند الله عظيما»، «يا أيها النبي قل لا زواجك وبناتك ونساء المؤمنين يلتئن عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يزدبن وكان الله غفورا رحيم».

ويتغاضى الغرب عن حقيقة دور المرأة وأهميتها في البيت المسلم، حيث تقوم بالدور الرئيس، خاصة كأم، فهي تمارس سلطة هائلة على أبنائها، أكثر مما يدو أو يتوقع أحد في الغرب.

تختتم الشخصية الغربية المتخيلة لصديقنا المسلم هذا، سرد الصفات التي تجذبه للحياة في المجتمع الإسلامي والتي أخذ في تبنيها بذكر حقيقة ثابتة، وهي شعوره بالارتياح لعيشها في بيته تقدر الله حق قدره، وتنزله المنزلة اللافقة بذاته سبحانه، وهذا يتم بطبيعة الحال (بلا شك) اليوم في العالم الإسلامي أكثر منه في الغرب.

حين يدبر السائق محرك السيارة، فإنه يبادر بذكر الله قائلاً: «بسم الله». ونفس هذا الفعل يأتيه كل من المحاضر وقائد الطائرة عند تحيته لضيف رحلته، والأب عندما يهم بالأكل ويمسك بالملعقة في يده. ولن نجد معاشرة لا يلقيها قائلها إلا ويستهلها بحمد الله والصلوة والسلام على رسوله والسلام لستمعيه^(٢١).

ويُعدّ يوم مولد الرسول عيداً رسمياً في الدول الإسلامية، حتى إن رئيس الدولة المصري يقيم استقبالاً رسمياً بهذه المناسبة، ويقيم ملك المغرب حفل إنشاد ديني للمناسبة نفسها. أما الملك السعودي فيحمل لقب خادم الحرمين الشريفين.

قد يبدو كل هذا سلوكاً مظهرياً قد يتحول إلى طقس بلا مضمون، ويقابل هذا «شخصية» الإيمان في الغرب، أى قصره على المجال الخاص للإنسان، هذا الإيمان الذي قد يخجل المرء أن يعلنه، خصوصاً المتعلم أو المثقف.

ويشير صديقنا المسلم الغربي الذي تملكه رغبة عارمة في الهجرة إلى عالم إسلامي والحياة فيه، إلى أن الإسلام بالرغم من الانبعاثات ذات القوة المركزية الجاذبة للإله الواحد، فإنه يتمتع كذلك باتجاهات ذات قوة مركبة طاردة تذهب به إلى التعددية. فلم يلبس خليفة ما يوماً ثوب البابا المعصوم، ولم يدع أحد في الإسلام - بما في ذلك محمد صلى الله عليه وسلم ذاته - الكمال أو أنه متزه عن الخطأ.

(٢١) عادة ما يبدأ المرء كلمته بـ«بسم الله الرحمن الرحيم، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

يقبل فقهاء الإسلام بوجود سبعة مذاهب فقهية على التوازي، بالرغم من وجود تناقض موضوعي بينها وفي ظل اختلافات في التفاصيل^(٢٢).

كما أثرت التعددية علوماً كعلوم الدين والفلسفة والتصوف، مما كان له أثره في نشأة مدارس فلسفية كالمعتزلة والأشاعرة، وكذلك في ظهور ملل ونحل^(٢٣) كثيرة وطرق صوفية شديدة الاختلاف^(٢٤).

أخيراً يقف كل مسلم أمام الله بغير وساطة أو تدخل لأى شخص مقدس أو أسرار دينية. وهكذا يصبح المسلمون ديمقراطيين أساسين لا يخضعون لنفوذ أى رجل دين، ومدفوعين بتعاليم القرآن إلى إدارة كل شئون الجماعة عن طريق التشاور بين أولى الأمر والمحكمين بشكل ديمقراطي^(٢٥).

وهنا تنتهي المرافة الفنية للمسلم الغربي المتخيّل، الراغب في الهجرة إلى الشرق.

٤٠

نوجّه الأنّ بسؤالنا عن الإسلام والحياة في العالم الإسلامي إلى الشخصية المتخيّلة الثانية، شخصية الغربي المعتقد للإسلام ولكن، على النقيض من زميله، يرصد سلبيات ونواقص عالم الشرق.

(٢٢) لقد تقاربت المذاهب السنية الأربعية حتى أصبح من المحتمل والمقبول أن تجتمع. وتعود الزيدية أقرب المذاهب الشيعية إلى المذاهب السنية الأربعية، وهو ذلك المذهب الذي أسسه زيد بن علي، وينتشر في اليمن، يليها مذهب الإثنى عشرية، وهو أكثر مذاهب الشيعة عدداً، ويعيش أتباعه في الشام والعراق وإيران ووسط آسيا. بعد ذلك هناك الشيعة الإمامية، وأكثرهم في وسط آسيا.

(٢٣) هناك غير المذاهب السنية والشيعية، الإباضية في سلطنة عمان وشمال إفريقيا، وهناك مذاهب أخرى مثيرة للخلاف والجدل، مثل البهائية والأحمدية والقديانية.

(٢٤) تقدم Schimmel عرضاً وافياً ودقيقاً للطرق الصوفية الكثيرة على اختلافها. انظر كذلك Parrinder.

(٢٥) إنني أشير هنا إلى مبدأ الشوري الذي ذكرته آية ١٥٩ من سورة آل عمران، والأية ٣٨ من سورة الشورى، كأساس لحياة بولانية إسلامية. والذي يسميه الشيخ محفوظ نحتاج الجزائرى «شوري قرآنية».

(كما فعلنا قبل ذلك عند مشاهدتنا للعالم الغربي من منظورى الطالبين المسلمين).

نحن أمام شخص مثله كمثل محمد أسد الذى يحمد الله. وهو فى الخامسة والثمانين من عمره. على أنه اعتنق الإسلام قبل أن يتعرف على العالم الإسلامي^(٢٦). لأنه بهذا الشكل لم يكن ليستطيع أن يتتجنب رؤية الواقع الذى يلقى بظلاله على النظرية الإسلامية ذاتها والفكر الإسلامي، ولا أن يركز اهتمامه أساسا على النظرية الإسلامية ذاتها وليس تطبيقها من قبل البشر فى الفترة الحالية من تاريخ الإنسانية وال المسلمين. ويتفق صديقنا المسلم هذا مع الشيخ محمد الغزالى (المتوفى عام ١٩٩٦) فى مقولته الشهيرة: إن بالغرب مسلمين قلائل والكثير من الإسلام، وإنه رأى العكس فى كثير من أجزاء العالم الإسلامي، أى مسلمين كثيرين والقليل من الإسلام.

لا يجتمع صديقنا إلى المبالغة فيدعي أن الإسلام هاجر من العالم الإسلامي سابقا إلى الغرب.

ولكن صديقنا هذا ينظر بسلبية شديدة إلى معظم ما رأه زميله إيجابيا في العالم الإسلامي، ويوجه نقده الشديد إلى غالبية العناصر التي مدحها زميله.

العالم الإسلامي جزء من العالم النامي (الدول النامية) الذى لا يتوافر فيه إلا أربعة أشياء فقط: الشمس والصحراء والأطفال والوقت. ولن تجد لهذا الوضع الذى يحتجبه فقط استيراد التكنولوجيا من الخارج. عذرا أو تسويفا تاريخيا أو جغرافيا.

يتساءل مفهوم العائلة عند المسلمين بازدواجية شديدة، حتى إنك تستطيع أن تراه عملاً أساسياً للفساد الذى يسرى في العالم الإسلامي حتى النخاع. ففى العالم الإسلامي تُقسم المناصب المهمة في الإدارة والشئون الاقتصادية وحتى الثقافية - كمجالى المسرح والأدب - بناء على علاقات القرابة والمحسوبية، ومن ثم يحتل كثيرا من المناصب المهمة والحساسة أناس غير مؤهلين تنقصهم الكفاءة، وبذلك تحرم هذه

(٢٦) كذلك قال لي أسد البالغ من العمر آنذاك ٨٥ عاماً فى لشبونة عام ١٩٨٥ [لقد قادى أسد (١٩٨٨) أكثر، فقال إنه لم يكن ليصبح مسلماً أبداً ما لم تكن قدرات فهمه متأثرة بالمدارس الأوروبية.

الدول من كفاءات تساهم في تدميتها. بل إن هذا الأمر يعوق عوامل وأسباب ثورها. يرى العامة من مسلمي الشرق أنفسهم ملتزمين أخلاقيا بحماية علاقات القرابة، حتى إنه لا يتابه أى شعور بالذنب تجاه من يظلمهم لحساب قرابته. لم يكن أحد ليجرؤ على أن يأتى مثل هذا السلوك في الغرب وإن وجد نفسه مهددا بدخول السجن إن لم يدخله فعلا.

أما بالنسبة للدفء الذي تتسنم به العلاقات الإنسانية بين أفراد الأمة، فهو حقيقة ولكنها حقيقة منقوصة وغير كاملة. فلا يمكن، بناء على ما يحدث على أرض الواقع، أن ندعى أن العمالة الأجنبية التي يبلغ تعدادها الملايين في شبه الجزيرة العربية تعامل الأخوة في الإسلام، ويعضد هذا الرأي (الذى ينكر معاملتهم معاملة الأخوة)، حرمانهم من حقوقهم في اصطحاب عائلاتهم، وحق الإقامة الدائم، وعدم صرف معاشاتهم المستحقة بعد انتهاء مدة الخدمة. فهل يجوز ترحيل الباحثين عن العمل من فقراء المسلمين (من الباكستانيين والمصريين والفلسطينيين والمغاربة). حتى وإن دخلوا البلاد بطرق غير شرعية. دون إجراءات قانونية، وفي ظل ظروف غير إنسانية¹⁹

أما بالنسبة للدول الفقيرة التي يبحث مواطنوها عن فرص عمل في دول الخليج الغنية، فستقع عيناك فيها على مظاهر رفاهية لن تجد لها مثيلا في دول غنية كثيرة. على سبيل المثال، في المغرب، ترى بعض نساء المغرب وقد ارتدن الملابس الفاخرة والمجوهرات الثمينة التي لا تجد لها مثيلا بين سيدات السلك الدبلوماسي في الغرب. وغيرهن. لدول أكثر غنى. لكن ربما كان هذا هو سبب غنى بلادهم.

قد يبدو هذا القول لاذعا وشديد السخرية، ولكنه قريب جدا من الواقع. إن ملاحظة حياة من كانوا بدوا سابقا في دول الخليج تعطيك الانطباع بأن أثمن ما في حياتهم وأغلاه، ليس الإنسان رجلا كان أو امرأة، وإنما هو الحيوانات الأصيلة كالخيول وصقور الصيد والتوك الهجن. فالاهتمام بصقور الصيد مثلا، الذي يصل إلى حد استقدام أخصائيين نفسين لهذه الصقور التي يبلغ ثمن الواحد منها مئات الآلاف من الدولارات، لا يشير استغراب مسلمي الغرب وحدهم.

أما محك الاختبار الحقيقى لشعور الإخاء الذى طالما تغنى به المسلمين، فهو القضاء على الفجوة الرهيبة بين قراء الأمة وأغنيائها.

لا يكمن بأى حال من الأحوال أن ننكر أن هناك الكثيرين من حكام بلاد البترول وغيرهم من أغنىاء المسلمين يبذلون الكثير من الأموال. بشكل فردى وشخصى- لشئون الإسلام كبناء المساجد والمراکز الأكاديمية. كالمراكز الأكاديمى للملك فهد بمدينة بون. على سبيل المثال، كما أن للشيخ زايد باعا طويلاً ومحاولات مستمرة للتأكد من استحقاق من يطلب المساعدة، وآداتها إليه. وأود أن أؤكد أن توزيع المال والصدقة على مستحقها أبعد ما يكون عن الأمر اليسير. وعلينا أن نأخذ كذلك في الحسبان أن المطالب الأساسية للمعيشة كالماء والكهرباء يحصل عليها المواطن بلا مقابل، أى بالمجان.

ولكن بالتزامن مع كل هذا، يفاجأ المسلم الغربى بظاهر ثراء ورفاهية يعجز عقله عن استيعابها، فلا تتماشى هذه المظاهر مع الأخوة المرجوة، مع التأكيد على أن الفائدة لن تعم على أحد إذا ما طالبنا المليونيرات بسحب أموالهم كسكنهم القهوة ليقسموها بين الناس. لكن مع الاحترام الشديد لرغبة المسلم في بذل الأموال لوجه الله، فإإنى أرى- لضمان الثواب في الآخرة^(٢٧). ألا ينفقوا أموالهم في بناء المزيد من الجوانع، بل في إقامة دور الخضانة والمدارس الإسلامية وتكوين جمعيات تهدف إلى مساعدة المسلمين مثل Muslim Aid (المعونة الإسلامية).

وبما أننا تطرقنا إلى حديث المال، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة أن الدول الإسلامية تروع أموالها بالغرب وغيره في ظل نظام يتعامل مع الفائدة البنكية بالرغم من نهى القرآن عن هذا التعامل، ويغير تقديم حلول منقذة للاستثمارات الخارجية^(٢٨). لقد حدد الإسلام طريقة الربح الحلال لرأس المال، وفيها يحتمل الربح والخسارة معاً. ولهذه الأسس فوائدتها الاقتصادية وليس الأخلاقية فحسب؛ لأنها تشحذ من مخيلة صاحب العمل واستعداده للمغامرة، وهي إحدى

(٢٧) أن يكون هنا هو ثواب بناء المساجد بشرط صحة النية والمال الحلال، لا يعني أن أعمال الخير الأخرى والصدقات لن تثاب بعثل هذا الثواب.

(٢٨) الآيات ٢٧٥، ٢٧٦ من سورة البقرة، والآية ١٣٠ من سورة آل عمران، والآية ٣٩ من سورة الروم.

الدعامات الأساسية للبناء الرأسمالي (لكن المجازفة وحدها لا توفر الشرعية الإسلامية للتعامل الرأسمالي).

إن محاولة التعايش بمعزل عن الفائدة في مجتمع مالي واقتصادي يعتمد في أساس بنائه على الفائدة. ليس كصفة فحسب، بل لأداء وظائف بعينها. تُعد ضرورة من ضروب المستحيل. ولكن المحزن في الأمر كله أننا في عامنا ١٤٢٠ للهجرة، أي بعد مئات السنين من إقامة نظم حكم إسلامية مازال ينقصنا نظام إسلامي اقتصادي حتى في بلدان كماليزيا وباكستان^(٢٩).

لأنستطيع أن ننفي عن الإسلام نزعته للمساواة والإقرارها بين البشر على المستويات كافة، وذلك منذ بواكير التاريخ الإسلامي، حتى إننا نلحظ على مر العصور محاولات عدة لاقرار هذه المساواة اجتماعياً وسياسياً من خلال الخوارج في القرن السابع مثلاً والقراطمة في القرن التاسع^(٣٠).

ولكن هذا لم يمنع وجودآلاف من النساء في شبه الجزيرة العربية يطالبن لأنفسهم بمعالم دون غيرهن من البشر، وذلك بصورة علنية كما خبرتها في إحدى رحلات طيران الخطوط السعودية.

كما أن العالم العربي يزخر بناتهن لأنفسهم بحقوق تفوق حقوق غيرهن، استناداً إلى ثروة أو جاء أو عائلة أو نسب أو محسوبية. ويتبع هذا ضرورة أن نعترف بعدم وجود دولة إسلامية تستطيع أن تدعى أن مواطناتها يشاركن في عملية الحكم حتى في ظل وجود انتخابات و المجالس نيابية. لكن على النقيض، إذا ما تناقشت مع مسلم متشدد عن الديقراطية، بادرك بالقول إنه لا يمكن الجمع بين الإسلام ونظام الحكم هذا (ونظراً لأهمية هذا الموضوع سفرد له فصلاً خاصاً به).

أما الاحترام الجدير بالإعجاب، والذي يحكم حياة المسلمين، فله محاذير،

(٢٩) انظر خورشيد أحمد (ناشر) ١٩٩٤ يعرض باستفاضة لشكلة الربا.

(٣٠) لقد كان هدف الخوارج - الذين قتلوا الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين - أن يسود مبدأ: «أن ينولى أنقى المسلمين رثامتهم» ولو كان هذا عن طريق السلاح.

لقد ثار القراطمة ضد وجود طبقة متميزة، حتى إنهم سرقوا الحجر الأسود لإثارة الانتباه إلى مطالبهم.

حيث يمكن أن يؤدي إلى اعتقاد مطلق في السلطة، وعدم التعرض بالمساءلة أو النقد. وهذا من شأنه أن يؤدي، ليس فقط إلى عدم أهلية المجتمع للممارسة السياسية الحرة والمحوار السلمي كوسيلة تغيير، بل أيضاً إلى عجز المجتمع عن تحقيق إنجازات علمية جديدة، لأن نقد الذات (أى افتراض الشك فيما هو قائم) هو السبيل للتقدم العلمي.

ولقد تعرضت الحضارة الإسلامية لهذا الخطر، بل دب الضعف في أوصالها في القرنين ١٤ و ١٥ الميلاديين، حين تضاءل احترام العلوم، بل اختفى تماماً الاهتمام بكل ما هو جديد، وتحول احترام الإنجازات العلمية للسابقين إلى مجرد تقليد، وأغلقت الأمة باب التجديد، حتى صارت ممارسة العلوم محصورة في كتابة المدون والحواشي والفالهارس لأعمال السابقين.

لقد أخطأ علماء هذه الحقبة حين اعتقدوا أن الأولين بحثوا في كل نواحي العلوم الإسلامية، حتى لم يعد أمامهم مجالات بحث، وأن الأولين كانوا بحكم قربهم من المصادر الأولية للإسلام أكثر قدرة على البحث.

وهذا الاتجاه - الذي لم يعلنه خليفة أو مدرسة علمية أو مجلس فقهي - استطاع أن يفرض نفسه كمناخ فكري سيطر على أنحاء العالم الإسلامي كافة، وكان هذا المناخ كفيناً لأن يقترب الإسلام وعلومه في حاليه البائسة هذه من الوضع الذي أوجده الكنيسة المسيحية من حظر على حرية التفكير، وإرساء للفكر المتحجر.

وقد أدى هذا الانحطاط الفكري إلى الانهيار الاقتصادي والعسكري وسقوطه ما بين القرنين ١٧، ١٩.

يعتقد غالبية المسلمين أن تخلفهم المادي اليوم ما هو إلا نتيجة للاستعمار الأوروبي الذي تعرضت له بلادهم إبان فترة الإمبريالية الغربية، ولكنني أرى العكس: فلقد تعرض العالم الإسلامي للاستعمار بسبب حالة الانحطاط^(٣١) التي كان قد وصل إليها من جراء اتجاه التقليد الذي استشرى في العلوم والفكر.

ويقرر علم النفس أن تحميل الآخرين مسؤولية فشل المرء يُعدّ من الآليات التي من

(٣١) أسد (١٩٨٨).

شأنها إراحة النفس. لكن هذه الآلية قد تحولت في العالم الإسلامي إلى حالة جنون مبالغ فيها، فكل الكوارث يتم إرجاعها إلى نوع من تأمر الغرب على العالم الإسلامي.

والتفسير التأمري لهذا دائمًا ما يحمل المخابرات الأمريكية، والموساد والمنظمات الصهيونية وعملاءهم، وكذلك الناتو، المسئولية الرئيسة لكل ما يتحقق بالأمة الإسلامية من مصائب.

فالبعض يعتقد حقيقة بوجود خطة رئيسة محكمة master plan لتدمير الإسلام والعمل على فناء العالم الإسلامي.

وما أعطى مصداقية لكل ادعاءات التأمر هذه: فشل حلف شمال الأطلنطي في وقف التزاع المسلح في البوسنة في سنواته الثلاثة الأولى، وإخلاص الولايات المتحدة في مساندتها المستمرة والدائمة لإسرائيل، وبروز يهود كمساعدين رئيين للرئيس كلينتون، وموظفين يحتلون مناصب مهمة في إدارته (٣٢).

هذا مع أن أيسر وأقرب التفسيرات هو أن الدول تمارس سياسة تخدم مصالحها الخاصة، وأن اختيارات شخص مثل بيل جيتس تغمر العالم على الرغم من الجميع، لأن التكنولوجيا فائقة التطور، كالماء تصب من أعلى إلى أسفل وليس العكس.

وتعدّ الحالة النفسية التي سبقت الإشارة إليها ذات ضرر بالغ للمسلمين، حيث تنتهي من التفكير في نقاط ضعفهم وتشخيص أسباب فشلهم الحقيقة وتحديدتها، وبالتالي تشن قدرتهم على المبادرة بإيجاد حلول للخروج من أزمتهم.

هناك ظاهرة أخرى مرتبطة بالاتجاه إلى التقليد ولا تقل عنه ضررا، وهي الخوف من كل جديد وعدم السماح به. ويظهر هذا أوضح ما يظهر في مناهج وأساليب التعليم في العالم الإسلامي، حيث يسود في المدارس - خاصة في المرحلة الأساسية - أسلوب التلقين والحفظ والتسميع، بدلاً من التساؤل عن أصول الأشياء وإعمال العقل، حتى صرنا نتحدث عن أمية المتعلمين.

(٣٢) مثل وزير الدفاع وزيرة الخارجية ومستشار الأمن القومي وغيرهم، ولكن لا يمكن تسويف المؤامرة الصهيونية على كلينتون لمجرد أن مونيكا لوبنسكي يهودية.

ويحيل علماء مسلمون - حتى الآن - إلى إثبات رأيهم عن طريق الاستشهاد بأراء من لهم مكانة وسلطة، بدلاً من الإثبات ببراهين وحجج توصلوا هم إليها، فيأتي حديثهم غالباً على النحو الآتي: قال فلان: «....» . وقال فلان: «....» .^(٣٣)

أما السبب الرئيسي لهذه الظاهرة، فهو تضييق مفهوم التجديد وتوسيع مفهوم البدعة في الإسلام، رغم أنه يحتمل المعنين الإيجابي والسلبي، فقصره البعض على معناه الثاني وهو السلبي؛ فكل تجديد في الفكر الإسلامي والممارسات والسلوك يُعدّ بدعة (بالمعنى السلبي للتجديد) غير مسموح بها^(٣٤). وهكذا انتشرت عقيدة «البدعة» التي مكنت البعض من استخدام تهمة «البدعة» كسلاح يشهرونه في وجه كل من يعارضهم، ويستخدمونه حسب أغراضهم ومصالحهم، ولهذه التهمة عواقبها الوخيمة التي أودى بسببيها من المتصوفة الخلاج والسهور^(٣٥) حتى الموت، وهذه الأسماء يذكران على سبيل المثال لا على سبيل المحصر.

ولقد أدى الخوف من التجديد، ووصم كل ما هو جديد بـ«البدعة» إلى ركود فكري، وتقوقع على الذات، والانفصال عن التطور التكنولوجى الغربي. ولقد أدى هذا على سبيل المثال إلى أن يطبع القرآن الكريم لأول مرة في هامبورج عام ١٦٤٩^(٣٦)، وألا يكون المسلمون هم أصحاب الفضل في هذا الإنجاز.

كان العلماء قبل ذلك عام ١٥٨٠ في إستبول، قد أمروا بتدمير المرصد الذي تم إنشاؤه في العام الذي سبقه بصفته بدعة، ولقد توقفت أولى المطابع العثمانية عام ١٧٤٥ بضغط من هؤلاء العلماء.

(٣٣) إننى أسمى هذا الأسلوب غير العلمى جلا جلا.

(٣٤) لقد طالب الرسول المؤمنين بالتمسك بسته كما ورد في كثير من الأحاديث. وأسوأ ما يمكن أن يصيب الإسلام هو البدعة. انظر النموذج الأول الحديث ١٧٠. أما ثواب التحدث والإضافة الإيجابية فتجدها عند مسلم حديث رقم ٦٤٦٦.

(٣٥) الخلاج، انظر ١٩٨٥ Sindbad Paris Poèmes mystiques

(٣٦) انظر إمام ص ٧٣ فهو يرى أن القرآن قد تم طبعه عام ١٥٣٠ في قنديسا ولكن تم تدمير هذه الطبعة، ولكن هذا لا يمكن إثباته لعدم وجود نسخة، ولكنني رأيت في بيت القرآن في المئمة نسخة بحالة جيدة من طبعة هامبورج.

ويعاني العالم الإسلامي إلى يومنا هذا - من وجود رقابة شديدة، نستطيع أن نلحظها حتى في نصوص خطبة الجمعة التي يلقاها موظفو وزارة الأوقاف التابعة للحكومة. في بعض الأئمة يقرءون الخطبة من ورقة مكتوبة مسبقاً، ليثبتوا للمسئولين خصوصهم للرقابة.

كما أن العالم الإسلامي يعاني إلى الآن من تفضيل العلوم الإنسانية والأدبية على العلوم الطبيعية، وكان الله لم يتجه في كتابه وفي الطبيعة على حد سواء.

فمن ذا الذي إذن يتعجب من أن ينال أفراد من العالم الإسلامي جائزة نوبل في الأداب، ولا ينالها أحد منه في العلوم الطبيعية؟ أما بالنسبة للعلوم الحديثة، كعلوم الجينات والميكروفيزياء والكيمياء الحيوية وعلوم الوراثة وعلوم الفضاء، فحدث ولا حرج.

هذا مع أن النجاح الباهر الذي يتحققه علماء ينتمون إلى دول إسلامية، مثل مصر، والهند، وباكستان، وفلسطين وسوريا في مجالات الحاسوب الآلي والطب في أمريكا، يدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن الأمر ليس أمر الموهبة ولكنه أمر المناخ العلمي الملائم وحرية البحث والتفكير. فنوابي السياسيون في سانتا كلارا وما حولها وكذلك بالوالتوفي وسط كاليفورنيا ما هما إلا منطبقتان إسلاميتان.

يبحث الإسلام المؤمنين على الصبر، فالله مع الصابرين^(٣٧). ولكن هذا لا يسُوغ ما يمارسه بعض الموظفين المسلمين في أماكن عملهم. فهم يجعلون من له طلب عندهم يتضرر حتى يفرغ من إفطاره أو حتى يفرغ من حديثه التليفوني الخاص المطول.

وإن كان البعد عن المللذات فضيلة يبحث عليها الإسلام، إلا أنك لا تجده متشاراً بالشكل المفترض في العالم الإسلامي.

فإذا كان محراً على المسلمين تقديم الخمور، فإنني لا أعلم أى شركة طيران تختتن عن تقديم هذه الخمور، ما عدا شركة الطيران السعودية. وهل من الممكن أن تقضي

(٣٧) كما جاء في الآية [١٥٣] من سورة البقرة: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» وكذا في غيرها من الآيات الأخرى التي نحت المسلم على الصبر، وما يتضرر من خير الجزاء والثواب لحسن صبره.

على الخمور والمخدرات إذا كنا نسمع (كما هو الحال في دبي) بأن يسكن دار الإسلام بدبي غير المسلمين بنسبة تبلغ حوالي ٩٢٪، وهؤلاء من غير المسلمين لهم الحق في تناول الخمور وفق الشريعة الإسلامية؟ ولن نندهش إذا علمنا أنه في ظل هذه الظروف، كانت دبي توج بالساقطات الروسية حتى وقت قريب.

أما بالنسبة للبحرين، فالكل يعلم أن السعوديين يعبرون جسر الظهران الذي يربطهم بالمنامة ليتمتعوا هناك بكل المحرمات، من خمر إلى دعارة.

ولقد أثبتت الإحصاءات أن أعداد من يتناولون الخمور في تركيا - بتاريخها الطويل المرتبط بالإسلام - يفوق عددهم في ألمانيا. وستندهش إذا علمت أن الخمور قد سمح بتناولها في ظل الحكم العثمانيين. فالعالم الإسلامي الحالي - تماماً - من الخمور والمخدرات غير موجود على أرض الواقع.

ويكفي كذلك أن ترى الإحساس الإسلامي بالوقت من منظور مزدوج. فمن الممكن أن يكون تسويفاً فقط لعدم الدقة في المواجهة الذي يُتهم به المسلمين، وهو تعبير عن عدم الاهتمام بالآخرين واحترامهم، كما أنه تبديد للوقت.

ومن الجائز أن تضفي الملابس المحشمة الوقاية على المرأة المسلمة، ومن المؤكد أن المرأة المسلمة تؤدي دوراً رئيساً في الأسرة، ولكن هذا لا يعني أنها تضطلع بالدور المنوط بها في القرآن والسنّة، ولا أنها تتمتع بكل الحقوق التي يمنحها إياها الإسلام. فعلى المرأة في العالم الإسلامي أن تعمل على تحرير نفسها من منطلق إسلامي. فهذا العالم ظل إلى الآن عالماً للرجال. (وهذا موضوع يعني به فصل منفرد).

أما التعددية التي يتسم بها الإسلام على المستويات كافة، فهي الأخرى قابلة لأكثر من تفسير. فهذه التعددية ثراء وعلى الجانب الآخر ضعف. فالدول الإسلامية تتعانى من فرقية شديدة، حتى إنها عرفت بها، فغدت إحدى العلامات المميزة لها. هذا بالرغم من نشأة الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ وقيام منظمة المؤتمر الإسلامي عام ١٩٦٩ بما تضمه من ٥٦ دولة.

وهذا الاختلاف والتشرذم أصبح علامة مسجلة للمسلمين، حتى في أوروبا والولايات المتحدة، فأصبحت مهمة أداء الإسلام يسيرة جداً.

أما ما يدعوا إلى القلق حقيقة، فهو غياب التعددية في الآراء والمذاهب، والتسامح مع الرأى المخالف، هذه التعددية الفكرية التي عرفت عن الفلسفه المسلمين^(٣٨) في الأزمنة السابقة.

فالمشهد الإسلامي تحكمه اليوم أقلية من المنظمات الإسلامية السياسية، والتي تناحر بعضها مع بعض؛ لأن كلامها يعتقد أنها وحدها تسير على درب الهدى دون غيرها.

هذه النظرة الضيقة يمكن تسويفها بأن هذه الحركات غالباً ما تجد نفسها في صراع مع نظم الحكم القائمة التي تخشى على وجودها. وعلى الشخص الذي يجاذف بحياته ويكون على استعداد لتحمل العذاب أو الموت في سبيل الإسلام، أن يحدد أولاً ويعرف أى إسلام هذا الذي يضحي من أجل إعلاء شأنه. وعلى أي حال لا يشترط أن يكون المرء بالضرورة سلفياً إذا ما عاد إلى الأسس الرئيسية للإسلام.

وهناك تفسير آخر للنظرة الضيقة التي تمارس بها الجماعات الإسلامية نشاطها، هو أن قادة هذه الجماعات أكاديميون ولكن ليسوا علماء دين أو فلسفه، بل معظمهم من خريجي كليات العلوم الطبيعية الأمر الذي يستلقيت جيل كيپيل Gilles Kepel النظر إليه.

ولقد رصدت ظاهرة أخرى شديدة الالتصاق بما سبق ذكره، وهو انبهار بعض الشباب المسلم بشئون هامشية جداً غير ذات أهمية. فاهتمام الشباب ينصب على البحث في أسئلة مثل: هل يفسد طلاء الأظافر الوضوء أم لا؟ هل يُعد الشعر المستعار غطاء مناسباً للرأس أم لا؟ هل يجوز شرعاً تركيب أسنان ذهبية؟ هل يجوز استخدام مواد التجميل التي تحتوى على مواد كحولية؟ هل يجوز استخدام الشوكة والسكين في تناول الطعام؟ هل الحلوي التي تدخل في صناعتها عظام الخنزير محرمة أم لا؟ هل يجوز شرعاً أن يكون المرء أشول أم لا؟ هل يجوز إهداء قرآن لغير مسلم؟ هل يجوز مصافحة الجنس الآخر باليد المجردة أم لا؟

(٣٨) يمثل كتاب أبي حامد الغزالى «تهاافت الفلسفه» وكتاب ابن رشد «تهاافت التهاافت»، وهو رد على الأول، قمة النقاش الفلسفى بين الفلسفه المسلمين فى القرن ١٢.

هذه أسللة حقيقة يبعث بها القراء في العالم العربي الإسلامي إلى علماء الدين للإجابة عنها، وينذر هؤلاء العلماء جهداً ملحوظاً للإجابة عنها فعلاً^(٣٩).

إنني أحيى بطبيعة الحال اهتمام هؤلاء الناس وحرصهم على إثبات السلوك القويم والتأكد من صحة تصرفاتهم، ولكنني لا أستطيع أن أتجاهل المخاطر التي تهدد الإسلام من جراء هذه التفصيات، فإنني أرى خطراً يلوح أمام عيني، وهو أن يتحول الإسلام إلى تعاليم تلمودية كما هو الحال في التعاليم المتشددة للدين اليهودي.

ذلك لأن الإسلام في جوهره - على النقيض من ذلك - يهدف إلى تسهيل حياة البشر والتخفيف عنهم وليس تعقيدها والإثقال على المسلمين^(٤٠). ولذلك نهى القرآن [سورة المائدة الآية ١٠١] والرسول عن طرح أسللة غير ضرورية. حتى لا يثقل المرأة على نفسه وينزع نفسه من التمتع بما يسهل له الحياة^(٤١).

٤٠

بعد سماع الرأيين المتعارضين، تتبادرنا نفس الحيرة التي انتابتنا من قبل عندما استعرضنا رأى الطالبين المسلمين في الغرب. ونقول نفس قولنا السابق: لا نستطيع أن نلوم واحداً منهم، أو أن نفضل رأياً على الرأى الآخر بشكل قاطع. فكل منهما له أسباب موضوعية لحكمه، ولكن يُستعرض دائمًا مسائل قابلة لأكثر من تفسير، ثم يحکم على هذه المسائل من وجهة نظر معينة. فالعالم الإسلامي كذلك له وجهان.

(٣٩) هذه الأسللة مصدراً لها الخطاب الدوري الذي تصدره جنة المسلمين الألمان (محررها عبد الله بوريك). إن السيدة تختبر من ضيق الأفق في التفكير ومن المخاطر المترتبة على ذلك والمتمثلة في الاضطهاد الفكري. ففي صحيح مسلم (٧/٢٦٧٠) قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «هلك المتعطون» قال لها ثلاثة.

(٤٠) الآية ١٨٥ سورة البقرة: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسُرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسُرَ» وكذلك الآية ٢٨٦ سورة البقرة «لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا».

(٤١) في الآية ١٠١ من سورة المائدة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا لَهُمْ أَنْتَوْا عَنْ أَشْيَاءِ إِنْ تَفْهَمُونَ كُمْ تَرْوَى».

إننى أوصى بعد هذا التبادل- التخييل طبعا- للملاحظات ألا تتحاول إلى العالم الإسلامي أو أن ترفضه تماما؛ لأننا في آخر الأمر استطعنا أن نبلور عدة عناصر تثبت النظرية القديمة القائلة: إن النور ينبع من الشرق. وسنصل إلى نفس التبيجة إذا ما قارنا الشرق بعالم الكيف، والغرب بعالم الکم. هذه المقارنة التي قد يبدو فيها الكثير من السطحية، إلا أنها تخفي وراءها الكثير من الحقيقة. فالعلاقات الإنسانية، حتى علاقات الحب- في الغرب تحكمها قوانين السوق. فالكل سواء في الدولة أو في المجال الاقتصادي والثقافي والرياضي، حتى في العائلة وال العلاقات الحميمة بين البشر، الكل يبغي تحقيق أقصى درجات الربح الممكنة في علاقاته، وتحسين الإنتاج عن طريق الرفع من مستوى الفاعلية والكفاءة.

فكل ما لا نستطيع ترجمته إلى أرقام لا قيمة له في الغرب، بل يتحول إلى شيء غريب غير منطقى، بل إلى رفاهية.

وفي ظل هذا، يظل الشرق وبخاصة العالم الإسلامي (ماوى) وملاذا للروحانيات، لمعرفة الله وللعاشرة المقدسات.

ويؤدى ذلك إلى إضفاء قيمة على أشياء ليس لها قيمة مادية في حقيقة الأمر كالوقت، والهدوء والسكينة، أن تستغرق في التأمل، أن تجلس في ظل شجرة، أن تستطيع أن تتناول كوبا من الشاي أو فنجانا من القهوة دون استعجال وفي وقته المناسب (مثل قهوة الصباح أو المساء)، أن تستمتع بقصيدة ما، أن تستغرق في حديث عن الله أو مع الله. وإذا كان الأمر هكذا. وأنا على يقين من هذا. فليس الغرب هو من يستطيع وحده أن يقدم للشرق شيئاً، بل يمكن للشرق كذلك أن يقدم الكثير للغرب، ولكن هناك المعوقات لتحقيق هذا الأمر، وهذا ما سوف تتناوله في الفصل القادم.

卷之三

سنوات طويلة من الغضب

شعار (١) «الإمبريالية هي النتيجة الضرورية والمنطقية للعولمة». (صموئيل هنتنجهتون: الغرب: متفرد وليس عالمياً. Foreign Affairs, 45/ Nr. 6. P.41)

شعار (٢): «هناك مؤشرات تدل على أن الإسلام سيشكل في غضون السنوات القادمة خطراً عظيماً». (رئيس جمعية حماية الدستور Peter Frisch في مجلة Der Spiegel 36/1997 p. 58.)

١٠

بعد أن كونا صورة محيرة ومفضوحة عن الغرب والشرق، علينا أن نتجه بانتظارنا إلى المستقبل لننجيب عن التساؤلات الآتية: ما التغيرات التي يجب أن تتم في كلا الجانبين؟ ما الذي يمكن أن يعلمه أحدهما للأخر؟ وكيف يمكن لكل من الغرب والشرق أن يستفيد من الآخر؟

لكن هذه النظرة الإيجابية إلى المستقبل يحجبها ماضٍ سيءٍ يمتد إلى سنوات طويلة من العلاقات بين الشرق والغرب، فما زالت الذاكرة الجماعية للشرق والغرب تحمل ذكريات لسنوات طويلة من الصراع والأحداث السيئة. وكل هذا يعرقل طريقاً يستهدف التوجه إلى مستقبل مشرق، يتسم بالتعاون وال العلاقات الودية بين الشرق والغرب. ولن يحدث هذا إلا بعد إزاحة أنقاض علاقات الماضي - خصوصاً العاطفية منها - عن الطريق، ولا بد أن يتم هذا عن طريق دراسة تخلو من المحرمات كافة، أي دراسة تتطرق إلى جميع العناصر التي حكمت - ولا تزال تحكم - العلاقة بين الشرق والغرب، حتى يهدى الطريق ليصيراً شريكين في صنع المستقبل.

سيحاول هذا الفصل أن يغوص في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب ومواجهاتها.

٤٢

من الجائز أن يؤمّن تعدد الآلهة السلام والاستقرار في هذا العالم أكثر مما يعزّزها الإيمان بإله واحد؛ لأنّه في ظل تعدد الآلهة تستطيع كل قبيلة أو جماعة أو قومية أن تعكّف على آلهتها، بينما يتضمّن الإيمان بإله واحد منحى العالمية، أي أن يعم هذا الإيمان العالم كله، وبذلك يشكل خطورة بأن يكون ذا طبيعة توسيعية أو عدوانية.

إن المسيحية والإسلام ديناً توحيد، ويحيطان البحر المتوسط كديانتين عالميتين، وهما بحكم طبيعتيهما هاتين يشكلان خطراً على بعضهما البعض، فكلّ منهما يريد أن يتّوسع على حساب الآخر.

ولقد عبر چيشار عن هذه الفكرة عندما تحدث عن الشيوعية، وهي بطبعيتها فكر عالمي يستهدف الانتشار في العالم كله، وألا يكون مقصوراً على جماعة دون غيرها، فيقول شى چيشار: «لا تستطيع أن تُعدَّ بالأنصار ثم توجّنا إلى العالم؛ لأنّ توجّنا هذا أخلاقي، والنماذج الأخلاقية لا تُعرف الحدود»^(١).

ولقد عبر حسن الترابي عن نفس الفكرة في حديثه عن الإسلام: «نحن نشكّل - بهذا المعنى - خطراً إذا ما انتقل توجّنا هذا وانتشر»^(٢).

أما الكنيسة المسيحية، فقد عبرت عن هذه الفكرة منذ زمن بعيد في منطوق (تصريح) البابا Cyperian أنه «لا خلاص خارج الكنيسة» ولقد دفعت أعداد لا حصر لها من العبيد والهنود والجرمان حيواتهم ثمناً لهذا المنهج، كما ساعد هذا المنهج محاكم التفتيش الكاثوليكية على العمل مرتاحه الضمير. وإذا كانت دعوات التبشير الموجهة لل المسلمين في شمالي إفريقيا، واجبًا دينياً وعملاً صالحاً، من قبل

(١) تقلّاع، ص ٦، Intervention & Revolution, Richard Barnet - New York 1972.

(٢) الترابي (١٩٩٢) ص ٧٢.

القائمين على العمل بالكنيسة من الإخوة والأخوات البيض في شمالي إفريقيا، فإن المسلمين يُعدونها عملاً عدوانياً، يتسم بالكثير من الصلف والتكبر. كذلك يعرف الإسلام منظمات للدعوة إلى الإسلام، وينظر إلى دعوته هذه على أنها عالمية لا يعدها زمان ولا مكان. فالإسلام، في النهاية، كمعناه الحرفى، أن تسلم نفسك لله. والإسلام كذلك دعوة توحيد تصلح لجمع الإنسانية حولها.

ولذلك، فالمسلم هو كل إنسان يؤمن بالإله الواحد الأحد ويُخضع له ويسلم به، سواء كان هذا الإنسان يدعو نفسه يهودياً أو مسيحيًا أو مسلماً. ولذلك فالقرآن يتحدث عن إبراهيم كمسلم في معناه الحقيقي الأوسع. ويُعدُّ الإسلام تاريخياً أحدث وأآخر الديانات السماوية الموحدة التي أنزلت للبشر، ولكن عقائدياً وفكرياً فالإسلام أقدم هذه الديانات. فالقرآن يقول: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» الآية ٦٧ سورة آل عمران.

عندما تحدث القرآن عن الإسلام في بعض آياته التي أنزلت في أوائل سنوات الوحي، كان المسلمون الأوائل يفسرون الكلمة حرفيًا، أي أن يسلم المرء نفسه لله (لم يفسروه بصفته هذا الدين الذي تطور على مر التاريخ، سأتناول هذا الرأي عن قرب في الفصل الأخير من الكتاب).

وإذا ما تناولنا الإسلام بعيداً عن معناه الحقيقي ودون ترجمة معناه المبدئي والأصلي، فإننا نجاذب باقحام فكرة مخيفة عليه ألا وهي (النجاة للإنسان خارج شرائع الإسلام) وبذلك نهين المسلم لمواجهة دينية وعسكرية. لقد عدَّ المسلمين منذ البدايات رسالتهم مهمة عالمية. ويُتضح هذا في عام ٦٢٨، أي قبل فتح مكة، وذلك عندما بعث محمد برسائله إلى حكام الممالك التي تحيط به، مثل قيصر بيزنطة هيراكليوس، والشاه الساساني في فارس، والمقوقس بطريرك الكنيسة القبطية بالإسكندرية (هذا الكتاب الذي كتب على جلد، محفوظ حتى الآن بأحد متاحف إستنبول). ولقد فسرت دعوة محمد بقبول الإسلام كطريق هداية بوصفها تطاولاً واستفزازاً لا يغتفر (لم يتغير الكثير في هذا الشأن كما

يتضح لنا من رد الفعل القاسى الذى تلقاه فكرة رفع الأذان على منارة أحد المساجد فى المانيا) (٢).

ومنذ اللحظة التى بعثت فيها هذه الرسائل ، بدأ خروج الإسلام من المحلية إلى العالمية . قسم المسلمون العالم إلى قسمين : «دار الإسلام» و«قية العالم» التي لا يسودها الإسلام بعد ، ولم تؤمن به . ولم يقسموه إلى عالم شرقى أو غربى ولم يأخذوا بأى تقسيمات جغرافية أو سياسية . ولقد صاحب توسيع الإسلام فى مناطق ذات ثقافات مختلفة . مثل شمالي إفريقيا وإسبانيا والأناضول . مشكلات عددة لعاليته ، كما حدث للمسيحية من قبل .

لقد لاحت . من ناحية . خطورة أن يتحول الإسلام إلى دين قبلى للعرب فقط على نهج اليهودية . وساعد على هذا أن منصب الخليفة ظل إلى ما قبل السلطان سليم الأول حكرًا على عربى من أصول قوشية . كما أخذ بعض العرب فى معاملة من اعتنق الإسلام حديثاً من البلدان الأخرى ، على أنهم مسلمون من الدرجة الثانية . ولقد أدت التفرقة فى السنوات الأولى للدولة الإسلامية (أيام الدولة الأموية) فى المعاملة وتفضيل العرب على غيرهم ، إلى ظهور حركات معادية للعرب عرفت بالحركات الشعوبية (انظر لمزيد من التفاصيل الفصل : صور وألوان) . وعلى الجانب الآخر ، كان هناك خطر يهدد الإسلام يتمثل فى استيعابه لتأثيرات غريبة عنه . مثله مثل المسيحية من قبل . مثل الأفلاطونية الجديدة ، والمانوية (نسبة إلى أحد دعاة الدين فى فارس عاش ٢١٦-٢٧٦) ، والزرادشتية والغنوصية وغيرها من الانجاهات الفلسفية والمعرفية العديدة . كان يمكن للإسلام أن يأخذ . فى محاولاته أن يكون عالمياً ومن خلال توسعاته الكثيرة . ببده التوفيق والتلتفيق بين اتجاهات عددة ، ويتحول بذلك إلى دين شرقى مُخلط .

أما عدم وجود مقابل إسلامى لپاولوسى (پاولوسى الإنجيلى) ويوحنا وماركين وأوجوستينوس أو ديونيسيوس أروياجيتا ، بالرغم من وجود أمثال الفارابى (٨٧٠-٨٠)

(٢) انظر برنامج بتاريخ ٢٤/٢/١٩٩٦ يصور رد فعل سكان مدينة Dillenburg على رغبة المسلمين المقيمين فيها والذى يبلغ عددهم ٢١٠٠ نسمة فى أن يبلغ صوت الأذان ٦٠ ديسيل . لقد صدرت الشكاوى من مواطنين لم يسمعوا صوت الأذان أبداً؟

٩٥٠) وابن عربى (١٢٤٠ - ١١٦٥). فيرجع إلى ما يلى: التسليحة التي آل إليها الخلاف الفلسفى في القرنين التاسع والعاشر ببغداد.

لقد استسلم المعتزلة - المتأثرون بالفلسفة الإغريقية - لنقد الأشاعرة المتطرف، والذي لا يقبل أى حلول وسط مع مدرسة أخرى. لقد انتصر ذلك الاتجاه. يسنته ويعضده الاتجاه الأدبي الشائع، وكذلك المحدثون وأهل السنة - الذي يعرف الآن حتى يومنا هذا بالاتجاه التقليدي، وهو اتجاه يعادى الفلسفة والتصوف بقسوة وصرامة. وامتد هذا الاتجاه إلى يومنا هذا يعضده المذهب الحنبلى ويزكيه الاتجاه الوهابى في السعودية.

لقد كان مبدأ التسامح الدينى أساساً يرتكز عليه الإسلام فى دعوته للعالمية، حيث إنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٥٦]. وهذا الأمر يستنكر، بل لا يجيز إجبار إنسان على اعتناق دين لا يرضاه بالقوة. كما ساعد على انتشار الإسلام عالمياً قبول الإسلام بتعدد الديانات، والذي يتمثل في أبلغ وأجل صورة في سورة المائدة، الآيات: ٤٣ - ٤٧: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْهُمُ الْتَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ لَمْ يَتَوَلَّنُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ويفضل هذا التسامح الدينى، تعايش وتقبل المسلمين الديانات الأخرى وأتباعها، وهم يفعلون ذلك إلى الآن، ولم يحتذوا بالمثال المسيحى - لذكر بونيفاتيوس في بيرمانيا، ومحاكم التفتيش في إسبانيا على سبيل المثال - الذي أجبر أتباع ديانات أخرى بالقوة على اعتناق المسيحية، وجازفوا بذلك باحتيال هؤلاء عليهم في نهاية الأمر.

ويتجسد التسامح الدينى - هذا الأمر الذى ينص عليه القرآن - في مظاهر متعددة، مثل بقاء اليونان على مسيحيتها بالرغم من حكم الأتراك العثمانيين المسلمين لها لما يزيد على ٥٠٠ عام، وكذلك مشاهدة المرء في القاهرة وهو في طريقه من المطار لكنائس تفوق أعدادها أعداد مشيلتها من المساجد. أما رؤيتك للكتاب المقدس وهو معروض في واجهات المكتبات في المغرب وإضاءة الصليب الذي يعلو الكنائس ليلاً بأضواء النيون في دمشق، فليست آخر هذه المظاهر، ولكنها - أى كل هذه المظاهر - إنما تمثل الجانب الإنسانى من أمر التسامح الدينى.

أما الجانب الآخر لهذا الأمر، فهو قدرة الإسلام على الاحتفاظ بيقائه. دون ذوبانه في الآخر. حتى في ظل عالميته. وهذا هو السبب الذي دفع الغرب منذ العصور القديمة (Antike) المتأخرة. (أى ما قبل العصور الوسطى). إلى النظر إلى الإسلام. برغم تعدده وتنوعه الداخلى. على أنه شكل وكيان ذو صبغة واحدة، ونظام صارم لا يعرف المرونة، يخشاه الغرب ويخافه.

هذا هو الوصف الدقيق للمشاعر التي حكمت علاقة الإسلام بالغرب، منذ القدم إلى يومنا هذا، الرعب والخوف. لقد بدأ هذا منذ التوسيع المذهل للإسلام في القرنين السابع والثامن الميلاديين، هذا التوسيع الذي ما زال يذهلنا حتى يومنا هذا، ولا نفهم أسبابه. ولكن ما كان للمحاربين العرب الذين لم يتعد تعدادهم عشرة آلاف أن يحققوا كل هذا النجاح. رغم حماستهم الدينية واستهانتهم بالموت، بل طلبهم إياه لنيل الشهادة. إلا لأن مواطنى بيزنطة وفارس لجئوا إلى المسلمين واعتقووا الإسلام بأعداد هائلة لثلاثة أسباب هي:

– التسامح الديني.

– نظام الضرائب ونماستهم لإدارة شئون البلاد، التي كانت أقل وحشية واستغلالاً من سبقوهم، ومحاولتهم لإقرار العدل في شئون البلاد.

– كان التصور الإسلامي لصورة الإله. خاصة فيما يتعلق بال المسيحية (أى المسيح والله) أقرب إلى تصور الكثيرين من المسيحيين غير المؤمنين بالتصور الذي تعتنقه الكنيسة الرسمية وتجيشه، مثل الأريانيين (جماعة تذكر أن المسيح هو الله، ونسبوا إلى أريوس الذي اعتقد هذا الفكر).

لم يستطع العالم المسيحي سواء في روما أو القسطنطينية. (في العالم الغربى أو الشرقي المسيحي). أن يتفهم هذا، ولم يفهموا الإسلام في سياق التاريخ الدينى وما يمثله الإسلام فيه. فلقد كان الإسلام أولى محاولات الإصلاح للمسيحية، أى محاولة إعادة المسيحية إلى جذورها الخينية الأولى. وبدلًا من تفهم هذه الحقيقة، أخذ الغرب ينشر أسطورة وأكذوبة توسيع الإسلام «بالنار والسيف» حتى إنهم نسبوا إلى أولئك المسلمين المتواحشين إحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة^(٤). كل هذا

(٤) وهو الانهيار الذى ثبت علمياً عدم صحته بالمرة، ولكنه لا يزال يتردد بأن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية الشهيرة بأمر من الخليفة عمر انظر Hunke (١٩٩١) ص ٦/٨٥.

ليدافعوا عن أنفسهم وعن شعورهم بالتميز، ذلك الشعور الذي يهاجمه الإسلام، بل يضر به في مقتل.

هذه الاتهامات ما هي إلا تزوير للحقيقة، ومع هذا فهي تفسير دائم لهذا الخوف من الإسلام، والذي يظهر إلى يومنا هذا عندما ينسب العنف إلى الإسلام وتجده واضحاً في معالجة وسائل الإعلام المختلفة في الغرب للأحداث مثل التي تقع في مصر والجزائر.

لقد تأثر الغرب بالازدهار الثقافي والعلمي للحضارة الإسلامية وإنجازاتها، في مراكزها المختلفة، سواء في بغداد في العصر العباسى أو قرطبة تحت حكم الأمويين، خاصة عن طريق من عاش من علماء المسلمين في الأندلس، مثل ابن رشد وابن حزم وابن عربي. ولقد امتد تأثير الحضارة الإسلامية عامة. وأولئك العلماء خاصة. على الغرب إلى مجالات عدّة، مثل علم الكلام والفلسفة اللاهوتية، وشعر الغزل والغناء، وإلى العمارة القوطية، وإلى مجالات الصحة والطب والرياضيات وإلى التصوف المسيحي. ولم تكن الحروب الصليبية تأثيرات هذه الحضارة. وبالرغم من ذلك، فالآن، لا يُعد في الغرب الجهل بهذا الازدهار لهذه الحضارة العظيمة ثغرة ثقافية أو نقص معلومات. فكل الذي انطبع من الإسلام في أذهان الغربيين على مر العصور هو المعارك الحربية، مثل الحروب الصليبية وحروب الأتراك العثمانيين التي أوصلتهم إلى أبواب قيينا، وليس الازدهار الحضاري والثقافي للإسلام وفضله على حضارة الغرب وتقديره، وإنما بدا الإسلام لماكس فيبر (Max Weber) كدين حرب^(٥). لم يصل الأتراك إلى قيينا فقط، بل هدد بعض فرسانهم الأجزاء الجنوبيّة من بافاريا. لقد هدد الأتراك في هذا الوقت كل أوروبا، وقد كان الإسلام دينهم، وذلك يفسر عنوان أولى ترجمات القرآن إلى اللغة الألمانية حيث أسمّاها المترجم Salomon Schweigger عام ١٦٦٦ (قرآن الأتراك: دين وخرافات)^(٦). أما الترجمة الثانية لمترجمها Johann Lange (١٦٨٨) فقد حملت عنوان: «كتاب الأحكام التركي الكامل أو قرآن محمد».

(٥) نقلًا عن Salvatore من ١٠٢.

(٦) لقد ثُمّت هذه الترجمة بفضل مارتن لوثر مع إضافات مثل المقدمة التي كتبها Melanchthon، وطبعت في بازل عام ١٥٤٢، وهناك نسخة منها في بيت القرآن في المنامة.

نجد هذا الارتباط بين الدين الإسلامي والخطر العثماني كذلك في ترجمة القرآن التي استعان بها الشاعر جوته في أعماله الشعرية. فقد كانت هذه الترجمة بعنوان: «كتاب الأتراك المقدس» ١٧٧٢ للمترجم David Friedrich Megerlin.

أما في زماننا هذا، فلم يأت الأتراك إلى قريتنا فقط، بل إلى مدينة Kreuzberg كرويتسبرج، ولكنهم لا يحملون سيفاً ولكن تأشيرات عمل مصدق عليها من قنصليات في إستبول وأنقرة وأزمير، حتى تقابلهم أنت وتلقاءهم كبشر جيران لك، وزملاء عمل أو زملاء دراسة.

ولكن هذا لم يؤد إلى زوال الخوف من الأتراك، بل ظل هذا الخوف على حاله يعيش في نفوس الغربيين، ويؤدي وبالتالي إلى أن يفرض الأتراك العزلة على أنفسهم.

ولذلك لا تندهن إذا قرأت عن فشل محاولات دمج الأتراك في بلاد أوروبا التي استوطنواها منذ أجيال، أو عندما تقرأ عن رفض المجلس الأوروبي لضم تركيا إليه ومنحها عضويته؛ لأن كل هذا يحدث بتأثير الذاكرة الجماعية للشعوب، فالأتراك يشكلون خطراً، وبالإضافة إلى ذلك فهم مسلمون.

ما زالت العقلية التي نتجت عن الحروب الصليبية تشكل وتحدد العلاقات المشتركة بين الغرب والإسلام.

لقد أثبتت كل من Norama Daniel في كتابه الذي يبعث على الاكتئاب Claude Cahen في كتاباته عن تاريخ Islam and the West - Making of Image الحروب الصليبية، أن آباء ومؤسسى فكرة الحروب الصليبية استعانوا الإشعال الكره ضد كل ما هو إسلامي - خاصة ضد محمد. استعانوا التحقيق هذا بحملة متقنة لنشر الجهل بكل ما هو إسلامي وحجب كل المعلومات الصحيحة، ونشر معلومات مغلوطة بين الناس.

بالرغم من وجود ترجمة سليمة في جوهرها للقرآن إلى اللغة اللاتينية منذ عام ١١٤٢ (قام بهذه الترجمة كل من Robertus Keteresis, Hermanus Dalmata. بتكليف من رئيس دير Petrus Venerabilis Clyny المتوفى عام ١١٥٦)، فإن ما قيل للفرسان الصليبيين بخصوص إيمان المسلمين ياله واحد أحد أى «لا إله إلا الله» حور

إلى «لا إله إلا محمد» (Non est Deus nisi Mahometus). لقد صُور محمد للفرسان على أنه ساحر، أو صنم، حتى قيل إنه كاردينال أصابه الفشل ومن ثم كان حقده على المسيحية عندما لم يتم اختياره لكرسي البابوية!

لم يتعامل الفرسان الصليبيون مع الإسلام على أنه دين آخر، بل على أنه خروج على المسيحية، وابتعاد عن تعاليمها الأصيلة يجبر معارضته بكل الطرق - حتى أشعها - والتي شملت كل الفظائع وحمامات الدم وشَأْطِنَّ أطفال المسلمين، بل وأكل لحومهم (وفق مراجع تاريخية غربية) عندما اقتحموا كلا من القدس (١٠٩٩) ودمياط (١٢١٩).

لقد مرت ٢٠٠ عام من الحروب دون أن يتصر العالم الغربي على العالم الإسلامي، وكذلك دون إبداء أي محاولة لفهمه إلا بعض الاستثناءات القليلة، مثل القديس فرانسيس코س والقيصر فريديريك الثاني، اللذين تأثرا بثقافة وتقوى وتسامح سلطان القدس الملك الكامل (أحدهما ١٢١٦ والأخر ١٢٢٩). ولم يغير رأى هذين الشخصين من موقف الغالبية في الغرب تجاه الإسلام، كمالم ينجح في ذلك من بعدهما ليون الإفريقي أو الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٠ - ١٥٥٠) الرحالة بين عالمين وديانتين.

لقد نسبت - منذ ذلك الوقت - صفات إلى الرسول ونُعت بـ مفردات يستخدمها سلمان رشدي اليوم. كان محمد - صلى الله عليه وسلم - وما زال إلى يومنا هذا عرضة لكل اتهام يلصق به دون أن يتعرض من يتضوئ بكل بذلة ضدّه لأدنى عقاب، ولا تعد إهانة مشاعر ٢,١ مليار مسلم وجراحتها بسبب نبيهم وتشويهه من الأخطاء السياسية.

ولقد أقرت أن ماري شمل Anne Marie Schimmel. وذلك عن حق - ما يلى: «أثار محمد - أكثر من غيره من الشخصيات التاريخية - الدهر والكره بل والاحتقار لشخصه في العالم المسيحي. وما زعم دانتي من أن محمداً في الجحيم - ولعنه إيه - أى محمد - إلا تعبيراً عن شعور عدد لا يحصى من مسيحيي العصور الوسطى»^(٧).

Und Mohamad ist sein Prophet: Schimmel. (٧)

ومحمد رسوله
ص ٧، ١٩٨١ ميونخ. Eugen Diederichs:

والي يومنا هذا، تخجل الكنيسة الكاثوليكية وتخشى أن تعرف بمحمد قائداً للإسلام - الذي اعترفت به - كإحدى طرق النجاة. وهذا يشير العجب، إذ أنَّ العالم الأمريكي ما يكل هارت وضع محمداً على رأس قائمة الـ 100 شخصية التي أثرت في تاريخ البشرية.

كانت تجربة المخوب الصليبية مع الشرق المسلم صدمة تبعتها نتائج عديدة. فلقد بدءوا مسيرتهم الخطرة إلى المدينة المقدسة بحملة اضطهاد للبيهود في منطقة الراين. وعندما وصلوا إلى المدينة المقدسة واستولوا على القدس عام 1099، سالت حمامات دماء أهلها بشكل وحشى لا يمكن تخيله حتى يومنا هذا. أما في عام 1403/1404 فنهبوا مدينة القدس القسطنطينية المسيحية الشرقية وعاثوا فيها فساداً، لاعتقادهم أنها مدينة خارجة عن الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها.

(لم تشهد مدينة إستنبول المسيحية قبل هذا التاريخ أو بعده أضراراً وأهواً كالتي لاقتها على أيدي الفرسان الصليبيين).

ولم يستطع الكثيرون منهم إغفال حقيقةٍ وهي أن هؤلاء البرابرة المتورثين الذين أتوا بمعاريتهم يفوقونهم تحضرًا ورقىًّا في نواحٍ عديدة، على رأسها الجانب الأخلاقي. ولهذه الأسباب ظلت ذكرى صلاح الدين البطل المسلم الكردي سلطان العرب حية كأسطورة في ذاكرة الغرب.

لقد تركت المخوب الصليبية في الغرب ذكرى مؤلمة مخوب في مخيلة أهلها، كما خلقت هذه المخوب في خيال الغرب ذكريات تشمل حياة الشرق، وبخاصة الجانب الجنسي منها. إنني شخصياً ألمح الارتباط بهذا الماضي وذكره في صورة الشرق الحسية من منظور غربي واتى بمحنة أبرز انعكاس لها في أفلام هولى وود عن الشرق.

ولا يستطيع المرء أن ينكر صحة تحليل إدوارد سعيد القائل بأن الصورة الغربية للشرق هي في جزء منها نتيجة لانعكاس رغبات وإسقاطات لا يعترف الغرب بأنه يمكنها في نفسه ويشعر بها.

أما بالنسبة للشرق، فقد كانت نتائج الحروب الصليبية في مجملها أقل قسوة، حيث كان النصر في آخر الأمر حليف الشرق. استمر هذا الاعتقاد حتى أبانت شعوب الشرق مع كابوس الاحتلال في العصور الحديثة بأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة بشكل دنيوي إلى يومنا هذا.

فما أن انتهت الحروب الصليبية بشكلها التقليدي، حتى تعرض المسلمين واليهود لعملية تطهير عرقي في إسبانيا الشديدة التحصّب للكاثوليكية، استهدفت طردهم من إسبانيا التي ظلت لمدة 800 عام تحت حكم المسلمين.

وبعدها حاول ملك البرتغال الشاب Sebastiao أن يفرض المسيحية على المغرب قبل أن يفقد حياته في معركة الملوك الثلاثة عام 1578 في قصره الكبير، ووقعت بلاده نتيجة لذلك في أيدي إسبانيا.

وبعد ذلك دفعت فكرة حملة فرنسية تحت زعم «التحضير» مصر بناپليون إلى أن يأتي إلى مصر ويدعى أنه حامي الإسلام. وبعدها بوقت قصير، احتل الفرنسيون الجزائر عام 1830. وتطل آثارهم المتمثلة في كنائس متفاخرة أمثال كاتدرائية (Notre Dame d'Afrique) في كل ربوة المغرب العربي مثل تونس، عنابة، والجزائر العاصمة ووهران والرباط والدار البيضاء.

ويذهل المرء عندما يقرأ أن ملك اليونان عندما حاول فرض المسيحية على المناطق خارج ميناء أزمير عام 1922، حرص على أن تطأ قدماء الأرض التي وطأها الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد في الحرب الصليبية الثالثة عام 1190.

ولقد كانت حرب البوسنة و المعارك لإيادة مسلمي وألبان كوسوفا حروباً دينية من وجهة نظر الصرب واليونان، كانت حروباً صليبية متأخرة للقضاء على آخر الآثار الإسلامية في البلقان (بالموازنة يحظر في البلدين بناء مساجد).

هي حقيقة وواقع لا ينكر: لم تنته الحروب الصليبية حتى يومنا هذا من وجهة نظر المسلمين، حتى وإن لم يظهر الفرسان الصليبيون اليوم بذروعهم الحربية، بل في بدلة رجل الأعمال. (لا يعاني العالم الإسلامي وحده من ذلك. فلقد ذكر منذ فترة وجيزة أن أحد السفراء الأميركيين قال لزميله الياباني الذي أصابه الذهول: «إن

لغتكم الصعبة تُمثل عقبة تجارية غير متفق عليها، أى يجب إزالتها طبقاً للوائح منظمة التجارة العالمية WTO^(٨).

ولقد استمر الغرب يستبيح انتقاد الإسلام حتى في سياق غير ديني. فعلى العالم الإسلامي أن يختار بين المسيحية أو الأسلوب الأمريكي للحياة. ولقد عبر Karl May عن هذا الموقف في كتبه التي صاغت عقلية الألمان عن الشرق والإسلام.

لقد أثبت شاكر الرفاعي في رسالته لنيل درجة الدكتوراه في بون، أن كارل مای كان يكتب بتكليف من الكنيسة، وأنه قال على لسان إحدى شخصياته - برغم علمه بصححة موقف الإسلام وعارضه لما قال. إن المسلم يعتقد «أن المرأة لا تملك روحًا». لقد توصل الرفاعي إلى أن كارل مای - على عكس رواياته عن الهند والهند الصيني - يصور في رواياته عن الشرق الآخيار على أنهم فقط المسيحيون. «والقلة القليلة من الآخيار من المسلمين تحول في النهاية إلى اعتناق المسيحية»^(٩).

ومن لا يكتفى بكل المؤشرات التي سبق ذكرها، فليتعمق في نسق الفكر الختني لفرانسيس فوكوياما وإستراتيجيات استبعاد الإسلام التي يتبنّاها صاموئيل هتشنجلتون في عصرنا الراهن.

يُعدّ المسلمون مثل هذا التفكير إمبريالية ثقافية، لأنـهـ كما كان الوضع بالنسبة للصلبيـنـ. ينطلق من فكرتين: أولاًـهماـ، تفوق العالم الغربيـبنموذجهـ الختنيـ المتقدمـ، وثانيـتهـماـ: حقـالـعالمـالـغـرـبـيـ،ـ بلـ وـاجـبـهـ،ـ أنـ يـرـتـبـطـ باـقـيـ العـالـمـ بـهـ وـيـتـبـعـهـ.ـ يمكنـناـ أنـ نـلـخـصـ هـذـاـ الفـكـرـ فـيـ المـقـولـةـ السـاخـرـةـ: The West... and the Restـ هـذـاـ التـفـكـيرـ يـبـعـثـ الخـوـفـ فـيـ نـفـوـسـ الـمـسـلـمـيـنـ،ـ حـيـثـ يـمـثـلـ لـهـمـ خـطـرـ تـهـمـيـشـهـمـ أـوـ حـتـىـ استـبعـادـهـمـ مـنـ مـنـظـوـمـةـ الـعـالـمـ.

وهـذـاـ التـفـكـيرـ لـيـسـ بـالـتـفـكـيرـ الـجـدـيدـ أـوـ الـحـدـيـثـ،ـ بلـ إـنـهـ يـعـكـسـ تـفـكـيرـ الـمـسـتـشـرـقـينـ فـيـ أـسـوـاـ صـورـةـ كـمـاـ اـعـتـنـقـهـ وـمـارـسـهـ مـسـتـشـرـقـوـنـ بـرـيـطـانـيـوـنـ وـفـرـنـسـيـوـنـ وـهـولـنـدـيـوـنـ فـيـ الـقـرـنـ الـتـاسـعـ عـشـرـ وـأـوـاـئـلـ الـقـرـنـ الـعـشـرـينـ.

(٨) انظر PAZ ٢١/١١/١٩٩٧ تحت عنوان: «آلام وهمية للفنـ حوار ثقافي في زمن العولمة».

(٩) نقلـاـ عـنـ نـورـ رقمـ ١٩ـ ٢٠ـ كـولـونـياـ يـولـيوـ ١٩٧٩ـ صـ ٣٦ـ.

ولقد خدموا مصالح القوى الاستعمارية، مثلهم مثل شخصية لورانس العرب^(١٠) الشهيرة. ولقد عمل هؤلاء المستشرقون -المتفعون بلا شك- على زيادة المعرفة بالإسلام -للجهات التي خدموها- ولكنهم عرقوا المعرفة الحقيقة ومنعوا العلم بها عند عامة الناس بسبب الأحكام المسبقة ضد الإسلام.

لم يقتصر أحد في هذا الوقت بالحكمة القائلة: «إن النور يشع من الشرق»، بل اعتقاد الكثيرون أنهم يشهدون المرحلة الأخيرة في حياة الإسلام، الذي يوشك على الانقراض. حتى إن Max Henning كتب في مقدمة ترجمته للقرآن عام ١٩٠١: «يبدو أن الإسلام قد استنفذ دوره السياسي». ولم يكن أحد ليستطيع أن يعارضه مستنداً إلى حجج منطقية وواقعية.

لقد قام عدد من المستشرقين الألمان من بينهم Gustave von Carl Becker و Grunebaum بوصف الإسلام من منطلق إبراز ما يفتقده الإسلام حتى يصبح أوروبياً. فلقد توصل Grunebaum إلى التسليمة التي لا يصدقها عقل، وهي أن الحضارة الإسلامية لا تشارك الحضارة الغربية في رؤياها الجوهرية، وأن هذه الحضارة لا تهتم بتحليل ذاتها ولا تهتم بدراسة الحضارات الأخرى^(١١).

وأبلغ مثال على أن المغالطات التاريخية المستقرة في الأذهان والوجودان يمكن أن تستمر إلى يومنا هذا، هو ما اتضح أخيراً عندما ادعى الأستاذ Peter Steinacke رئيس الكنيسة الإنجيلية بمقاطعة Hessen und Nassau عام ١٩٩٦ في حديث أذيع بالتليفزيون الألماني أن الإله الذي يعبده المسلمون غير الإله الذي يعبده المسيحيون. ولكل أن تتخيل معنى هذا الكلام، خاصة إذا تفوه به إنسان موحد غير مشرك: فإذا كان هناك إله واحد فقط، وهو ليس الإله الذي يعبده المسلمون، فإن إلههم -أى إله المسلمين- ليس باليه بل هو وثن. كانت معلومات Goethe و Lessing و فريدرick Bunte الأكبر صحيحة في هذا الشأن. وهل يندهش المرء إذن حين يقرأ في مجلة

(١٠) لقد خلق لورانس العرب T.E Lawrence (١٨٨٨ - ١٩٣٥) بكتابه «أعمدة الحكم السبعة» Dou- bleday: Garden City, NY. 1935. أسطورة عن نفسه. فلم يكن قدره أو مكانته كمتخصص في علوم الإسلام وخبير باللغة العربية وأدابها، أو كمكتشف ومستشار سياسي يبلغ قدر أو مكانة Har- ry St. John Philby (١٨٨٥ - ١٩٦٠) ولا Leopold Weiss (محمد أسد).

(١١) نقلأعن Salvatore ص ١٢١.

موضوعاً عام ١٩٩٨ يتساءل فيه كاتبه بلا غية: «هل انتقل الخطر الآن من موسكو إلى مكة؟». وما زالت هناك فصول جديدة تكتب في تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام. لقد كان الإسلام منذ بدايته يضع صوب عينيه الانتشار في العالم أجمع هدفًا له. ولقد تحقق له هذا على الأخص في وقتنا هذا بفضل الثورة التكنولوجية في وسائل الانتقال والاتصال والمعلومات والعولمة الاقتصادية التي نتجت عن هذا. فلقد أدى هذا ضمن ما أدى إلى أن يكون للإسلام مواقع عديدة على الإنترنت، بحيث يستطيع أي إنسان أن يطلع على سنة الرسول كاملة، وعلى القرآن في أي لغة يرغبهما مجرد لمسه مفتاحاً.

يبدو أن الإسلام قد وجد لنفسه موضعًا رصينًا وعميقًا في أمريكا وأوروبا، خاصة منذ سبعينيات القرن. وهذا الوجود الذي ترسخ بمرور الوقت يُعدُّ نقلة وقفزة نوعية في العلاقات الثانية، أي علاقات الإسلام بالغرب. فلقد أصبح الإسلام، حتى في ألمانيا، سواء باعتراف حكومي أم لا - ظاهرة دائمة^(١٢)، متمثلة كذلك في المسجد ٢٥٧٨ مسجداً حسب إحصائيات مجلة *Der Spiegel*.

يتضح أن المسلمين الذين يستوطنون ألمانيا يتلقون، ولكنهم لا يذوبون ولا تضيع هويتهم الأصلية. ولقد تكونت على مر الوقت صورة تشمل ثلاثة أجيال تشارك في خصائص واحدة إن لم تكن تتطابق في كل من فرنسا وإنجلترا وألمانيا.

يكون الجيل الأول عادة أقل تمسكاً بدينه عندما يصل بلد المهاجر، ثم يعود إلى التمسك بعقيدته لأنها تثلّ له في الغربة جزءاً من الوطن وترابطاً اجتماعياً. ويمكن أن يكون ذلك رد فعل يتسم بالعناد تجاه التفرقة التي يتعرض لها في بلد المهاجر، وتؤدي الحرية التي يعيشها المسلم للتعرف على دينه ومارسته دون وصاية ورقابة حكومية واضطهاد في أول الأمر دوراً إيجابياً.

ولا يعود الجيل الأول - كما خطط - لوطنه؛ لأن الجيل الثاني لا يرغب في هذا. هذا الجيل، أي الجيل الثاني، يعيش بين عالمين ويدفع غالباً ضريبة (ثمن) تجربة الهجرة لأن هذا الجيل غير مرغوب فيه ولا يتمتع بفرص إيجابية، سواء في وطنه أو

(١٢) *Der Spiegel* عدد خاص ١/١٩٩٨ ص ١١٠.

بلد المهاجر ، خاصة أنه لا يتقن أيًا من اللغتين . وهذا الجيل هو الجيل الذي يتهدده الخطر ، حيث يحاول جاهدًا أن ينال القبول والاعتراف به ، ويبدو له الإسلام في هذا الصدد عائقًا خاصًا فيما يتعلق بعلاقة الجنسين .

وتبدو الصورة مختلفة تماماً بالشبة للجيل الثالث ، خاصة فيما ينتظره في المستقبل . وهذا الجيل يمثل أهمية بالغة لمستقبل الإسلام .

هذا الجيل يسكن الغرب ويتحدث اللغتين ، اللغة الأم ولغة المهاجر بطلاقة ، ولذلك فجميع فرص التأقلم مهيئة له . ولكن هذا الجيل يتضح له أن الأمر ليس كما تصور؛ لأنه « مختلف » بسبب لون البشرة والعيون والشعر وبسبب الاسم أو لأنهم مسلمون . وانطلاقاً من هذا الوضع يقول هذا الجيل بعناد بالغ : « إذا كتمتُ تعتقدون أننا مختلفون ، إذاً فنحن مختلفون ولسنا مثلكم » . ويمارسون اختلافهم هذا ويشكلون تنظيمات ولا يقبلون التفريط في حقوقهم ، ولا أن يسلبهم أحد لقمة العيش وأسباب الحياة . وتتجدد بين هؤلاء الشباب مسلمين في غاية النشاط وعلى استعداد تام للعمل على نشر الدعوة والتضحيّة من أجل هذا الهدف أكثر مما تتجدد بين الجيلين السابقين . وهؤلاء يتولون مسئولية مراكز إسلامية وإدارتها كما هو الوضع في مدينة Achen آخر .

أما الأتراك فيمثلون استثناءً ملحوظاً في هذا الشأن . فالجيل الثالث من الأتراك يظل في معظم الأحوال معلق الأنوار بتركيا ، وبالتالي يعيش في ألمانيا كما لو كان في محطة ، ولا يمارس دعوته إلا بين الأتراك ، وبالتالي لا يؤثرون في بيتهم بفهمها الأوسع .

أما بين المهاجرين العرب ، فلا تجد أثراً لهذا السلوك ، خاصة أن أعداداً هائلة منهم - على الأقل في ألمانيا - من الأكاديميين . ولقد أدى هذا التوسيع للإسلام بانتشار المسلمين في أنحاء العالم كافة إلى وجود تجمعات إسلامية في كوريا واليابان وبوليفيا والأرجنتين والبرازيل وجزر المالديف وكرواتيا وإيطاليا وإسبانيا ، وأوكرانيا وفنلندا وتايلاند وسنغافورة .

ومن يرغب في معايشة هذا الجو ، فله أن يحضر المؤتمر الدولي السنوي الذي

يقيمه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر في القاهرة، حيث يمثل أكثر من ثمانين دولة.

٤٠

هذا هو تاريخ علاقة الإسلام بالغرب التي تعود إلى ألف وثلاثمائة عام، منها كثير من سنوات الغضب، بل والحروب. ولقد بدأت العلاقات والغرب ينظر إلى الإسلام على أنه خطر، وتحول بذلك لما يزيد على ٢٥٠ عاماً إلى مجرد مشكلة، ثم عاد في منتصف القرن العشرين ليطل - من وجهة نظر الغرب - كخطر مرة أخرى. ويمتد تأثير المشاعر المضطربة والمظالم والمعلومات المغلوطة إلى يومنا هذا. وكل هذا ما زال يوج تأثيره تحت السطح. وتمثل الذاكرة الجماعية حقيقة سياسية ذات تأثير بالغ حتى بكل ما تحمله من أخطاء وغالطات.

لقد وصف Wilfred Cantwell Smith هذا التلازم كما يلى: «لقد خَبَرَ الغرب عداءً تجاه الإسلام لألف سنة ماضية. هذا العداء يسعى الكثيرون تقدير عمقه وطول دوامه. لم يتبيّن الوعي الغربي كلاً من الهند والصين ومخاطرها إلا بعد زوال كل ما يمكن أن يخيف الغرب. أما الإسلام فقد كان يمثل دائمًا وأبدًا خطرًا يهدّد الغرب. وإذا ما قارنا أفكار ومشاعر الغرب المعادية للإسلام، نجد أن مشاعر الغرب المعادية للشيوعية كانت أقل حدة وأقصر عمرًا»^(١٢). وتؤدي الذاكرة الجماعية وهذا التزامن دوراً أساسياً عندما يحدّر أتباع اتجاه الوسط المسيحي في منشوراتهم من خطر أسلامية ألمانيا. وعندما يتم إشعال الحرائق في مراكز إسلامية، وعندما تلقى شخصيات ألمانية أسلامية نشطة بلاغات تهديد من مجهولين، فقد كان يكُننا أن نُعد كل هذا من قبيل ضيق الأفق والتصرفات الرعناء التي لا أمل لها في المستقبل، لو لا أن وسائل الإعلام تعمل جاهدة على إشعال المزيد من نار الحقد وتبسيط الأحكام المسبقة ضد الإسلام، وترسيخها في عقول الناس، وهذا هو الموضوع الحزين للفصل القادم.

وسائل الإعلام تحت المراقبة

شعار: لا يسعني إلا أن أذكر هؤلاء المعارضين الذين إذا ما أرادوا شرًا بأحد،
فإنهم يشهونه أولاً، ثم يحولونه إلى وحش تجحب محاربته.

(جوته: الشعر والحقيقة. جزء 16 صفحه 1).

(J. W. von Goethe, Dichtung und Wahrheit B 16. S.1).

- ١ -

لقد ذكرت سابقًا أن الذاكرة الجماعية للبشر حقيقة ثابتة، لكن هناك حقيقة أخرى أحب أن أشير إليها، وهي القدرة على نسيان الذكريات غير السعيدة، أو تناسيها. وهذه القدرة من الأسباب التي تبعث على سعادة البشر؛ ولذلك فإنني أعتقد أنه من المنطقي أن يضع المسلمون ثقتهم في هذه الآلة، أي النسيان، وأن يعتقدوا أن الأوروبيين سيتعاملون يومًا ما مع الإسلام بلا تحفظ، وينحوونه فرصة ثانية. ويفيد من الوهلة الأولى الآن، أن الجو العام مهيأً مثل هذا الموقف بفضل هذا التنوع المقبول ونزعه ما بعد الحداثة وقبولها لكل ما هو هامشى ومختلف، حتى غدا العالم وكأنه سرير ماركت لمختلف البيانات والاتجاهات مع نزعه تسامح بلا حدود. وهناك أمثلة واضحة لذلك. فالدوائر المسيحية تقبل على سبيل المثال أتباع مذاهب تؤمن بالمبادئ خارج المسيحية مثل إعادة الميلاد، ومثل قبولها لأتباع مبدأ *Anposophen* (*).

كما أصبحت مذاهب مثل مذاهب التكهنية- أي الاعتماد على وجود كاهن

(*) عقيدة تعود في نشأتها إلى Rudolf Steiner وهي إحدى طرق المعرفة، عن طريق رغبتها في توصيل العقلاني والروحياني في كيان الإنسان إلى العقلاني والروحياني في الكون [المترجم].

يؤدى الطقوس ويقود الجماعة - المرتبطة بتعاطى المخدرات ووجود رجال طب على غط رجال الطب في أواسط آسيا، موضة يجري وراءها الكثيرون في الغرب، خاصة منذ Carlos Castaneda. ولا يشير إعلان نجم سينمائى مثل ريتشارد جير اعتناق البوذية أدنى تسؤال أو اندهاش. أما إذا ما أعلنت مجموعة من الكاهنات الالمانيات أنها في طريقها إلى الأنماط خدمة المجتمع، فلا ينالهن سوى الضحكات المستهزئة.

ويمكن للمرء اليوم أن يعلن بلا خوف أو استحياء، أنه من أتباع الماركسية الجديدة، أو أنه ملحد أو متصرف بلا دين، دون أن يخشى أى نقد أو أن ينبله المجتمع.

اما ما يحوز على الرضا والإعجاب بحق، فهو العادات والطقوس اليهودية، حتى وإن تمايلت، بل وتطابقت تماماً مع شعائر المسلمين، لكنها عندما تصدر عن المسلمين، توصف بأنها غريبة وشاذة، مبهمة وأقرب ما تكون إلى جهل العصور الوسطى، بل إنها مخالفة للدستور.

ولنذكر - على سبيل المثال لا الحصر - ملابس المشددين اليهود، والفصل بين الجنسين، ومبادئ وقواعد الطعام الصارمة، والذبائح وفق شريعتهم، والتشدد في جميع التكليفات الدينية الأخرى، حتى يظن المرء أن الغرب أصبح يطبق فعلًا مبدأ التسامح الذي دعا إليه الملك فريديريك الثاني، ملك بروسيا: «ليمارس كل امرئ دينه وفق طريقة». ولكن تغير الصورة تماماً عندما يكون الأمر مرتبطًا بالإسلام، وفي الحال يتضاءل هامش التسامح إن لم يختف تماماً. فالللحية التي تدل على التقدمية عند چبار، تكون دليلاً رجعية عند المسلم. أما غطاء الرأس الذي تحلى به العذراء في الأيقونات وفي صورها ويشير مشاعر إيجابية، فإنه يتحول إلى شيء سلبي تماماً، إذا ما ارتداه مسلمة. أما نحر الذبائح وفق الشريعة الإسلامية، فهو مخالف تماماً لما تنص عليه قوانين حماية الحيوان.

ولذلك فقد توصل البريطاني Runnymede Trust في دراسته التي نشرت عام 1997 إلى التالية: «فوبيا الإسلام هي الرعب والخوف منه وكرهه، ولقد عاشت هذه الفobia لمدة قرون عديدة في البلاد الغربية، ولكنها أخذت في السنوات

العشرين الماضية شكلًا أكثر علانية وأكثر تشدداً وتطرفاً وخطورة، حتى أصبحت فوبيا الإسلام مكوناً أساسياً في كل وسائل الإعلام، كما تسود في جميع مجالات وأجزاء المجتمع المختلفة^(١).

وتحمّل وسائل الإعلام القدر الأكبر من المسؤولية، ليس فقط في أن يكون الإسلام أكثر الديانات المرفوضة والمستنكرة، بل أيضاً أن يظل كذلك.

ومعًا لا يدع مجالاً للشك، أن عدم التسامح المستمر إزاء كل ما هو إسلام وبالتالي الإبقاء على كل ما هو سلبي في الذاكرة الجمعية تجاه الإسلام، ما هو إلا عمل من أعمال وسائل الإعلام^(٢). ولقد أعلنها أكبر أئمدة دون مواربة: «لم يتلق المسلمون تهديدًا على مر تاریخهم مثل وسائل الإعلام الغربية، ولا يستطيع المسلمون تحقيق الفوز في لعبة الإعلام هذه»^(٣).

٢٠

ينال كل شعب - حقيقة - وسائل الإعلام التي يستحقها. وهناك دائمًا صحفيون سيئون بالإضافة طبعاً إلى الممتازين منهم. ولا نستطيع في الوقت نفسه أن ننكر أن العمل في مجال الإعلام يجذب الكثيرين من يمثلون اتجاهات لا دينية، ويعبرون كذلك عن رؤى غير دينية، كما أن وسائل الإعلام تمارس - حتى في مجال الدين - عملاً سياسياً. ولقد أثبتت Peter Kreeft إحصائياً وجود هوة سحرية وتباعد شديد بين المعتقدات الدينية للشعب ومثلتها عند مثلي وسائل الإعلام والعاملين بها. وإذا كان هذا الإحصاء قد أجري في الولايات المتحدة، فإننى أعتقد بوجود تشابه بينه وبين الوضع في أوروبا، ووفقاً لهذه الإحصائية، فإن ٩٠٪ من الأميركيين يعتقدون

(١) Runnymede . . . ص ٢.

(٢) أعتقد أننى بحكم وظيفتى السابقة كمدير لإدارة المعلومات التابعة لحلف الناتو، والتي شغلتها فى الفترة ما بين (١٩٨٢-١٩٨٧)، فإننى أملك نظرة واقعية للإمكانات المختلفة في العمل الإعلامي وما تستطيع أن تقوم به وسائل الإعلام.

(٣) أكبر أحمد (١٩٩٢) ص ٢٢٣.

أن الخيانة الزوجية أمر سين، بينما يشاركون ٥٠٪ فقط من مثل الإعلام هذا الرأي. وبينما يذهب ٥٠٪ من الأمريكيين بشكل منتظم إلى الكنيسة، لا يفعل ذلك سوى ٩٪ من الصحفيين. يتحفظ حوالي ٧٢٪ من المواطنين الأمريكيين على الإجهاض، بينما ٣٪ فقط من مثل وسائل الإعلام لهم تحفظات على هذا الأمر^(٤).

إنها حقيقة دائرة مغلقة. فممثلو وسائل الإعلام والعاملون بها، مثلهم مثل كل الناس في الغرب، ضحية للصورة المشوهة للإسلام التي توارثوها عبر أجيال وقرون عدّة. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى، فإنهم هم أنفسهم، أي العاملين في مجال الإعلام، يرسخون هذه الصورة المشوهة في وجدان وأذهان الناس، بل يزيّونها سوءاً.

هناك انطباع قوي بأن وسائل الإعلام تصور الإسلام وتعامل معه على أنه أيديولوجية أكثر من كونه ديناً وعقيدة. وهناك مثال واضح على ذلك وهو الملحق الخاص الذي أصدرته مجلة *Der Spiegel* في عددها الصادر في يناير عام ١٩٩٨ بعنوان «الإسلام اللغز». ولقد حمل غلافه صورة امرأة مسلمة حواجبها على هيئة سيف تتوسط شعار علم السعودية. أما في الموسوعة المرفقة عن «الإسلام من ألف إلى الياء»، فلم تظهر كلمة «الله»، ولم يظهر اسم «محمد»، أما «مكة» فقد صورها شخص يبدو أنه لم يزورها مطلقاً.

أما الانطباع الثاني من خلال وسائل الإعلام عن الإسلام، فهو أنه دين عدواني وتوسيعى، أي «دين حرب» (Max Weber) يجتهد إلى التعمّص والعنف والإرهاب. أما الأصوات العاقلة التي تعارض مثل هذا الاتجاه، فهي قليلة جداً مثل: Wolfgang Guinter Lerch (Islam und Terrorismus) ^(٥). ولذلك أسوق هنا مقولته لـ Peter Frisch رئيس المجلس الاتحادي لحماية الدستور، من حوار أجراه معه *Der Spiegel* ونشرته عام ١٩٩٧ تحت عنوان «تسويع للقتل»: «سيغدو الإسلام في القرن المقبل خطراً داهماً». فالمتطوعون الأفغان في آخر الأمر «مدربون

(٤) Kreeft ص ٦٢ ص ٦٧.

(٥) FAZ ١١/١٩٩٧.

على القتل». ولم يجد Frisch أي تحفظ عند رده على مطالبة المسلمين له في مقاطعة Hessen «بحذف كل ما يسيء إلى الإسلام وكل المواقف المعادية له من المقررات المدرسية». فقال لا يمكن أن نقبل بكل ما تطالب به أي أقلية تحت مسمى التسامح^(٦).

وسارت على نفس الدرب قناة التلفزيون الخاص RTL يوم ١٨ من سبتمبر عام ١٩٩٤ عندما أذاعت برنامجاً بعنوان «الإرهاب باسم الله»، حذرت فيه من مذ أصولي إسلامي عالمي. (وبذلك أمكن للإعلان أن ينقل الخوف من خطر شيوعي قائم حقيقة تحت ظل علم أحمر، إلى خطر وهى يظلله علم أخضر). ولكن إذا كان هذا هو الحال مع قناة خاصة، فإن القنوات العامة لا تقل عنفأً عنها في تعاملها مع الإسلام. فلقد أدعى تلفزيون ARD يوم ١٥ من سبتمبر عام ١٩٩٤ أن المسلمين في جنوب السودان يشنون ضد الانفصاليين في الجنوب «حرباً مقدسة في سبيل الله»، كما أصابت إذاعة بافاريا مستمعيها بالذهول عندما أدعت - بلا أدلة إثبات - في نوفمبر عام ١٩٩٧ أن حمل السلاح جزء ومتكون أساسى من هوية المسلم.

تدعم وسائل الإعلام الانطباع السائد بأن الإسلام دين عفى عليه الزمن بلا أدنى بادرة أمل في إصلاحه أو تنويره، وبذلك لا يزال قابعاً في ظلمات العصور الوسطى^(٧)، والنمط السائد لتحقيق هذا الانطباع وتفويته هو إبراز ثغرات الإسلام، خاصة إذا ما قورنت بالنموذج الغربي فيما يخص الجانب الشخصي للإنسان (الوعي الفردي، المواطنة، المجتمع المدني والعقلانية)^(٨). ولقد عبر هذا الموقف الفكري عن نفسه عندما أدعى بسام طيبى عام ١٩٩٧ (كذلك في مجلة Der Spiegel) أن العلاقة بين الإسلام وحقوق الإنسان مثلها مثل العلاقة بين «النار والماء»، وأن الإسلام بفهمه التقليدي لا يفرد مكاناً لحقوق الإنسان، كما أنه من المحال أن يتافق الإسلام وحرية إبداء الرأي^(٩). فهل يندهن المرء إذاً أن تطالعه

(٦) Der Spiegel. Frisch عدد ٣٦ من سبتمبر عام ١٩٩٧ ص ٥٨-٦٠.

(٧) Woods ص ٧٣ (تحتوى على ٢٨ رسمياً كاريكاتيرياً يسيء إلى الإسلام نقلأً عن وسائل الإعلام الأمريكية).

(٨) Said ص ٦٧، Kreeft (١٩٦٨، ١٩٨١، ١٩٩٣، ١٩٨١).

(٩) طيبى Der Spiegel رقم ٣ من يناير عام ١٩٩٤ ص ١٧٠-١٧٢.

مجلة Die Zeit في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ من مايو عام ١٩٩٥ بحكاية ساخرة ومهينة للدين. يقول الكاتب على لسان أحد الساخرين معرقاً الإسلام: «لم يكن عند محمد ثلاثة، كان يقضى حاجته أمام النساء، وكان يسكر بعد تناول كوبين من البيرة. هذا هو الإسلام كله». نشر هذا في ركن «Pooh's Corner» ليبعث على الضحك، ولكن شر البلية ما يضحك:

وتبليغ الادعاءات ذروتها باللحاح وسائل الإعلام على ذكر الإسلام مصحوباً دائمًا بصفات، مثل «الاستبداد الشرقي»، وذكر الوحشية في قطع الأيدي، قمع النساء المخالف لحقوق الإنسان، وتعسكه بأخلاقيات بالية عفى عليها الزمن مثل العفة قبل الزواج، و موقفه من العلاقات خارج الزواج، والخيانة الزوجية، والإجهاض والشذوذ الجنسي. موقف الإسلام من كل ما سبق ذكره يخالف موقف الغرب تماماً، وبشكل جوهري وعملي، وهو موقف غريب تماماً لا يستسيغه الغرب.

ولم تستطع دراسة أجراها المعهد الشرقي في ألمانيا عام ١٩٩٧ بتكليف من وزارة الداخلية الألمانية أن تنجو من هذه الفكرة الأساسية عن الإسلام. فبناءً على تحليل مقدم من Irmgard Pinn استطاع كاتب الدراسة Nils Feindt - Riggers أن يقترب من المسلمين في ألمانيا مثلاً ما كان علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر يقتربون من السكان الأصليين في إفريقيا الذين يتسمون بالكثير من الغرابة والخطورة^(١٠).

ولقد ظهرت وجهة النظر هذه في خطاب بعثه قارئ باسم Dr. Paul Esser إلى جريدة Frankfurter Allgemeine بتاريخ ٢٨ من مايو عام ١٩٩٧. لقد ذكر هذا القارئ عدم تسامح الإسلاميين و«موقفهم البدائي من الفن والعلم، وكذلك نظامهم الاجتماعي المستبد الأبوي وغير الديمقراطي بالمرة». وأرجع السبب في كل ذلك إلى القرآن. فالقرآن نص تقليدي مرتبط بالإقطاع، بل هو نص من العصور الحجرية، نص يحتوى على تفسيرات «أثرية وطفولية» للعالم. وباختصار، الإسلام «عوده إلى البربرية والوحشية». وليس هذا آخر الأدلة.

(١٠) Irmgard Pinn: الم Osborne: الم ة الإسلامية في ألمانيا (محادثات) جمعية علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية المسلمين كولونيا ١٩٩٧ Newsletter Ur. 2 ص ١١-١٢.

ومن المؤسف أن تحررهم الناس وتاليلهم على الإسلام بهذا الشكل ينسف الفرصة كافة لإعادة ميلاد علاقة طبيعية بين الغرب والشرق، حيث إن الآراء التي أشرنا إليها تقرأ في العالم الإسلامي، أي أنها تقاوم فيه بناء جسور من الثقة المطلوبة لإقامة علاقة إيجابية بين الغرب والإسلام.

ويزيد الأمر سوءاً البطالة المنتشرة في أجزاء متعددة في أوروبا الغربية؛ لأنه في ظل هذه الظروف، يمكن أن يتحول القلق الاجتماعي المرتبط بالبطالة إلى عنف. فالجانب الذين ينزعون أبناء البلد في أماكن العمل القليلة ليسوا أجانب فحسب بل و المسلمين، مثل الأتراك في Kreuzberg، والپاکستانيين والهنود في برادفورد Bradford والمغاربة في ضواحي باريس. يعتقد الكثير من المسلمين أن الصراع في البوسنة كان سيأخذ بالتأكيد مساراً آخر لو لم تكن قوى غربية مؤثرة واقعة تحت تأثير فوبيا الإسلام والخوف منه. لقد أدى ٩٩٪ من البوسنيين بأصواتهم في استفتاء - قطعه حرب البوسنة - لصالح استقلالهم عن بقية يوغوسلافيا أو ما تبقى من يوغوسلافيا سابقاً. لقد اعترف أعضاء الاتحاد الأوروبي في ٢٩ من فبراير عام ١٩٩٢ بالبوسنة دولة مستقلة. وبالرغم من اعترافهم هذا، فلم يتدخل الاتحاد الأوروبي حتى ٣٠ من أغسطس عام ١٩٩٥، أي تاريخ بهذه هجمات حلف شمالي الأطلنطي في الصراع الدائر في البوسنة، هذا الصراع الذي استمر لمدة ٣ سنوات بكل ما عرف عنه من نزاع وجراحتم الصربي من قتل واغتصاب وأعمال سلب ونهب. استغرق الأمر من العالم ٣ سنوات ليضعوا نهاية لعملية التطهير العرقي التي قام بها الصربي في البوسنة.

هناك أسباب كثيرة لهذا السلوك الذي يُعدّه الكثيرون في الغرب فشلاً، منها: مصالح الدول، عدم الاستعداد للتضحيّة بالبشر، الرغبة في الإبقاء على بقايا يوغوسلافيا متماسكة، الخوف من التورط طويل المدى في المعركة البلقانية.

فالنموذج الحضاري الغربي يجب - وفق مفاهيم حقوق الإنسان الغربية - أن يحترم عالمياً وأن يسود كذلك حتى وإن كلف هذا الغرب أموالاً طائلة ولكن ليس

على حساب «دماء وعرق ودموع» بمفهوم تشرشل الذي صاغه في نداء للمقاومة الذي وجهه عام ١٩٤٠^(١١).

لكن ارتبط فشل الغرب في البوسنة في أذهان المسلمين بأن الضحايا في هذا الصراع من المسلمين، بالرغم من أن الغرب كان ينكر على الدوام أن طبيعة هذا الصراع طبيعة دينية، ولم ير الحرب الدائرة حرباً دينية وأراد أن لا ينطرق إليه أدنى شك في كونها كذلك.

تناول وسائل الإعلام الصربية واليونانية - فقط دون غيرها - مذابح الصرب في البوسنة بوصفها حرباً صليبية ضد آخر موقع الأتراك وجزرهم في وسط أوروبا.

وإنني أتساءل، هل قرأ أحد من مؤلء كتاب على عزت بيجوفيتش «الإسلام بين الشرق والغرب - Islam between East and West» ، هذا الكتاب الذي بُرِزَ من خلاله بيجوفيتش كأحد مفكري الإسلام المعاصرين ، وواحد من أكثرهم تسامحاً وانفتاحاً وإبداعاً.

إنني لا أبغى أدلة ملموسة وقاطعة ، بل إجابات صادقة عن الأسئلة الافتراضية التالية: هل يمكن أن يتخيّل المرء أن الغرب ما كان ليتدخل منذ عام ١٩٩٤ في البوسنة - ويتدخل بقبضة حديدية - لو كان الصرب هم المسلمون وأذاقوا البوسنيين الكاثوليك ما أصاب البوسنيين المسلمين فعلاً؟ هل كان من الممكن أن يسمع الغرب بمجازر كالتى وقعت في سربرينيتشا وزبيا؟ هل كان الغرب سيتظر في هذه الحالة حتى يتم قتل ٢٠٠ ألف بوسني وطرد ٣ ملايين منهم؟ هل كان الغرب سيُسكت على اغتصاب عشرات الآلاف وهدم ١٠٠ ألف مبنى بينهما معظم الإرث المعماري الإسلامي للبلد؟^(١٢)

(١١) لقد أثار Prof. Dr. Klaus Hartung الانتباه إلى هذا الأمر في خطابه الذي بعث به إلى FAZ بتاريخ ٢٤/٤/١٩٩٩ . وسيقى هذا التساؤل سؤالاً مفتوحاً: هل كان سلاح الجو مستمر في هجماته على الصرب في حرب كوسوفاً لو كان هذا قد أدى إلى سقوط طيارة ألمانية واحدة؟

(١٢) لقد قام أمير باسيك الحاصل على جائزة أغاخان للمعمارة والذي يعمل بمعهد الابحاث للثقافة والتاريخ الإسلامي باستنبول في كتابه الفنى المدعم بالصور «العمارة الإسلامية في البوسنة والهرسك» الصادر في ١٩٩٤ -IRCICA: ISTANBUL- . يثبتات - مستعيناً بالوثائق - أن الصرب والكردات قاموا في أثناء حرب البوسنة بهدم أو إتلاف حوالي ٣٤٩ أثراً إسلامياً من مجلل ٥٩١ أثراً إسلامياً حضارياً في البوسنة والهرسك .

يذكرنا السلوك الغربي هذا بالفشل الذريع لكل من قينسيا وفرنسا والبابا عندما استتجد بهم قيصر بيزنطة في أثناء محاصرة السلطان العثماني محمد الفاتح للقسطنطينية عام ١٤٥٣. لقد تباطأت القوى الغربية وراهنـت على «الخل السياسي»، وأخذـت تواسي نفسها وتطمئـن نفسها أنـ الأمر لن يكونـ بهذا السـوءـ. وبعد ذلك عـدوا القـيـام بـأـيـ إـجـراءـ عـسـكـريـ مـتـأـخـرـ عـنـ وـقـتـهـ المـنـاسـبـ. لقد امـتـلـاتـ عـقـولـ القـوـىـ الـغـرـبـيـةـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ بـخـرـافـاتـ مـفـادـهـ أـنـ مـنـ يـطـلـبـونـ الـمسـاعـدـةـ إـنـاـ هـمـ مـنـ زـنـادـقـةـ الـمـسـيـحـيـيـنـ الـخـارـجـيـنـ عـنـ الـتـعـالـيمـ الـمـسـيـحـيـةـ السـلـيـمـةـ الـتـىـ تـقـرـهـاـ الـكـيـسـةـ الـغـرـبـيـةـ (١٣ـ).

ونحن نعلمـ الـيـوـمـ أـنـ الـمـسـتـقـبـلـ سـيـشـهـدـ أـكـثـرـ مـنـ «ـبـوـسـنـةـ»ـ أـخـرـىـ، مـثـلـمـاـ نـرـىـ فـيـ الشـيشـانـ (١٤ـ)ـ وـكـوـسـوـفـاـ. وـكـيـفـ يـكـوـنـ الـأـمـرـ مـخـتـلـفـاـ فـيـ ظـلـ تـأـيـيـرـ وـسـائـلـ الـإـعـلـامـ عـلـىـ عـقـولـ النـاسـ وـوـجـدـانـهـمـ وـصـيـاغـتـهـمـ وـتـأـلـيـهـاـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ؟ـ

- ٤ -

وـفـيـ ظـلـ هـذـهـ الـظـرـوفـ يـكـوـنـ مـنـ الـمـسـتـحـيـلـ أـنـ نـأـمـلـ فـيـ حدـوثـ مـعـجـزـةـ تـدـفعـ وـسـائـلـ الـإـعـلـامـ إـلـىـ تـحـولـ فـيـ تـنـاـولـهـاـ لـلـإـسـلـامـ. وـلـكـنـ لـحـسـنـ الـحـظـ، هـنـاكـ بـارـقـةـ أـمـلـ تـلـوـحـ فـيـ الـأـفـقـ تـمـثـلـ فـيـ هـذـاـ العـدـدـ مـنـ عـلـمـاءـ الـمـسـلـمـيـنـ الـغـرـبـيـيـنـ بـعـلـومـاتـهـمـ الـوـفـيـرـةـ عـنـ هـذـاـ الـدـيـنـ وـمـوـقـفـهـمـ الـمـوـضـوـعـىـ (ـمـنـ الـإـسـلـامـ)ـ الـخـالـىـ مـنـ الـأـحـكـامـ الـمـسـبـقـةـ.

وـتـضـمـنـ هـذـهـ الـمـجـمـوـعـةـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ Anna Marie Schimmelـ .ـ أـسـمـاءـ لـشـيـابـ الـعـلـمـاءـ أـمـثـالـ :

- Francois Burgat Bruno Etienne (Aix - en - Provence)
- John Eposito (واشنطن)

(١٣ـ) انـظـرـ Steven Runcimanـ : «ـاـحـتـالـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ ١٤٥٣ـ»ـ، الطـبـعـةـ ٤ـ، CH. Beckـ، ١٩٩٠ـ.

(١٤ـ) انـظـرـ: محمد إقبال خـانـ «ـمـسـلـمـوـ الشـيشـانـ»ـ The Islamic Foundation: Markfield. LE. (UR). 1990.

- Daniel Gimaret (Paris)
- Angelika Hartmann (Giessen),
- Gudrun Krümer, (Berlin)
- Jörg Nielsen, (Birmingham)
- Angelika Neuwirth. (Beirut).
- Neil Robinson, (Leeds)
- Reinhard Schulze (Bern)
- James Piscatori (Oxford Center for Islamic Studies)
- Armando Salvatore, (Berlin).

ولن يوافق أى من علماء المسلمين الغربيين المحدثين على مقوله Gustav von Grunebaum أن الحضارة الإسلامية لا تشتراك في أهم طموحات وتطورات الحضارة الغربية. ويسبح Reinhard Hesse كذلك ضد التيار السائد في وسائل الإعلام الغربية، خاصة بمقاله الذي نشر في Die Woche بتاريخ 23 من أبريل عام 1997 والذى يُعدُّ في قراءته ملخصاً لهذا الفصل. يصل Hesse إلى النتيجة التالية: لم تكن صورة الإسلام -منذ الحروب الصليبية- أسوأ مما هي عليه في يومنا هذا بالرغم من أن غالبية المسلمين تمارس دينها على أنه عقيدة سلام وتسامح. فالإسلام دين مُحارب أكثر منه دين مُحارب وحضارة مُحارية أكثر منه حضارة مُحارية.

فحقوق الإنسان ليست تحت تصرف أحد في الإسلام، وهذا الدين يسمح بالديمقراطية وحكومات من غير رجال الدين.

يستطيع المسلمون أن يأملوا في تحسن لصورة الإسلام بشرط أن يكونوا على استعداد تام للاعتراف علانية ودون مواربة بأن العالم الإسلامي يساهم بتصيب وافر في تشويه صورة الإسلام؛ لأن هذا العالم نفسه لا يسير على نهج الإسلام.

وإنني أتفق مع مطالبة عميد المسلمين الألمان محمد أمان هوبيوم في بون، تلك المطالبة التي يوجهها دوماً إلى المسلمين، وهي ألا يقعوا في الخطأ الشائع، وهو

الولاء الأعمى للجماعة التي يتمنى إليها المرء - في حالتنا هذه أى إلى المسلمين - فإذا ما اختلف د. محاضر محمد مع أنور إبراهيم في ماليزيا وظلم الأول الآخر فلن يكون محمد أمان في ألمانيا مطالبًا بتسويف أو تجميل أو إنكار هذا الفعل. لا ينبغي للMuslimين أن يحلموا بتغيير ويستظروا وقوعه، بل عليهم أن يقوموا هم بصناعة هذا التغيير عن طريق المنح الدراسية للطلبة المسلمين في مجالات كالصحافة والحقوق، مثل ما تقوم به منظمة CAIR (Council on Islamic - American Relations) (مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية).

تخضع وسائل الإعلام لقوانين وقواعد يمكن تعلمها، إذا كان الأمر متعلقًا بكتاب خطابات قراء مقبولة أو تصميم ملصق جذاب أو الإقبال على موقع في الإنترنت^(١٥) أو إنتاج برامج إذاعية وتليفزيونية جاهزة للبث.

ومن قواعد العمل المتبعة والمعارف عليها في الحقل الإعلامي: «الخبر السار ليس خبرًا» أي أن فرصة الإسلام في الإعلام مرتبطة بكل ما هو غريب ومثير. أما في التليفزيون فمن المعروف أن البرامج الرديئة تطرد البرامج الجيدة، كما كان الحال في العصور الوسطى حيث كانت العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، ولذلك فلا جدوى من وجود قناة تليفزيونية إسلامية في الغرب موجهة لجمهور من غير المسلمين تبث الصلاة ومواعظ وتقارير عن الحجج. فلا سبيل للنجاح في مجال البث التليفزيوني دون عري وعنف وإثارة.

إنى أرى أن إقامة «يوم للجامع المفتوح»، مثل الذي يقيمه المجلس المركزي للمسلمين في ألمانيا يوم الثالث من أكتوبر من كل عام، لهى احتفالية مبشرة وواعدة.

فهذه الاحتفالية تبشر بإمكانية إزالة الكثير من التحفظات والمخاوف وسد ثغرات معرفية كثيرة بالإسلام، أكثر مما يمكن أن يقوم به إرسال تليفزيوني إسلامي.

(١٥) الإسلام على الإنترنت انظر: Blunt و كذلك عمران على مسقطية: The Internet, IQRA, iv, Nr.2, 2, San Jose, مارس ١٩٩٧ ص ٣٢.

فمن الأولى أن نتوارد داخل الصحافة والتليفزيون والإذاعة قبل أن ننشئ
صحافة وتليفزيون وإذاعة إسلامية تمثلنا؛ فالتمثيل من داخلها أقوى.

ويتطلب هذا أن يتعلم عدد أكبر من المسلمين أن يكتبوا مقالات بدقة ومهارة
أكثر، وأن يوثقونها بشكل جيد، وأن تجد هذه المقالات طريقها إلى الصحافة، وهي
جاهزة للطباعة، مع الأخذ في الحسبان أن الصحفيين مثلهم مثل كل الناس يفضلون
أن يعملوا أقل على أن يعملوا كثيراً.

* * *

عن الحقوق الشقراء وغيرها

شعار: لماذا يجحب علينا قبول تفسير حقوق الإنسان تضيئها وتتبناها تلك القوى
التي استعمرت ونهبت بلادنا وسلبتها خيراتها؟

(شيرين سينار)

لا يوجد دخان بلا نار . هذا مثل دارج يعتقد الكثيرون صحته ، وبناءً عليه فمن
الواجب على المسلمين أن ينفوا عن أنفسهم اتهامات ينسبها الغرب إليهم خاصة
بالنظر إلى ثلاثة هموم يشغل الغرب نفسه بها ولا يخلو منها أى حوار مسيحي .
إسلامي ، حتى وإن لم تكن هذه الأسئلة والهموم أسئلة دينية بل أخلاقية . والأسئلة
الثلاثة هي :

- موقف الإسلام من حقوق الإنسان .

- موقف الإسلام من حقوق المرأة .

- موقف الإسلام من الديمقراطية ، خاصة أن المسلمين حتى الآن لم يثبتوا قدرتهم
على ممارسة الديمقراطية .

ومن الواضح أن التعامل الإيجابي مع الموضوعات الثلاثة المذكورة
شرط أساسى يضعه الغرب لتطبيع العلاقات مع الإسلام ، أى شرط يجب الوفاء
به ، أو على أقل تقدير ، التأكيد على العمل على تحقيقه . أما أنا فأعتقد أن
التطور في هذه المجالات الثلاثة يترتب عليه ما هو أهم وأعظم وأكثر من
تحسين علاقات الغرب بالإسلام ، وهو تطور الإسلام وموقفه في العالم كله
مستقبلاً .

ولكن من الأمور الواضحة - بالتأكيد - أن هناك بعض القوى في الغرب لها مصالحها الخاصة في استمرار أسطورة عدم توافق الإسلام مع حقوق الإنسان والديمقراطية، كما يراها Neil Hicks^(١). وهذا الفصل يعني بياتات أنه لا صحة لما يقال عن عدم قدرة المسلمين على الوفاء بحقوق الإنسان^(٢).

عندما يدور أي حوار حول حقوق الإنسان، يذهل المسلم عندما يثبت له أن شركاء في الحوار من الغربيين لا يظنون فقط أنهم الذين اكتشفوا حقوق الإنسان ووضعوها، بل إنهم أيضا يستأثرون بها دون غيرهم. وحقيقة، فإن الناس في الغرب يعتقدون أن حقوق الإنسان ترتفع فقط في الغرب، وأما في الشرق فإنها تهدر تماماً.

الاعتقاد الأول مفهوم وله مبرراته؛ لأن البلد الذي سن قوانين حقوق الإنسان لحماية مواطنه من بطش الدولة، حقوق تحفظ الحرية، كحقوق حماية النفس (Freedom From)، هو إنجلترا. لم يفكر أي إنسان في ذلك الوقت في مطالبة الدولة بأداء أي حقوق لمواطنيها (Freedom to)، هذه الحقوق التي تؤدي دوراً أساسياً في يومنا هذا.

هناك عدة محطات مهمة في تاريخ رحلة حقوق الإنسان الغربية وتطورها، مثل: الماجنا كارتا البريطانية عام ١٢١٥، لائحة تتضمن الحقوق الأساسية للإنسان، وBill of Rights عام ١٦٧٩، ووثيقة الحقوق Habeas Corpus Act عام ١٦٨٩، ووثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي عام ١٧٧٦ (التي استندت إلى الله وجعلته مرجعها)، والإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن عام ١٧٨٩ (الذي لم يُشر إلى الله). ولقد كانت هذه الأسس الغربية هي ما قام عليه واستند إليها إعلان حقوق الإنسان الشهير للأمم المتحدة عام ١٩٤٨. وكذلك الاتفاقيات الدولية الملزمة للحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الصادرة بتاريخ

(١) Hicks من ١.

(٢) Reflections On the 50th Anniversary of the Universal Declaration of Human Rights.

انطباعات بمناسبة الاحتفال بمرور ٥٠ عاماً على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

In Commentary No. 19, Petaling Jaya, Selangor, Malaysia Des 1985. ص ١.

١٩ من ديسمبر عام ١٩٦٦، وكذلك آليات الحفاظ على حقوق الإنسان التي أصدرها المجلس الأوروبي^(٢).

ولكن هذا التطور لم يتم بفضل المسيحية، فلقد كانت الكنيسة المسيحية حتى عهد البابا يوحنا ٢٣ في القرن الماضي تدين فكرة حقوق الإنسان وتصفها بالعلمانية، وتلخص بها الكثير من الصفات السلبية. ولم تجد حقوق الإنسان طريقة إلى الفاتيكان إلا في ١١ من إبريل عام ١٩٦٣ عندما أصدر الفاتيكان المنشور البابوي باسم «السلام في الأرض».

أما أكثر ما يثير الاستياء من كبراء الغربيين وغورهم، على أساس أنهم واسعوا قانون حقوق الإنسان، فهو اعتقادهم الراسخ بعدم قدرة البلاد الإسلامية على ممارسة حقوق الإنسان.

يتجاهل هذا الادعاء حقيقة تاريخية، هي أن عليه القوم والمعتزمين في مقاليد الحكم، كانوا دائمًا على مر التاريخ يتتجاهلون حقوق بسطاء الناس، حتى في الغرب المسيحي، وتستطيع منظمة العفو الدولية أن تثبت أن حقوق الإنسان لا تراعى كما ينبغي في العالم أجمع، وليس فقط في البلاد التي يقطنها المسلمون.

ويتطلب تحري العدل والصدق منا أن ننوه بأن انتهاك حقوق الإنسان الذي نمارسه الدول الإسلامية، بما فيه من تعذيب بدني، وعنف من الشرطة، وتزوير الانتخابات، ورقابة وانتهاك حرية الدين والعبادة، كل هذه الانتهاكات لا يقرها الإسلام، ودواجهها غير إسلامية بالمرة. وأكبر دليل على أن هذه الانتهاكات غير إسلامية، هو وجود مئات الشخصيات المسلمة المسالمة في سجون الحكومات الإسلامية!

وإنني أواجه شركاء الحوار من الغربيين بتساؤل: هل كان هناك انتهاك لحقوق الإنسان أكثر وأفظع مما حدث في الحربين العالميتين بما شهدتا من استخدام للأسلحة

(٢) المعاهدة الدولية الخاصة بالحقوق المدنية والسياسية الصادرة في ١٩٦٦/١٢/١٩، تجدلها في منشور القانون الاتحادي (BGBI) ١٥٣٤ - ١١ - ١٩٧٣. وتجد كذلك المعاهدة الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية الصادرة في نفس التاريخ في المنشور ١٥٧٠ - ١١ - ١٩٧٣. صندوق التبرعات للجنة الأوروبية لحقوق الإنسان موجودة في ٦٨٥ - ١١ - ١٩٥٢. BGBI.

الكيميائية والنوية، أو انتهاك أبلغ مما شهدته فترة الحكم السтаليني، ومن التفرقة العنصرية وحروب التطهير العرقي في البوسنة وكوسوفا؟

لم تقع أى من هذه الفظائع في المناطق التي يسودها الإسلام. وإنى أستشهد هنا بما قاله Ali Masrui العالم الكيني في علوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأستاذ في

State University - New York

«يوجه دائمًا النقد للمسلمين؛ لأنهم لم يقوموا بأفضل الإنجازات، لكن نادرًا ما يسجل لهم أحد أنهم منعوا حدوث الأفظع في بلادهم. فلن تجد عندهم أبدًا القتل المنظم للشعوب كما حدث في أمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا، ولن تجد ما يشبه الرعب والإرهاب السтаليني، واقتلاع ملايين البشر من جذورهم تحت مسمى الخطة الخمسية. كما أن المسلمين لا يتحملون مسؤولية وجود غاذج للتفرقة العنصرية كالتي شهدتها جنوب إفريقيا من قبل الهولنديين بباركة وموافقة كنيستهم الإصلاحية. ولا تجد شبيهاً أبداً للعنصرية اليابانية العنيفة التي شهدتها آسيا قبل عام 1945، ولا الثقافة العنصرية التي مارسها البعض ضد الزنوج في الجنوب الأمريكي بما تضمنه من قتل وإبادة وعنف، وشنق دون محاكمة^(٤)».

وبالرغم من تاريخ الغرب المتصل في انتهاك حقوق الإنسان، إلا أنه يلوح دائمًا بعقوبة حجب المعنوانات الاقتصادية للتنمية في البلاد التي لا تمارس نظام حقوق الإنسان الأوروبي - الأمريكي الذي يكفل حماية الحقوق الفردية للإنسان.

والكيل بمكيالين يدفع الكثيرين من شباب المسلمين إلى القول متهمين وساخرين بحرارة شديدة: «يبدو أن حقوق الإنسان شعراً أشقرًا وعيوناً زرقاء»، إشارة منهم إلى انحياز الغرب ضد المسلمين.

والحديث عن حقوق الإنسان، يمكن أن يتحول إلى مطرقة يلوح بها تهديد المعارضين. وفي هذا السياق يبدو أن الحق كل الحق مع Parvez Manzoor عندما قال

(٤) Islam and the End of History: Masrui

The American Journal of Islamic and Social Sciences 10/Nr 4, Herndon, VA, 1993, P.534.

د نفسه.. . Islamic and Western Values القيم الإسلامية والغربية.

. Iqra, San Jose, CA, January 1998. P 13-18

عام ١٩٩٤: « الحديث حقوق الإنسان هو حديث القوة» أي أن القوة تؤدي أيضاً دوراً أساسياً في الحديث عن حقوق الإنسان^(٥). ولذلك تجد بعض الأصوات الخاصة، التي تتحدث عن الإسلام وحقوق الإنسان، ترى أن حقوق الإنسان أصبحت «البقرة المقدسة للحداثة»، وأنها يجب أن تخضع للتساؤل لا أن تعبد بشكل أعمى، خاصة أن الشريعة تتضمن حلولاً لمشكلات الإنسان بغض النظر عن الزمان والمكان^(٦).

ولكن لا جدوى من الشكوى، فعلى المسلم أن يتخذ موقفاً محدداً. قامت دول العالم الثالث والتي يتسمى إليها معظم البلدان الإسلامية، حتى بلدان البترول، بوضع خط دفاع متقدم عندما ربطت بين الحقوق المدنية من جانب والحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من جانب آخر. لقد كان حكام هذه البلاد على ثقة من انتخاب الجمهمور لرؤساء القبائل، طالما أن هؤلاء الناخبين من الأميين وأعتقد أنها حقيقة ثابتة. وإن لم يرض بعض مفكري العالم الثالث عن هذا. ما ي قوله Panajotis Kondylis عن حقوق الإنسان «التي تعطى الأفراد كافة نفس الاستقلالية والكرامة، لا تنمو إلا في المجتمعات التي يسود فيها نظام تقسيم العمل بشكل دقيق جداً ويعطى فيه الإنتاج الواسع والاستهلاك الواسع»^(٧).

ومع لا شك فيه أن الديمقراطية تتطلب مقدماً وجود مجتمع مدنى. واستطاعت دول العالم الثالث من هذا المنطلق أن تكون لنفسها فكراً خاصة عن حقوق الإنسان. واعتقدت هذه الدول أن بإمكانها دفع الاتهام بخرقها لحقوق الإنسان عن طريق التساؤل حول عالمية حقوق الإنسان. فهي ترى حقوق الإنسان وكأنها لكره غربية وبالتالي غريبة عن دول إفريقية وأسيوية على سبيل المثال. ويختفي وراء عالمية حقوق الإنسان تصور خاطئ عن نهاية التاريخ^(٨) وفق نموذج غربي.

من الجائز أن يكون هذا الرأي مُصيناً فيما يخص بعض حقوق الإنسان الحديثة مثل

(٥) The Muslim World Book Review 15 Nr 1 Manzoor Markfield, LE (UK) 1994 p.g.

(٦) إسلام أو حقوق الإنسان يوضح - Wien, Dez. 1998 P.12- 15.

(٧) FAz بتاريخ ٢٨/١٢/١٩٩٥.

(٨) Mansoor انظر ٥ من ٨، ٩.

«الحق في الخوف» (من عناصر نووية)، «الحق في المخدرات»، أو الحق في عقد قران للشواذ جنسياً. ولكن هذا الرأي مخالف للصواب تماماً إذا ما نظرنا إلى الجوهر الكلاسيكي، التقليدي لحقوق الإنسان، مثل حقه في الحياة، حقه في الحرية، حرية التعبير عن الرأي والعقيدة؛ ولذلك فال المسلمين يلحقون الضرر بأنفسهم عندما ينكرون عالمية جوهر حقوق الإنسان (يعتقد صاموئيل هتنجتون أن هناك اتفاقاً على نطاق العالم في نقطة واحدة وهي الرفض غير المشروط للتعذيب) ^(٩).

أعتقد أن أفضل إستراتيجية يتبعها المسلمون هي التعامل مع ظاهرة حقوق الإنسان من وجهة نظر فقهية، أي على أساس القرآن والسنة.

ومن الجدير بالذكر أن نتبين أن مصطلح «حقوق الإنسان» لم يظهر في اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. فغياب هذا المصطلح يعود إلى أن المؤمنين يعارضون تماماً فكرة الإنسان كمشروع للحق، فالله وحده هو خالق وواهب الحقوق. فالحقوق الإلهية للبشر مقبولة على الدوام، وأما الحقوق التي يضعها البشر فهي قابلة للنقد.

وترتبط فكرة حقوق الإنسان بالتوبيرين من القرن الثامن عشر، هؤلاء المفكرين الذين يرون في الإنسان المقياس الأوحد، وهذا التصور غير مقبول بالنسبة للمؤمنين بالديانات السماوية والغبيات.

ومن البديهي أن يرفض فقهاء المسلمين تصنيف أوامر الله وشريعته وفق نظام هيراركي؛ لأنهم يرون مبادئ الشريعة كافة متساوية المكانة، ولا يقل واحد عن غيره، بدءاً من الوضوء حتى منع الربا. وأرى أن ما كان لهذين السببين أن يقفأ حائلاً دون وجود نظرية إسلامية لحقوق الإنسان. ولقد أدى غياب هذه الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان لأن يتعرض الإسلام للاتهام بعدم حمايته للفرد من سلط الدولة، أي أنه لا يبالي ولا يراعي حقوق الإنسان.

لقد حدث هذا مع أنه كان من اليسير إثبات أن الإسلام لم يكتف بمعرفة الحقوق التقليدية للإنسان منذ أكثر من ١٤٠٠ عام ولكنه مارسها ورسخها أكثر مما فعلت موراثيق الغرب، والمنهج اللازم لذلك سهل جداً: فحق الإنسان في الحياة يتضح من

الأية ٩٢ من سورة النساء والتي تنهى عن القتل، والأية ٣٢ من سورة المائدة والتي تساوى قاتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق يمن يقتل الناس جمِيعاً، والأية ١٥١ من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (١٠).

وإذا كان الله قد أمر المسلمين في سورة الشورى في الآية ٣٨ بأن يتشاروا في أمورهم (١١)، فيمكن للمرء إذن أن يستنتاج حق البشر جمِيعاً في المشاركة السياسية. وإذا كان الخلفاء الثلاثة الأوائل الذين تم اختيارهم لا يمدون لـ محمد. صلى الله عليه وسلم. بصلة قرابة، يمكننا أن نقول إن الدولة الإسلامية يمكن أن تكون جمهورية.

لذلك فليس على المسلمين أن يتغشوا في إثبات وجود حماية إسلامية لحقوق الإنسان بتوقفهم عند مصطلح «حقوق الإنسان». وأكبر ضمانة لهذه الحقوق ومرااعاتها هي أنها من عند الله، أي أن على المرء أن يتبعها مرضاه لله، وهذا يوفر لها مصداقية ورسوخاً أكبر بكثير من كونها حقوقاً أقرها البشر وأجمعوا عليها (لأنهم يمكنهم تعديلها في هذه الحالة وبجماع أيها). ولقد أثبتت الغرب سواء في الاتحاد السوفييتي سابقاً أو الولايات المتحدة أن حقوق الإنسان ما هي إلا الورقة التي تضمنت هذه الحقوق، وليس المرء في حاجة إلى أن يسأل أفراد جماعة الكوكلوكس كلان المتطرفة عن ذلك، بل يكفيه النظر إلى أحوال السود والهنود الحمر في أمريكا.

من الثابت أن الإنسانية لم تتجه أبداً في وضع نظام قانوني يُجمع عليه البشر ويلزمهم من خلال أخذهم بالعقل فقط (١٢).

ولذلك تجتهد بعض الشخصيات المرموقة - مثل المستشار الألماني السابق هيلموت شميدت وعالم اللاهوت بجامعة Tübingen سابقاً هانس كنج - في التوصل إلى إعلان تبنيه الأمم المتحدة عن واجبات الإنسان. ورق يضاف إلى ورق! وأعتقد أنه لا مفر هنا من الأخذ بعين التقدير مسألة الديانات السماوية.

(١٠) كالاقتراض من القاتل.

(١١) قال الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورٌ يَتَّهِمُونَ﴾.

(١٢) ما عدا قانون الوفاء بالعقد, *Pacta sunt servanda*,

انظر: Friedrich Berber: كتاب حقوق الشعوب الجزء ١ C.H. Beck: München 1960 P. 165.

تحت الضغوط التي يمارسها الغرب واتهاماته المستمرة بإساءة الإسلام لحقوق الإنسان، أعلنت منظمة المؤتمر الإسلامي في ٥ من أغسطس عام ١٩٩٠ في مؤتمرها بالقاهرة، عن إعلان حقوق الإنسان في الإسلام، وهذه الوثيقة وثيقة سياسية أكثر منها وثيقة ملزمة قانونياً^(١١)، وينطبق هذا الوصف أيضاً على الوثيقة التي أصدرها المجلس الإسلامي لأوروبا في ١٩ من سبتمبر عام ١٩٨١.

ولقد شاركت شخصيات إسلامية في الحديث عن حقوق الإنسان، مثل محمد حميد الله وأبي الأعلى المودودي والأمير الحسن من الأردن. ولقد دعا الأخير إلى مؤتمر على شكل مائدة مستديرة عقد في عمان في الفترة ما بين ١٣-١٠ من ديسمبر عام ١٩٩٤ تحت شعار «مساندة عالمية لحقوق الإنسان». ولقد قال الأمير الحسن: «فيما يخص حقوق الإنسان، فنحن بحاجة ماسة إلى إجماع واتفاق عالمي، فالإعلان الدولي لحقوق الإنسان، يمس الحد الأدنى للحياة الإنسانية. وأعتقد أن ديني يهدف إلى نفس الشيء، وهو حفظ الحق للحياة الإنسانية. وهناك في القرآن والحديث الشريف ما يتماثل ويتطابق في معناه مع المبادئ الـ ٣٠ لإعلان حقوق الإنسان».

ونصت التوجيهة الأولى للمؤتمر على: «كل البشر دعاة لحقوق الإنسان»^(١٢). بفضل ما سبق ذكره، يسهل عرض الاختلافات بين مفهوم حقوق الإنسان الغربي والإسلامي، وهي فروق ظاهرية فقط. يدور الحديث في هذا الصدد حول موضوعات: الردة، العبودية، وضع أهل الذمة (من يحق له الحماية)، حقوق المرأة والعقوبات الجسدية.

وإذا ما وجدت اجتهاداتي صدى ولاقت نجاحاً، لفهم دقيق للمصادر الإسلامية فسيقترب الموقفان الإسلامي والغربي في المستقبل أكثر مما هما الآن. إنني أستند على تفسيرات معاصرة للمصادر الإسلامية لعلماء أمثال محمد أسد، رشاد الغنوشي، حسن و Maher حتحوت، على عزت بيوجوقتش، چيقرى لانج، فتحى عثمان، يوسف القرضاوى، فارلور رحمان (١٩١٩-١٩٨٨) محمد طلبي وحسن الترابى.

(١١) طبعت في مجلة الآباء البيض فرانكفورت ١٩٩١ ص ١٧٨-١٨٠.

(١٢) انظر جريدة Maab للسنة ٦ رقم ١٨ عمان ١٩٩٥ ص ٦.

أما بخصوص الردة، فسيتطرقى الخلاف حول هذا الموضوع إذا ما تبين للمسلم أنه لا عقاب للخروج عن الإسلام في هذه الدنيا، وأنه لم يرد في القرآن أو السنة^(*) ما يفيد ذلك⁽¹²⁾. فالقرآن يذكر ١٣ حالة للخروج عن الإيمان، وفي كل هذه الحالات يشار إلى عقاب في الآخرة. فقول الله تعالى: «لا إكراه في الدين» (سورة البقرة آية: ٢٥٦) يجب أن يحكم علاقة المسلم بال المسلم في يومنا هذا، ولا يقتصر وفق المفهوم القديم على علاقة المسلم بغير المسلم. ومن ينكر هذا يتجاهل أن «لا إكراه في الدين» تعنى أن ممارسة ضغوط وفرض أمور بعينها في أمور تتعلق بالعقيدة، ما هي إلا محاولة فاشلة من الأصل.

فالقوة يمكن أن تجبر المسلمين في بلد إسلامي على المحافظة على القوانين كافة، إلا في الأمور التي تتعلق حقاً بالنية. فلابد من التوقف تماماً عن إجبار المسلمين على أداء الصلاة والصيام عن طريق الضرب. لقد ثبتت ملاحقة من خرج عن الإسلام فيما عرف بحروب الردة؛ لأن هؤلاء اقترفوا الخيانة العظمى ضد الدولة الإسلامية برفضهم أداء الضريبة للدولة وبحاريتهم إياها ومقاومتهم الإسلام (سورة المائدة آية ٣٣) فحق قتالهم.

وعقوبة الخيانة العظمى، خاصة في أثناء الحروب، بالإعدام أو القتل أمر متعارف عليه دولياً، ولا يتعارض مع حقوق الإنسان.

ويبقى في هذا السياق الاتهام بأن من يخرج عن الإسلام يلحقه الضرر فيما يتعلق بالميراث؛ لأنه وفقاً للسنة: «لا يرث المسلمُ الكافرُ، ولا الكافرُ المسلمُ»⁽¹⁴⁾. ولكننا يجب أن ننظر إلى الانتهاء للإسلام كأنه انتهاء إلى جنسية دولة بعينها. والقانون الدولي يربط تداول الميراث بثبات الجنسية.

ولا يختلف الأمر كثيراً فيما يتعلق بمسألة العبودية. فلا يجب - بطبيعة الحال

(*) هناك خلاف في هذه المسألة، فهناك من يقول بقتل المرتد؛ استناداً لحديث نبوى، وهناك من ينفي ذلك تماماً، وهناك فريق ثالث يرى في المسألة تفاصيل، يختلف الحكم باختلافها. (الناشر).

(12) عثمان (الأطفال ١٩٩٦/١٩٩٥ The children) ص ٣٠، (١٩٩٥) Lang ص ١٩٥-١٩٩، التراث ١٩٩٢ ص ٤١.

(14) البخاري رقم ٦٧٦٤.

حذف الآيات التي تدور حول هذه المسألة من القرآن، وبالذات فيما يتعلق بالحديث على حسن معاملة العبيد، خاصة أن هذه الآيات تحمىـ إلى الآنـ أناساً لم يتحرروا بعد، كما هو الحال في موريتانيا، وبعض الأنجاء النائية من باكستان. وتدل هذه الآيات على أن الله أراد من خلال القرآن القضاء تماماً على العبودية خطوة خطوة. ويعضد هذا إمكانية أن يشتري العبد حرية ويدفع ثمن ذلك مقطعاً، وعلى المجتمع أن يساعدـهـ. وحيث القرآن المسلمين على عتق العبيد تقريراً إلى الله وتکفیراً عن ذنوب كثيرة^(١٥)، ولذلك لا جناح على أي دولة إسلامية في الموافقة على قوانين تحرم العبودية.

أما حماية الإسلام للجماعات العرقية والأقليات ذات الديانات المختلفة، وكذلك حقوق المرأة، فسيتم عرضها بشكل مفصل في فصول تالية. أما فيما يتعلق بالسطور الحالية، فمن المهم جداً أن نذكر أن غير المسلمين كانوا سيشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، لو لم يتمتعوا بالمواطنة الكاملة، ولو أنهم ظلوا على وضعهم سابقاً كذميين، وهو ما لم يحدث، فهم مواطنون كاملون. وهناك الرأي القائل (فتحي عثمان وغيره) بعدم وجود موانع قانونية تحول دون تمتع غير المسلمين بجميع حقوق المواطنة في دولة ومجتمع يحكمه دستور قومي^(١٦). ومن الجدير بالذكر أن الشريعة تضع الحد الأدنى لما يجب أن يتمتع به غير المسلم، وأن تؤديه له الدولة الإسلامية، ولكنها لم تضع حداً أقصى لما يمكن أن يتمتع بهـ. ولذلك لا ينافق الإخوان المسلمون المصريون حقوق المواطنة الكاملة للأقليات^(١٧).

وتتعرض في هذا الصدد لسؤال: هل يحق إذن لغير المسلم أن يتولى رئاسة دولة إسلامية؟ خاصة في ظل تمتعه بجميع حقوق المواطنة؟ وأرى أن هذا السؤال رغم صحة منطقه غير عملي، فلا يعقل أن يتخـبـ غير المسلم في بلد إسلامي ليتولـىـ رئاسة الدولةـ.ـ وإذا حدثـ هذاـ،ـ فهلـ يمكنـناـ الحديثـ عنـ (ـبلـدـ إـسـلامـيـ)ـ؟ـ

(١٥) ففي الآية [٣٢] من سورة النساء: «وَبِالَّذِينَ إِخْرَاجَاهُنَّا وَنَذِي الْقُرْبَىٰ... وَمَا مَلَكْتُ أَيْمَانَكُمْ». وفي الآية [٨٩] من سورة المائدة: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكُمْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَدْدَمْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ... أَوْ تَعْرِيرُ رَقْبَةٍ» وفى الآية ٦٠ من سورة التوبة: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ... وَفِي الرِّقَابِ».

(١٦) عثمان (الأطفال / The children / Human Rights 1996) ص ٢٠، ص ٤٣ وكذلك (حقوق الإنسان / Human Rights 1996) ص ١٩-٢١.

(١٧) انظر «الحقوق المدنية للأقليات أيضاً» FAZ ٤/١٩ ١٩٩٧.

أما الحدود التي تقرها الشريعة، كالعقوبات الجسدية، فهي وفق المفهوم الغربي لحقوق الإنسان، قاسية وغير إنسانية ومهينة وغير دستورية، وبخاصة جلد الزانى^(١٨) وقطع يد السارق^(١٩).

ويقع المسلمون في الغرب دائماً في حيرة عند مواجهتهم بهذا الأمر، بدلاً من ذكر حقيقة وهي أن الولايات المتحدة الأمريكية - وهي المثال الأخلاقي للغرب - تبْعِي عقوبة الإعدام، بل وتعارضها سنوياً بأشكال شتى مثل الشنق والكرسي الكهربائي، والحقن بالسم. وعقوبة القتل هذه هي أقسى أنواع ودرجات العقوبات الجسدية.

ولهذا لا يستوجب الأمر توجيهاته اتهام إلى الشريعة الإسلامية، خاصة أنها تختلف عن القانون الوضعي في الممارسة بشكل ملحوظ وحاد.

فليس كل ما تبيحه الشريعة الإسلامية نظرياً، يتم تطبيقه بشكل واقعى وعملى، وينطبق هذا على عقوبة الموت والتي يمكن إنزالها حسب الشريعة في حالات جرائم القتل، والنهب والخيانة العظمى ولكن لا يجب بالضرورة إنزالها^(٢٠).

ومن الجدير بالذكر أن وظيفة الردع بالعقاب التي يجب أن يؤديها قانون العقوبات، وحق تنفيذ العقوبة، تلقى قبولاً في الغرب.

ولكن للأسف قانون العقوبات يتم تناوله باستهانة كبيرة في بعض مناطق الغرب حيث تصل عقوبة جريمة القتل إلى سنوات قليلة عما يقضيها القاتل في سجون أشبه بالفندق. ويمكن لجاسوس أن يأمل في حكم البراءة إذا ما توافر له محام نابه يدافع عنه. وتحول الإفراج المبكر إلى حق مكتسب، ولم يَعُذْ فعلاً يتم بناء على إصدار عفو، كما يتم تجاهيل أفعال «العنف ضد أشياء مادية».

وعلى النفيض من ذلك، تقوم الحدود في الشريعة الإسلامية، والخوف من التعرض لعقوبتها بوظيفتها، ويظهر ذلك في شكل توافر حالة أمان عامة، خصوصاً للمرأة، واحترام للملكية الخاصة، ومتلكات الغير. وهذه الحال تجدها حتى في أماكن لا يتم فيها تطبيق هذه الحدود الإسلامية منذ زمن بعيد.

(١٨) الآية ٢ من سورة النور.

(١٩) الآية ٣٨ من سورة المائدة.

(٢٠) شهرور ص ٧.

أنا لست الوحيد الذي يقول بعدم وجود تسويف إسلامي للرجم. فوجوب رجم الزاني من المتزوجين تجدها في توراة موسى وليس في القرآن. وهذا الحكم التوراتي غير ملزم للمسلمين؛ لأن الآية الثانية من سورة النور تجحب هذا الحكم وتلغيه^(*). ولقد أثبت طه جابر العلواني بحق أن السنة لا يحق لها معارضنة القرآن ولا تغييره، بل هي مفسرة له⁽²¹⁾. (لقد وردت هذه العقوبة في السنة ويعارضها القرآن). كما أن عقوبة الرجم الواردة في الحديث والسنة لا تستند إلى مصادر صحيحة أو عديدة⁽²²⁾. كما أنها لا تذكر إذا كانت حادثة الرجم التي أجازها الرسول قد وقعت قبل نزول سورة النور أم بعدها⁽²³⁾.

وإذا كانت قد وقعت قبل نزول السورة القرآنية التي تُفْصِّل عقاب الزنا والخيانة الزوجية، فمن المنطقى أن هذه الأحكام القرآنية تجحب وتلغي هذه العقوبة.

وهناك دليل آخر على أن القرآن لا يقر عقوبة الرجم حتى الموت بالرغم من حديث الخليفة الثاني عمر عن نص للرجم، وهذا الدليل هو ما جاء في الآية ٢٥ من سورة النساء، «فَإِنْ أَتَيْنَا بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَ نَصْفُ مَا عَلَى الْأَهْلَنَاتِ مِنِ الْعَذَابِ»⁽²⁴⁾.

فما هو - دام فضلكم - نصف عقوبة الموت؟

كما أن ثبوت جريمة الزنا والبرهان على وقوعها يصعب تحقيقه. إن لم يكن مستحيلاً - وفق الشرع الإسلامي إلا إذا اعترف الزاني. (كان الأمر سيكون أهون بالنسبة للرئيس الأمريكي كليتون إذا ما طبق قانون الشريعة الإسلامية بالنسبة للخيانة الزوجية)⁽²⁵⁾.

ويتعلق فهم التهديد بقطع اليد عقاباً للسرقة ودوره في الترهيب من اقتراف مثل

(*) قال الله تعالى: «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تزعمون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفه من المؤمنين».

(21) العلواني: مقدمة لكتاب أحمد على الأمان.

(22) Variant Readings of the Qur'aan P 14. - قراءات مختلفة للقرآن ص ١٤.

(23) سنن أبي داود حديث رقم ٤٤٠٥، البخاري ج ٨ رقم ٨١٠ و ٨٠٥، مسلم رقم ٤١٩١، النروى رقم ٢٢٠.

(24) البخاري ج ٨ رقم ٨٠٤ و ٨٣٠، والجزء ٩ رقم ٢٨١.

(25) الآية ٢٥ من سورة النساء. عثمان (١٩٩٧) ص ٩١٤ يرفض رجم الزاني لهذه الأسباب ولغيرها.

(26) الآيات ٦-٨ من سورة النور.

هذه الجريمة، كما ورد في سورة المائدة الآية ٣٨^(*) بالتمعن في وظيفته السياسية والاجتماعية.

و قبل التطرق إلى هذه النقطة، يجب أن نفهم أن المرأة تتمتع بحماية اجتماعية قوية خاصة في السن المتقدمة، بناءً على أن ما تلقاه من مهر ومجوهرات عند عقد قرانيها لا ينبع.

ويستطيع المرء أن يتوجه لعدة عقود في العالم الإسلامي دون أن يلتقي بانسان قطعه يده، مما يدل على أن الشريعة الإسلامية والقائمين على تنفيذها يخفون من عقوبة هذه الجريمة بشكل ملحوظ، ولا يلجئون إليها كثيراً. ولا نستطيع إرجاع هذا الأمر إلى ندرة اللصوص، بل بالأحرى إلى التعريف الدقيق للسرقة التي يتوجب فيها إزاله مثل هذا العقاب بالسارق. فتكون سرقة لأشياء ثمينة ذات قيمة عالية مؤمنة ولا تخضع للمال أو الملكية العامة. أما في الأزمات الطاحنة فلا يلتجأ القضاء إلى هذا العقاب، بل تعلق إقامة هذا الحد كما حدث في زمن خلافة عمر بن الخطاب.

إذا وجد متقدو الإسلام وأعداؤه أحكاماً إيجابية في القرآن، مثل مبادئ التسامح والمحث على تقبل الآخر باختلافاته، كما ورد في سورة البقرة الآية ٢٥٦^(**) والمائدة الآية ٤٨^(***)، فسرعان ما يقومون بتجاهل هذه المبادئ العظيمة، بقولهم إن ما يتم في الحقيقة إنما هو أمر آخر مخالف لذلك.

أما إذا وقعا على حكم لا يلقى قبولاً في أنفسهم مثل حد السرقة، فإنهم يركزون بشدة على الحكم، متغاضين تماماً عما يحدث في الواقع. ويعُدّ اتهام العالم الإسلامي بالقسوة بسبب ما يقال عن حد السرقة، مع التغاضي عن عدم إقامته في التطبيق العملي، أمراً من أمور ازدواج المعايير الأخلاقية.

هذه النظرة الخاطئة وما يتبعها من تناول تفصيلي لدور المرأة في فصل «متساو

(*) قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاطْهُرُو أَيْدِيهِمَا جَزَاءٌ بِمَا كَسَبُوا نَكَالٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(**) قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ﴾.

(***) قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

الحقوق أم سواسية؟» تؤدى بنا إلى نتيجة نهائية، مفادها أن حقوق الإنسان في الإسلام لا تتطابق بشكل كلٍّ مع ما يتضمنه إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة، ولذلك يقبلها الكثير من البلدان الإسلامية بشرط عدم تعارضها مع الشريعة الإسلامية. ولكن كما رأينا، فإن مجال الاختلاف ضئيل جداً حتى إننا يمكننا عدُّ قوانين الإسلام تكميلية لإعلان حقوق الإنسان، إذا لم يكن المرء سينيَّة.

أما بالنسبة لنقاط الاختلاف، فقد استطعت أن أوضح أن بإمكاننا في بعض النقاط المحددة والتفصيلية، بالرجوع إلى مصادر الإسلام، وإذا ما أخذنا بالاجتهاد بشكل إصلاحي وبالتمسك التام بقوانين الإسلام والحدود، أن يتم التخفيف من حدة هذه الاختلافات.

ولكن تبقى هذه العملية في حدودها الضيقة؛ لأن الشريعة بصفتها قانوناً إلهياً غير معرضة للتحرير أو التغيير، حتى وإن بدت هذه التغييرات في صالح المصلحة العامة، أي أن يفهم الغرب الإسلام ويقبله بشكل أفضل.

فماذا يفيد الإسلام الغرب (وال المسلمين) إذا لم يختلف عنه؟

* * *

ديمقراطية - شوري قراطية

شعار: القائل بأن الديمقراطية هي من قبيل عدم الإيمان، لا يفهم شيئاً عن الإسلام أو الديمقراطية.

(الشيخ يوسف القرضاوى فى ٥ من فبراير عام ١٩٩٠ بجريدة الشرق الأوسط اللندنية).

-١-

إن ما ذكرته عن حقوق الإنسان أرددته ثانية، فيما يتعلق بالجدال الدائر حول الديمقراطية مع المسلمين في العالم الإسلامي. إن نتيجة هذا الجدال المحموم سواء بمفهوم الإيجابي أو السلبي، سيكون له أعظم الأثر على مستقبل الإسلام عامة وفرص انتشاره ووجوده في الغرب.

إذا لم يتمكن العالم الإسلامي من تأكيد العنصر الديمقراطي الأصيل الكامن في تكوينه، وإذا لم يوضح أن هدفه النهائي - المهدى حتى الآن - هو الديمقراطية، فإن الغرب لن يقبله كنموذج يحتذى به، وسيترتب على ذلك أن المسلمين لن يتمكنوا من تحقيق وتطوير إمكاناتهم في شتى المجالات: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وسيعقب ذلك تخلفه وعجزه السياسي.

إنني أقول هذا دون أن أنسى لنفسى مقوله محمد سعيد العشماوى الاستهزائية: «أراد الله أن يصير الإسلام ديناً، ولكن حوله الناس إلى سياسة»^(١).

(١) عشماوى ص ١٣.

لا يمثل الدين والسياسة أدنى تناقض بالنسبة للمسلم، فالامر لا يدور حول قديس ما، ولكن أسلمة السياسة.

- ٢ -

إذا ما تطرقنا إلى موضوع الديقراطية، فإن من المفيد جدا التأكيد على أن الإسلام - فيما عدا شكله الصوفى^(٢) - دين دنيا وأخرا على حد سواء، وبالتالي دين سياسى إلى درجة كبيرة. فالله بالنسبة للمسلم حاضر في الدنيا والآخرة، ولذلك يتوجه المسلم بعد أدائه لصلواته بهذا الدعاء إلى الله: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة ولنا الآخرة حسنة» [البقرة: ٢٠١]. وبحذره القرآن في سور القصص «ولا تنس نصيبك من الدنيا» [آل عمران: ٧٧]. كما يأمر الإسلام المسلم بأن يؤدي مسئوليته في نطاقه، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته^(٣). كما أن على المسلم أن يستنكر الخطأ، وأن يغير الأمر المنكر وفق الحديث الشهير: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٤).

وهذا لا يدع مجالاً للشك في تطبيق الإسلام في مجالات الدولة والاقتصاد. فلا يستطيع مسلم حقيقي أن يكتفى بمجرد الاعتراف باعتناقه الإسلام^(٥).

(٢) يرى سيد نطب أن الصوفية كان لها تأثير المخدر على الإسلام، الإسلام هذا الدين الحى، الديناميكى بطبيعته. وقد كان لهذا التأثير للمخدر أن سلب الإسلام الرغبة فى تشكيل العالم، كما خدر المجتمع الإسلامي كله (نطب ص ٨٧).

لقد اتهم ابن تيمية من قبل في القرن ١٤ الصوفية بآفاسدها للإسلام، فقد قاتل الكثير من الطرق الصوفية بالانسحاب من الحياة السياسية فعلاً.

وتواجهه - حتى يومنا هذا - الطرق الصوفية المغاربية في منطقة وزان الاتهام بعدم ولائها للوطن وتعاونها مع المحتل الفرنسي السابق، بينما كان أسلافهم من المرابطين محاربين أشداء يدافعون ببسالة عن دينهم وأوطانهم ضد الدخلاء من البرتغال والإسبان. بالنسبة لموضوع نقد المتصوفة، انظر كذلك عنوان (١٩٩٧) ص ٤٤٠ - ٤٤٢.

(٣) البخارى [٢٤٠٩ و ٢٥٥٤]، وأبو داود [٢٩٢٨]، والترمذى [١٧٠٥].

(٤) مسلم [٤٩/٧٨]، والترمذى [٢١٧٢]، والنمساني ١١٢ - ١١١/٨.

(٥) نطب ص ٨٧.

لقد استطاع الإسلام بدمجه الدين بالدولة، أن يقدم ثروذجاً يختلف تماماً عن مفهوم الغرب للدين. ولقد أشار ولی عهد بريطانيا الأمير شارلز في الخطبة التي ألقاها يوم ٢٧/١٠/١٩٩٣ في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية إلى الحقيقة التالية: «إننا نقع في شرك يتسم بالغرور الشديد إذا ما اخالط علينا الأمر، وقدرنا أن الحداثة في بلدان أخرى هي في أن يصيروا مثلنا. جوهر الإسلام هو رؤيته الاندماجية للكون. لقد خسر الغرب هذه الرؤية الاندماجية رويداً رويداً، حتى أضاعها».

من حقائق الأمور أن موقف المسيحية الأولى - على أقل تقدير - من السياسة يختلف عن موقف الإسلام. فال المسيح لا ينتمي إلى عائلة ذات زعامة في قومها، كما أنه لم يشب ويكبر في عاصمة المملكة اليهودية، بينما ولد محمد - صلى الله عليه وسلم - في مكة المركز الاقتصادي والديني لشبة الجزيرة العربية، سليلاً لعائلة من كبريات العائلات، توارثت المهام السياسية والزعامة. ويزداد هذا الفارق حدة لأن المسيح رأى الآخرة تقف مباشرة أمامه، ولذلك رأى المسيحيون الأوائل أنفسهم كآخر المسيحيين. ومن هذا المنطلق كان التفكير في تأسيس دولة مسيحية أمراً لا معنى له، خاصة أن المسيح لم يحسب نفسه صاحب دين جديد يبشر له، إنما هو مصلح للدين اليهودي، مثله مثل جماعة قمران. أما محمد - صلى الله عليه وسلم -، فكان يتوقع الاحتمالين، فناء سريعاً للدنيا، أو استمرارية مديدة للتاريخ^(*). كما واجه محمد صلى الله عليه وسلم - مسار الدعوة الإسلامية إلى تأسيس دولة إسلامية، خاصة بعد مطاردة أهل مكة للمسلمين الأوائل، وهجرة هؤلاء إلى الحبشة، كما شجعته دعوة أهل يثرب إلى بلدتهم والإقامة فيها عام ٦٢٢، لتأسيس دولة تكفل للمسلمين ممارسة دينهم^(٦).

في ضوء ما سبق ذكره، نستطيع أن نفهم - بطبيعة الحال - أن يخلو العهد الجديد من نصوص ذات طبيعة قانونية وتنظيمية، - اللهم إلا عدداً محدوداً جداً - بينما يزخر القرآن والسنّة بالآيات من القواعد التي تنظم الحياة اليومية، بما في ذلك المعاملات الاقتصادية والحياة السياسية.

(*) وينجلي ذلك في القول المشهور: أعمل لآخرك كأنك توتّر غداً، واعمل لذنيك كأنك تعيش أبداً
الدمر (الناشر).
(٦) حميد الله (١٩٧٥).

لقد ظهرت الأمة الإسلامية ككيان جديد في تاريخ البشرية، لا يعتمد الانتفاء إليه على لغة أو لون أو أصل أو جنس، ولكن يعتمد فقط على الدين والإيمان المشترك^(٧).

كما لم يختلف الإسلام عن المسيحية. على أقل تقدير لما يقرب من ١٢٠٠ عام- فيما يخص وجودهما وأثرهما العلني العام.

فلقد استطاع القيصر قسطنطين باستيلائه على الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الرابع أن يعلى من شأن المسيحية ويضعها في مصاف دين الدولة العظمى.

أما ما نتج عن هذا الأمر، فهو معروف، فلقد ظهرت مصطلحات مثل: مملكة الرب، تقسيم السلطة الدنيوية بين القيصر والبابا، الخلاف حول تنصيب القيصر عن طريق البابا، ومسيرة إعلان التوبية التي قام بها الملك هنري الرابع، والتي عرفت بمسيرة كانوسا^(*) متذلاً طالباً العفو من البابا جريجور السابع عام ١٠٧٧. وكذلك إقامة دولة الفاتيكان، وسطوتها والخروب الصليبية ومحاكم التفتيش، ومحاكمة الساحرات وحرقهن، وتحالف الملكين الكاثوليكين فرديناند وإيزابيل.

وإنني أفسر عصر النهضة وحركات الإصلاح والتنوير في أوروبا، على أنها رد فعل لسيطرة واستبداد الكنيسة في مجال السياسة.

يمكن للمرء أن يُقْرِنَ على التاريخ تاريخاً، أي ماضياً إذا كان التاريخ فعلاً ماضياً. إن التحليل لعلمانية الغرب، وفك الرباط الديني بين الكنيسة والدولة يوضح بالرغم من كل ما يقال- أن الدولة والمجتمع، أي السياسة في أوسع معانيها، إنما هى ذات صبغة مسيحية- بالرغم من كل ما يساق لنفي هذه الحقيقة- سواء كان هذا من الدين المسيحي أو الحضارة المسيحية، لذلك يرى چيفرو لانج- Jeffrey Lang أن تعبير علمانية الغرب، تعبير خاطئ ويجانبه الصواب تماماً^(٨).

إن الدولة والدين في جمهورية ألمانيا الاتحادية على سبيل المثال يبدوان منفصلين،

(٧) قطب ص ٣٧-٣٩.

(*) نسبة إلى مدينة كانوسا في إيطاليا. (المترجم)

(٨) Lang (١٩٩٥) ص ١٩١.

ولكن هناك أعياد وإجازات دينية تقرها الدولة وتحميها. وهناك كذلك جمعيات دينية تحظى باعتراف وحماية الدولة. وتحصل الجهات المالية الحكومية ضريبة الكنيسة من أجل مساندتها.¹⁰ يقوم مدرسوون حكوميون بتدرис مادة الدين في المدارس الحكومية. كذلك يتم الأخذ بالقسم بالله أمام المحاكم، وفي القوات المسلحة، كما يتم توظيف رجال دين بهذه القوات، وتجد على حوائط الفصول الدراسية بالمدارس المسيح مصلوبًا.

أما في قانون العقوبات، فتجد نصا فيما يخص الجرائم التي تستدعي توقيع عقوبة فيما يخص الدين والرأي (الرؤية الدينية). وفي الفقرة 166 هناك ما ينص على حماية المشاعر الدينية (ليس المسيحية فقط)، كما يتوجه الرئيس والمستشار الألماني بالحديث إلى الشعب الألماني في مناسبة أعياد الميلاد، وهي مناسبة دينية. لا يستشعر الألمان هذا على أنه فعل من أفعال جاهلية القرون الوسطى. إذن فلماذا تشويه الإسلام والصاق كل الصفات والنعوت الشيطانية به، بصفته يدعوه لتأييد دور الدين في الدولة؟ فالإسلام لا يهدف إلا إلى دولة في هذا النطاق، دولة يتالف فيها الدين والسياسة، والدين والاقتصاد، والدين والمجتمع. ولا يهدف بأى حال من الأحوال إلى چرمنستان معربة ذات حكم ثيوقراطي يقوده رجال دين من قبيل ملأ على ضفاف الراين.

هناك ليبراليون متطرفون، ويساريون، وكذلك ملحدون متشددون من جميع المسكرات والاتجاهات، يرون في الارتباط الدائم والمستمر بين الدين والكنيسة مأساة عظمى. فهم لا يكتفون بالدرجة التي وصل إليها تهميش الله ونزع المسيحية في أوروبا. ومثالهم الذي يجب أن يحتذى به الجميع هو المكسيك وفرنسا، كدول تفصل الدين عن الدولة تماماً. وهذا الاعتقاد خاطئ تماماً؛ لأنهم يتناسون أن الدين يمكن أن يظهر في صور شتى، مثل الأشكال البديلة للدين كالكمالية وغيرها. وأحد أعراض هذا الموقف هو المفهوم الأمريكي «Political Correctness» الذي أخذ ينتشر عندنا. وإنني لا أرى تفسيراً مقنعاً لمحاولة طمس بعض الموضوعات في السياسة والإعلام وتحويلها إلى محرمات. كما لا أجد تفسيراً مرضياً للعدم التسامح الذي يعبر عن نفسه بأشكال عنيفة أمام مظاهر دينية. كارتداء غطاء الرأس للمسلمة.

إلا في سيادة بداول للدين تبدو في ظاهرها فقط علمانية (كما كان الحال من قبل مع الشيوعية).

لا يخلع المسلم دينه عن نفسه في الحياة العامة ومجال العمل، كما يخلع المرأة ملابسها، شأنه في ذلك شأن أتباع بعض الجماعات الإنجيليكانية وجماعة Opus Dei (هي إحدى الجماعات المسيحية من غير رجال الدين، ويعرف عنها التطرف والعنف)، فهو نشيط سياسياً بطبعه. ويبدو هذا مناقضاً للمفهوم الغربي الذي يحصر الدين في المجال الشخصي الفردي فقط. ولكن على مؤيدي هذا الاتجاه القائل بحصر الدين في المجال الشخصي، أن يتذكروا جيداً أنه -بناءً على الخبرة- ما أمكن لكيان دولة أن يعيش طويلاً إلا بوجود ثوابت غير دينية تسانده.

ولقد أيقن كل من نواليس Novalis و كانت Kant، وهم من أنصار الفقلالية، أن القوى الدينية لا تستطيع أن تحافظ على توازنها، ولكن النتيجة تكون دائماً غابة من المصالح ما لم يتماسك المجتمع بفعل الدين. وإلا لماذا ترافق اللجنة الأوروبية نفسها بمشروعها «منح أوروبا روحًا» Giving a Soul to Europe، إلا لكي تسرى بعض الروحانيات في القارة القديمة من جديد؟

لقد توصل Daniel Bell منذ ما يقرب من ربع قرن في عمله «التناقضات الثقافية للرأسمالية The Cultural Contradictions of Capitalism» إلى ما يلى: إن الرأسمالية التي تقوم على أسس وقيم كالثانية -كما وضعتها ماكس فيبر Max Weber (القيم البروتستانتية وروح الرأسمالية)- تؤدي إلى التدمير الذاتي إذا ما تحولت الرأسمالية إلى هوس تقدم اقتصادي وعلمي؛ لأنه في هذه الحالة، تحول فضائل حقيقية مثل الاجتهد والوفاء وعدم الإسراف والالتزام ودفافع الإنجاز، إلى نقيضها، وتتسنم المنظومة كلها بتحولها إلى نزعة استهلاكية، وتسيب جنسى، وعدم مبالاة وتقليد أعمى.

إن عالم ما بعد الصناعة يوفر كل شيء ما عدا إجابات عن الأسئلة الكبرى التي تدور حول معنى ومعنى الحياة والوجود: من أين؟ إلى أين؟ لماذا؟ ومن هذا المنطلق صرخ الأمير شارلز بتاريخ 10 من يوليو عام 1996 في لندن

في أثناء إلقائه كلمة في حفل عشاء: «القد حاول العلم جاهداً أن يتحول إلى ديكاتورية، وأن يحتكر رؤيتنا وفهمنا للدنيا، بفصل الدين عن العلم. إنني أؤمن بأن الإبقاء على القيم الحضارية مرتبط بالإبقاء على إحساس دفين بالقدس في قلوبنا». واستطرد أمير ويلز قائلاً: «إنني على اقتناع تام بأن عالماً يمثل فيه العلم والدين مكونات أساسية لرؤيتنا، فهو عالم أكثر تحضرًا وحكمة وتوازنًا. ولقد استطاع العالم الإسلامي أن يحافظ بشكل أفضل على رؤية العالم المتسمة والروحانية هذه، وهذا ما لم يتحقق لنا في الغرب».

ولا ينقص المسلمين فهم طبيعة السياسة ولا الرغبة في تقدم الدولة، والاقتصاد المزدهر، بل على العكس، لقد التزم المسلمون تاريخياً بإقامة كيان دولة (غالباً كيان واحد فقط)^(٩) يضم كل المؤمنين، ويケفل للجميع المساواة، والعدالة، والرفاهية، والحرية والكرامة، أي نقيض الدولة القومية في عالم الدول القومية.

لقد صور القرآن هذا الكيان الجماعي المثالى الذي يضم إخوة وأخوات: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ» (آل عمران: ١١٠).

ولكل هذه الأسباب، أصاب سقوط الخلافة عام ١٩٢٤ العالم الإسلامي في مقتل، بالرغم من أن هذه الخلافة كانت قد أصبحت منذ زمن مجرد رمز للوحدة السياسية للإسلام.

ويُعدُّ الحنين إلى الخلافة - إلى يومنا هذا - حقيقة ثابتة وقائمة لا تتحمل الإنكار، ولذلك استغرق الأمر الكثير من الوقت حتى يتقبل غالبية فقهاء المسلمين حقيقة نشأة كيانات قومية مسلمة (في المناطق التي رسم حدودها الاستعمار) في القرن العشرين.

فلقد كانت الدولة القومية بصفتها متوجهاً أوروبا للقرنين ١٨، ١٩ - بعلمانيته الشديدة - دائمًا موضع رفض، وما كان لفقهاء الإسلام أن يتصوروا أن تقوم شعوبهم بالانخراط في هذا الشكل السياسي، ولكن سرعان ما وجد الفقهاء الحل في العودة إلى ابن تيمية، الذي قال منذ ٥٠٠ عام، إن الأهم بالنسبة مستقبل

(٩) عرض رائع لهذه المناقشة، انظر تيمى (١٩٩٨، ١٩٩٧).

الإسلام هو وحدة الأمة والشريعة، وليس وحدة الدولة والخلافة. ولقد صاغ سيد قطب هذه الفكرة عام ١٩٦٤ بصفته المنظر الرائد لجماعة الإخوان المسلمين المصرية في المقوله: إن قومية الأمة هي إيمانها، ووطنهما هو العالم الإسلامي دار الإسلام، وحاكمها هو الله، ودستورها القرآن، وبهذا احتلت الشريعة مكانة الخليفة كرمز للهوية والوحدة الإسلامية^(١٠).

إن القانون الإسلامي - أي الشريعة - لا يتطلب شكلاً محدداً للدولة المثالية. فعلى كل جيل من المسلمين أن يجتهد للتوصل إلى تنظيم الدولة الذي يتماشى على أفضل سبيل مع موروثاته ودرجة تطوره، ويحقق أفضل مصالحه، من الممكن أن يكون هذا الكيان مملكة خاصة. إن القرآن يتحدث عن الملوك مثل الملك سليمان في سورة النمل، الآيات (٤٤-٢٨) وملكة عادلة ذات عقل راجح هي مملكة سبا (غالباً بلقيس).

ولكن من الجائز أن تكون هذه الدولة جمهورية مثل الدولة الإسلامية الأولى التي قامت في المدينة. فشريعة أهل السنة (خالية المسلمين) لا تستلزم بأي حال دولة ثيوقراطية، أي دولة تحكمها سلطة رجال الدين على غرار ما يتحدث في إيران.

أما أهم الشروط التي يجب توافرها في كيان حكم إسلامي صحيح، هو أن يسود فيه الإجماع على من يحكم وما يحكم، أي أن يتم الحكم بموافقة الغالبية، حتى يكون هناك عقد (مفهوم روسو) يحكم العلاقة بين الشعب والحكومة، ويسمى العقد الاجتماعي، وهو في الإسلام البيعة.

٤٠

هنا تكون قد وصلنا إلى ذروة مناقشة «الإسلام السياسي»، وهي تتلخص في السؤال الآتي: ما موقف الإسلام من الديقراطية؟^(١١) ويكتنأ أن نستمع إلى إجابات عديدة ومتنايرة. ولكن يمكننا القول بأن هناك بعض الأصوات آخذة في

(١٠) Krämer ص ٥٠ وبالنسبة لقطب ص ١١٠.

(١١) عن تزاع السيادة والسلطة انظر Khir (١٩٩٥).

الخفوت، وهي تلك الأصوات التي تعادل الديقراطية بنظام الكفر وتعادل احترام سلطة الحاكم بالشرك.

وكما هو الحال بالنسبة لفكرة حقوق الإنسان، فهناك بعض الأفكار الخاصة بالديقراطية مرتبطة عند المسلمين بمشاعر وخواطر محددة، تأتى مرتبطة بالقوى الاستعمارية التي هيمنت عليهم.

وهناك كذلك سبب آخر لنفور بعض المسلمين من الديقراطية، وهو المعنى اللغوى حيث تتم ترجمة هذه الكلمة بأنها حكم الشعب وسلطة الناس. وبالنسبة للمسلم، فالحكم لله وحده. ولذلك يجب توضيح بعض مفاهيم، كالحاكمية. وكما هو متوقع، فإن سيد قطب يرى أن التشريع ووضع الأحكام بجميع صوره شأن من شأن الله وحده يختص به دون البشر.

أما المعارضون لفكرة سيد قطب هذه من أمثال محمد أسد، ومحمد سعيد العشماوى، وفتحى عثمان، وراشد غنوشى، وحسن الترابى وچيفرى لانج، فإنهم يقرون أن «حكم الله» لا يعني بأى حال من الأحوال أن الله قد سلب البشر الحكم فى الدنيا. ولكن حكم الله يعني بالضرورة أن تحكم كل منه أى القرآن وتحكم شريعته البشر؛ ولذلك يجد الإنسان نفسه أمام السؤال المهم: كيف يحول البشر كلمة الله وشريعته إلى قوانين ونظم تحكم حياتهم وتعاملاتهم؟⁽¹²⁾

ويرى حسن الترابى أن المثال الإسلامى ونظام الحكم الإسلامى الأمثل هو إسلام ديمقراطى؛ لأنه جاء على لسانه: «إن الإسلام يرفض الحكومات المطلقة والسلطة المطلقة والسلطة المورثة وسلطة الفرد»⁽¹³⁾.

ولذلك، فإن من يتهم الديقراطية بأنها غير إسلامية، فإنه -وفقاً ل الكلام فتحى عثمان- لا يفهم شيئاً عن الإسلام أو عن الديقراطية أو عن كليهما. ولذلك فإنه من الظلم محاربة الإسلام بالديقراطية، أو الهجوم على الديقراطية، من منبر الإسلام⁽¹⁴⁾.

(12) عثمان (1994) ص 191، Lang (1995) ص 70، غيمى (1998) ص 35.

(13) الترابى (1992) ص 19.

(14) عثمان (1996) ص 58.

وليس من قبيل الظلم، بل من الخطأ الفادح، إلصاق العلمانية بالديمقراطية، فهما- أي الديمقراطية والعلمانية- ليستا متزلفتين، بل العكس، من الممكن وجود ثيوديمقراطية إسلامية كما يرى المودودي^(١٥).

من المفهوم أن يرفض المسلم حكم الشعب إذا كان هذا يعني أن تحكم مجموعة من الناس- مجرد أنها تخوض بغالبية مقاعد البرلمان- كما يحلو لها وكماتصور لها أهواها: وأن تحكم بما تشاء وكيفما تشاء. ولكن هذا ليس الوضع الحقيقي حتى في الديمقراطيات الغربية. فحكم الشعب ليس تسلط الشعب وقهر الشعب أو سلطته المطلقة. ولذلك فإن الدساتير الغربية لا تخمن مواطنها من الدولة فقط بل تخمن كذلك الدولة من مواطنها كما تخمن الأقلية من الأغلبية.
والوضع في الإسلام ليس مخالفًا لذلك^(١٦).

وهناك فكر سائد في الديمقراطيات الغربية: أن هناك معايير وقيم لا تمثل من القوانين بأي شكل من الأشكال.

وأعتقد أن على المسلمين بدلاً من الوقف عند مفردات منفرة، وإضاعة الجهد في مجادلات كلامية، أن يتبيّنوا أن أهم أهداف الديمقراطية ووظائفها، إنما هي تأمين وجود رقابة منظمة على الحكومات لمنع أي ظلم وتسلط وسوء استخدام للسلطة، وما هذا إلا جوهر الأهداف الإسلامية.

ويتم تحقيق هذا في ديمقراطية إسلامية، بجعل القرآن الكريم المصدر الأعلى للدستور (سيكون هذا اللبنة الأولى لديمقراطية إسلامية). يجب أن توضع جميع القوانين المستمدّة من القرآن الكريم موضع اعتبار وقياس من قبل قانونيين مسلمين. (هذه الخطوة هي اللبنة الثانية في الديمقراطية الإسلامية). أما اللبنة الثالثة، فهي قيام حياة نيابية إسلامية بناءً على التوجيه القرآني بوجوب الشورى، والذي ورد في سورتين: سورة آل عمران الآية ١٥٩^(*) وسورة الشورى الآية

(١٥) التراثي (١٩٩٢) ص ٢٤.

(١٦) التراثي (١٩٩٢) ص ٢١.

(*) قال الله تعالى: «وشاورهم في الأمر».

(٣٨*). وقد حملت هذه السورة هذا الاسم لأهميته، مما دفع بالشيخ محفوظ نحناح زعيم الحركة الإسلامية الجزائرية لأن يقترح تسمية الشكل الإسلامي للديمقراطية، شوري قراطية.

لقد أمرت الآية ١٥٩ من سورة آل عمران الرسول أن يشاور المؤمنين في الأمر، والآية ٣٨ من سورة الشورى جعلت واجب الشورى يمتد إلى المؤمنين كافة وليس الرسول وحده، وسواء بفرض الصلاة. وهذه الصيغة ذات أهمية قصوى حتى وإن كان فرض الأخذ بالشورى - كما هو الحال في الغرب - قد عطل وانتهى الأخذ به في التاريخ الإسلامي الذي يتسم بالسلط، ولم يعد الأخذ بالشورى موضع تنفيذ منذ حكم الأسرة الأموية في دمشق عام ٧٥٠.

لا ينكر أي مسلم في يومنا هذا وجوب الأخذ بالشورى، ولا نفker حقيقة أن الشورى لا يمكن أن تتم في المجتمعات الحديثة ذات الكثافة العالية من خلال كل الأفراد، بل من خلال مجلس منتخب يمثل ناخبيه كما فعل موسى من قبل (١٧). (اللبننة الرابعة في البناء الديمقراطي). أما السؤال الذي يمكن أن يطرح من وجهة نظر إسلامية ويكون موضع خلاف، ليس وجود مجلس للشورى، ولكن كيفية انتخاب أعضاء هذا المجلس.

فإذا قام الحكم - كما هو متبع في كثير من البلدان الإسلامية - بتعيين أعضاء هذا المجلس، فكأنما يقوم الحكم الذي يجب مراقبته بمراقبة نفسه. ولذلك هناك تأييد متزايد للانتخابات العامة الحرة لممثل الشعب، ويحظى هذا الاقتراح بموافقة غالبية المسلمين (١٨). (اللبننة الخامسة في البناء الديمقراطي).

هناك عقبة من المحتمل أن تعيق الممارسة الديمقراطية، وهي أنه يجب على المسلم السنّي أن يمتنع عن أن يطلب لنفسه منصبًا سياسيًا. ولقد كان هذا الأمر - أي

(*) قال الله تعالى: «وأمرهم شوري بينهم».

(١٧) الآية ١٥٥ من سورة الأعراف.

(١٨) عثمان (١٩٩٦) ص ٤ / ٤٣.

أن يطلب المرء لنفسه منصبًا سياسياً. موضع رفض بل ازدراء، حتى إن الرسول محمدًا لم يعين أحدًا في منصب قيادي قد يكون طلبه لنفسه^(١٩).

أما إذا طبقنا هذا على معركة انتخابية، فلا يعني هذاـ من وجهة نظرـ إلا يسمح للمرشح بالدعاية لما يمثله (بالضرورة لنفسه)، ولكن لا يجوز أن يقوم هو باقتراح ترشيح نفسه.

أما إلزام الحاكم بالأخذ برأى مثلى الشعب، فهو أمر لم يحصل بعد^(٢٠)، ولكن هناك ما يؤيد وجوب هذاـ. وأول ما يؤيد هذاـ أن القرآن لا يرى الأمير أو السلطان وحده خليفة لله على أرضه، بل كل إنسان^(٢١). كل إنسان فرد خليفة (من هذا المنطلق فإن الإسلام يعرف سلطة الشعب).

وهناك من السنة ما يؤيد هذاـ، فلقد أخذ محمدـ صلى الله عليه وسلمـ ببدأ الشورى في الأمور غير الدينية، وكان يستجيب لرأى الغالبيةـ، حتى وإن خالفـ رأيهـ. فقد اتبع رأى الحباب بن المنذر قبل موقعة بدر^(٢٤) يجعلـ موضع المسلمين قبل آبار المياه وليسـ بعدهـ.

ولقد استجابـ لرأى سلمان الفارسيـ بحفرـ خندقـ حولـ المدينةـ فيـ المعركةـ التيـ حملـتـ هذاـ الاسمـ (معركةـ الخندقـ)ـ عامـ ٦٢٧ـ، وهوـ عملـ غيرـ مسبوقـ فيـ وقتـهاـ^(٢٥)ـ.

أماـ فيـ موقـعةـ أحدـ عامـ ٦٢٥ـ فقدـ نـزلـ الرـسـولـ عـلـىـ رـأـيـ الغـالـيـةـ وـنـفـذـ مـخـالـفـاـ بـذـلـكـ رـأـيـ الـخـاصـ. ولـقـدـ خـسـرـ الـسـلـمـونـ هـذـهـ المـوـقـعـةـ؛ لأنـهـمـ خـالـفـواـ رـأـيـ الرـسـولـ وـقـاتـلـواـ أـعـدـاءـهـمـ الـمـكـيـنـ فـيـ سـاحـةـ قـتـالـ مـكـشـوـفـةـ^(٢٦)ـ. (الـلـبـنـةـ السـادـسـةـ فـيـ الـبـنـاءـ الـدـيمـقـراـطـيـ).

(١٩) فـيـ الـحـدـيـثـ: «إـنـاـ لـاـ نـوـلـىـ عـلـىـ هـذـاـ عـلـمـ أـحـدـاـ سـأـلـهـ، وـلـاـ أـحـدـاـ حـرـصـ عـلـيـهـ»ـ
الـبـخـارـيـ [٧١٤٩]ـ، وـمـسـلـمـ [١٤/١٧٣٣]ـ.

(٢٠) عـمـانـ (١٩٩٦)ـ صـ ٨٣ـ.

(٢١) يتـضـعـ أـنـ كـلـ إـنـسـانـ يـمـثـلـ وـنـائـبـ عـنـ اللهـ مـنـ الـآـيـةـ ٣٠ـ مـنـ سـوـرـةـ الـبـقـرـةـ، وـالـآـيـةـ ١٦٥ـ مـنـ سـوـرـةـ الـأـنـعـامـ، وـالـآـيـةـ ٥٥ـ مـنـ سـوـرـةـ الـنـورـ، وـالـآـيـةـ ٦٢ـ مـنـ سـوـرـةـ النـمـلـ، وـالـآـيـةـ ٣٩ـ مـنـ سـوـرـةـ فـاطـرـ.

(*) بلـ إـنـهـ تـوقـفـ عـنـ مـفـاـوـضـةـ بـعـضـ الـأـخـرـابـ لـيـنـصـرـفـواـ عـنـ قـتـالـهـ، عـنـدـمـ تـجـمـعـواـ عـلـىـ الـسـلـمـينـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ لـاـسـتـصـالـهـمـ، وـذـلـكـ بـنـاءـ عـلـىـ رـأـيـ كـلـ مـنـ سـعـدـ بـنـ مـعـاذـ وـسـعـدـ بـنـ عـبـادـ.

(٢٢) قـارـنـ هـيـكـلـ صـ ٢١٩ـ، ٢٢١ـ، ٢٢٢ـ، ٢٣٢ـ، ٢٤٢ـ، ٢٥٢ـ، ٢٥٤ـ.

يذكر القرآن إمكانية اختلاف آراء ووجهات نظر المسلمين (الآية ٥٩ من سورة النساء) (*) إلا أنه بالرغم من ذلك، يبحث المسلمين على تفادي الخلافات الداخلية ويحضهم على التاليف فيما بينهم. وهذا الاحتياج للتاليف والوحدة قد يكون قوياً حتى إنه يتسم ببعض السمات السلطوية التي تأخذ شكلاً مسلطاً (٢٢). ويعبر هذا الاحتياج إلى التاليف والوحدة عن نفسه في صور شتى، مثل الخوف من وجود تناحر وخلافات بين الأحزاب المسلمة في البرلمان (في ماليزيا). يزيد الخوف من الخلافات والرغبة في البعد عنها إيمان بعض المسلمين بأن القرآن يتضمن إجابات واضحة لا تقبل التأويل لجميع الأسئلة، وبالتالي فإن اختلاف وجهات النظر ما هو إلا دليل لسوء النوايا (أو ما هو أسوأ من ذلك). ألم يذكر القرآن أن هذا الكتاب لم يغفل عن أي صغيرة أو كبيرة كما ورد في سورة الأنعام [الآية ٣٨] **«مَا فِرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»؟** وكذلك قال: **«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»** [المائدة: ٣].

هؤلاء يتجاهلون بتفسيرهم هذا أن الإسلام إنما أنه القرآن فيما يتعلق بأصول المسائل الدينية، كالعقيدة والعبادة والأخلاق؛ ولذلك فاختلف وجهات النظر مقبول وجائز عند تطبيق المقاصد القرآنية العريضة في مجالات الحياة المختلفة الأخرى، ومن بينها السياسة. ولكن الإسلام يستنكر أن تصل هذه الاختلافات إلى قتال أو أي أشكال للعنف (٢٤) (حديث من صحيح مسلم) (٢٥) ومن المعروف أن

(*) قال الله تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِمُوا اللَّهَ وَأَطِمُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مَنْ يَنْهَا تَنَازَعُهُمْ فِي مَا أَنْهَا فَرَدُوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ».**

(٢٣) عثمان (١٩٩٦) ص ٥٥.

(٢٤) عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ١١. يستند البعض في رفض الاختلافات إلى الروايات التالية:

البخاري: ٤ / ٤٦٨، ٤٣٤ / ٥، ٧١٧ / ٥، ٥١٠ / ٦، ٦٧ / ٩، ٣٩٠ / ٩. مسلم: ٦٤٤٧

لابد وأن الخوف من تحديدات غير مسموح بها كان له دور مهم في هذا. انظر مسلم رقم ٦٤٥٠ حيث يروى مسلم في هذا الحديث عن تحذير الرسول من الخلافات التي تؤدي إلى صراعات ونفرة.

(٢٥) يتم التحذير من الفرقة والنهي عنها في حديث مسلم رقم (١٨٤٨/٥٣): «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات؛ مات ميتة جاهلية» وفي صحيح مسلم أيضًا رقم (٢٨٨٨/١٥): «إذا تواجه المسلمين بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه قد أراد قتل صاحبه». دار إحياء الكتب العربية- عيسى الباجي الحلي.

الصحابة. كانوا كثيراً ما يختلفون ويتجادلون بشدة حول المسائل ذات الطبيعة السياسية والعسكرية. كما قامت نزاعات حول مسألة الخلافة، حتى إن كلاً من الخليفة الثالث والرابع عثمان وعلى لقياً حتفهما في ذلك.

إن شرعية محاولة التمسك بالسلام السياسي لا يؤدي إلى الإجابة عن السؤال التالي: ما العمل إذا لم يتوصل الأخوة إلى الإجماع؟ يخشى بعض المسلمين في هذا الوضع من ضرورة الأخذ برأي الغالبية، ويعود خوفهم هذا إلى عدم تقديرهم السليم للمساحات المتاحة لأخذ القرارات في المجلس النيابي الإسلامي من ناحيتين، أولاً: يعطونها أكثر من قدرها بناءً على الآية ١١٦ من سورة الأنعام والتي تحذر من اتباع الغالبية حتى لا تضل عن طريق الله وهداه (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

هذا الخوف لا مجال له؛ لأنه لا يحق لمن يمثل الشعب في حكومة ديمقراطية إسلامية أن تصدر أحكاماً أو مخالفات لما أقره القرآن والسنّة في المسائل الشرعية والدينية، سواء بقرار يحظى بغالبية الأراء أو بغيره (أقصى الصور المتشددة لتنفيذ هذا المبدأ هو ما يجري في المملكة العربية السعودية، حيث القرآن والسنّة هما مصدراً للأحكام مباشرة).

من ناحية أخرى، فإنهم يقللون من قدر المساحات المتاحة في المجالس النيابية لاتخاذ القرارات؛ لأنهم يغفلون عن وظيفة أساسية للبرلمان الإسلامي. فالبرلمان الإسلامي لا تتحضر وظيفته في البت في الأحكام الموجودة فعلاً في القرآن والسنّة، ولكن هناك مجالات أخرى تتعدى ما هو موجود فعلاً، مجالات يجب إصدار أحكام فيها بما لا يخالف المبادئ الأساسية والأخلاقية للإسلام، بحيث تتطابق مع القرآن والشريعة ولا تخالفهما^(٢٦). (اللبننة السابعة في البناء الديمقراطي).

فهناك في آخر الأمر ضرورة لإصدار تشريعات لا تنظم الجوانب الفنية لبناء الشوارع والتعرية الجمركية والمسائل الصحية وضمانات العمل وغيرها فقط، بل أيضاً هناك ضرورة لإصدار أحكام تكميلية في مجال التعزير مثلاً. حدث هذا في

(٢٦) انظر مسلم: ٥٨٣١-٥٨٣٠.

عهد الخلافة العباسية، حيث وجد نظامان للأحكام، تزامناً معاً: أحكام الشريعة من ناحية، ومن ناحية أخرى نظام إدارة وأحكام متحرر نسبياً من خلاله استحداث عقوبات لم يذكرها القرآن، مثل دفع الغرامة نقداً، والسجن^(٢٧).

وجود المنفذين والمرءين جنباً إلى جنب يكفل تقسيم السلطات للديمقراطية الإسلامية (اللبننة الثامنة). ويعبر عن هذا أوضح تعبير انتخاب رئيس الدولة عن طريق انتخابات نيابية. يجب وفق الموروث الإسلامي، وبالنظر إلى دور الرسول من خلال القرآن، أن يرأس الدولة شخص فرد (ذكر) فلا وجود لمجلس ثوري، ولا مكتب سياسي.

يجب أن يكون هذا الشخص أكثر الشخصيات ورعاً وتقىً بين من يصلح لتولى الحكم بشكل موضوعي؛ لأنَّه من المتوقع من مسلم ورع -يؤمن بالطبيعة الإلهية لأحكام القرآن- أن يتبع هذه الأحكام ويدافع عنها. كان هناك في الحكم العثماني منصب الوزير الأكبر، ولم يشترط لهذا المنصب أن يكون من يشغله مسلماً أو رجلاً.

يعتقد الكثيرون من المسلمين -برغم النموذج الإيجابي الذي تمثله مملكة سبا ويدركه القرآن- أن الدولة التي ترأسها امرأة لا ينالها الكثير من فرص النجاح والازدهار. يستندون في ذلك إلى تعبير محمد صلى الله عليه وسلم -عن شكه في نجاح ابنة ملك فارس في حكم بلادها (لقد حكمت فعلاً لفترة قصيرة). ولكن هذا الرأي يستند إلى الرواية الشائعة لأبي بكر، وهذه الرواية إعلامية أكثر منها شرعية^(٢٨)، (موقعة الجمل عام ٦٥٦ عند البصرة، والتي قادت فيها عائشة زوج

(٢٧) تعزير (الجمع: تعازير): قانون عقوبات وعلاقاته بالحدود القرآنية، انظر Doi من ٢٢٢، ٢٢٨ والتراثي (١٩٩٢) من ١٤ و من ٣٨.

(٢٨) الحديث: «لَنْ يَفْلُحْ قَوْمٌ وَلَوْ أَمْرَهُمْ امْرَأَةٌ» البخاري جزء ٩ كتاب ٨٨ رقم ٢١٩ ص ١٧١، رسول ص ٧٤٣ حديث: ٧٠٩٩ لتقسيمه وتفسيره انظر عثمان (١٩٩٦) ص ٥١. Lang (١٩٩٥) ص ٧١، ١٩٦ يعتقد أنه صعب أن نحدد إذا ما كان هذا الحديث تعليقاً سياسياً أو يتضمن مبدأ. وي يكن أن نذكر هنا حديث أنس: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرّ بقوم يلقنون التخل فقال: «لو لم تفعلوا الصلح» قال أنس: فخرج شيئاً (البسر الرديء). فمرّ بهم فقال: «ما تخلكم» قالوا: قلت كذا وكذا؛ قال صلى الله عليه وسلم: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» مسلم [١٤١/٣٦٣]. وقد ينظر للحديث على أنه واقعة حال لا تعمم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يته المسلمين صراحة عن ذلك، والله أعلم.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - أحد المعسكرين المتحاربين في وجه الخليفة على بن أبي طالب). لقد استطاع العالم الإسلامي أن ينجو رؤساء حكومات من النساء أكثر مما تحقق لألمانيا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية مجتمعين، من أمثال بي نظير بوت (1988) والبيجوم خالدة ضياء (1991).

واستقراءً لتاريخ خلفاء الرسول الأوائل، نستطيع أن نتبين عدم وجود نظام ثابت لاختيار الخليفة (اللبيبة التاسعة). لقد تم اختيار أبي بكر بعد جدال عنيف دار بين المهاجرين والأنصار. أما الخليفة الثاني عمر، فتم انتخابه عن طريق التسمية ثم البيعة، وال الخليفة الثالث عثمان تم اختياره من مجلس ضم ستة أشخاص اختارهم عمر قبل وفاته، ثم بايعه الناس. ونستنتج من هذا أن الإسلام لا يعترف حتى في المالك إلا بملك يتم تسميته ويقبل الناس ورضاه، ويتم هذا بأفضل شكل في صورةأخذ البيعة له.

٤٠

يتبع عن هذا العرض في رأيي حقيقة ثابتة، هي أن الإسلام في حد ذاته لا يعادي الديمقراطية، بل على النقيض يتضمن تسع لبيبات أساسية لتوطيد أركان ديمقراطية إسلامية، ما على المسلمين إلا العمل على تحقيقها.

ولذلك يبدو اتهام المسلمين والإسلام بالعداء للديمقراطية ضربا من ضروب العنصرية. ويمكن بالتالي بالمثل اتهام الفرنسيين بعدم أهلية لهم للديمقراطية؛ لأنهم انتخبوا في خلال ٢٠٠ عام خمس جمهوريات، وإمبراطوريات، وملكتين، وحكم وطني.

لن تتشابه الديمقراطية الإسلامية بالضرورة مع تلك التي في ويستمنستر (الديمقراطية التي تحكم إنجلترا) لأن العالم العربي الإسلامي يملك أشكالاً من التعددية والكونفدرالية والحضارة، وتوزيع السلطة ذات طبيعة خاصة به فقط. ولكن حتى في الغرب فويستمنستر لا يشبه سوى ويستمنستر. ولا يصح أبداً تعريف الديمقراطية بالشكل الذي يؤدى إلى وصف جماعة من الناس تؤمن بالله

وتستمد من إيمانها هذا أحکاماً وقیماً تحدد تعاملاتها، كمواطئنیں بأنها غير مؤهلة لممارسة الديقراطیة. فی هذا الحال يصبح الامريکيون دیقراطیین سیئین جداً؛ لأن القضاء على المسيحیة ظاهرة أوروبیة ولیست امریکیة. ویقی تساوی يستحق التأمل، وهو: کیف یتم الترجیب بـأحزاب مسیحیة فی کل من ألمانیا وإیطالیا، وفی الوقت نفسه توصف أحزاب إسلامیة کالتي فی تونس والجزائر بأنها غير دیقراطیة؟

ومن الخطأ الفادح أن یتوصل المحللون للتاریخ السياسي للإسلام، وليس للإسلام وقواعده، إلى نتیجة مفادها: أن المسلم فيما یخص ممارسة الديقراطیة موصوم بعدم ممارستها بحکم میلاده. فلقد عانت أنحاء العالم كلها فی آخر الأمر من مسألة الديقراطیة سواء دانت هذه الأنحاء بالمسیحیة، أو الكونفوشیوسیة، أو البوذیة أو الہندوسیة، أو اليهودیة، أو الإسلامیة. أما إفريقيا السوداء والصین ومعظم أنحاء آسیا وكذلك أمريکا الجنوبيّة فلم تنضم كلها بعد إلى معسکر الديقراطیة.

أما تطور الديقراطیة فی أوروبا، فقد استغرق قروناً كثیرة، وشهد انتکاسات مريرة. وفي هذا السیاق، یكون الصاق تھمة خروج العالم الإسلامي من التاریخ «Out of step with history» على حد وصف Mark Heller من قبیل الأحكام المسبقة وانعدام المعرفة بالعلاقات والخلفیات.

یأمل الكثير من مجموعات المعارضة. وبخاصة تلك التي تأخذ من الغرب مفراً لها. فی قبول آليات المراقبة الديقراطیة للحكومات. أما أن یتوقع المرء أن تهتم السلطات فی العالم الإسلامي بـإقرار الديقراطیة وتطورها، فهو جهل تام بالطبيعة الإنسانية. ولكن لم یعد فی وسع هذه الحكومات إلا تبني واجهة دیقراطیة (ديقراطیة شکلیة).

ولکن یتفق معظم الكتاب الغربيين المشارکین فی الكتاب الذي يحمل عنوان: *Democracy without Democrats?*

The Renewal of Politics in the Muslim World.

أديقراطية بلا ديمقراطين؟ تجديد السياسة في العالم الإسلامي.

وصلت تحت رعاية غسان سلامة. بالرغم من عنوانه المثير للشك. أن العالم الإسلامي يشهد بعض التحركات في اتجاه الديقراطية، وهذا الوضع وصل إليه العالم الإسلامي بفضل شخصيات مهمة عملت كل منها بطريقتها خطوة خطوة على التمهيد لارسال قواعد التعامل الديقراطي، مثل جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧)، ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٣)، ورشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥)، ومالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣)، ومحمد أسد (١٩٠٠-١٩٩٢)، وفتحي عثمان، وحسن الترابي، وراشد غنوشى المقيم منذ عام ١٩٨٩ في منفاه بلندن^(٢٩) وچيفري لانج أستاذ الرياضيات الأمريكية المسلم في ولاية كنساس.

ولذلك فإنه، من المأمول أن يغلق ملف الديقراطية. الشورى أخيراً، كما يعبر عثمان عن أمنيته هذه^(٣١). فبدلاً من إبداء الدهشة، من الأفضل الاعتراف بأن العالم الإسلامي ليس ساكناً. وللمرأقب عن كثب. وأنه لم يكن كذلك أبداً^(٣٢).

في ظل ما سبق ذكره، أعتقد أنه على الغرب أن يراجع موقفه المتشكك والمتقد من تلك جماعة المعارضة الإسلامية التي ترغب في تغيير الأوضاع في أوطانها من خلال المناقشات الديقراطية. إن هناك عوامل مشتركة بين هذه المجموعات والحركات

(٢٩) لم يساهم أحد في انطلاق النقاش حول الديقراطية مثلما فعل محمد أسد (سابقاً Leopold Weiss) من خلال كتابه الأول الذي ظهر لأول مرة عام ١٩٦١ في كاليفورنيا، هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ١٠٧ «The Principles of State and Government in Islam» «مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام».

ولقد توصل إلى نتيجة تؤكد إمكانية قيام دولة إسلامية تماطل النظم الأمريكية الرئاسى.

(٣٠) أهم كتب الغنوشى في هذا الموضوع هو «الحرية العامة في الدولة الإسلامية». انظر تعميى (١٩٩٨) حيث يشتمل على ملخص رائع لفكرة.

(٣١) عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ٢٤.

(٣٢) لقد أثبت Schulze هذا للقرن الـ ١٨.

التي تنادى بحقوق الإنسان وحق المواطنة، وحركات حماية البيئة، والحركات التي تهدف إلى حماية المرأة والمجموعات الإثنية^(٣٣).

إن أعضاء هذه الحركات يعرفون كما يعرف الكثيرون من الناس في الغرب من يعلمون عقولهم فيما وصل إليه العالم اليوم، أن المجتمع الحديث ليس أمامه سوى ثلاثة خيارات: أن يستمر متمسكاً بمشروع الحداثة بفهم تنويري عقلاني، أو الاستسلام للنarrative الحضارية غير القادرة على إنتاج معنى أو مغزى للحياة، أو إحياء روابطهم بدياناتهم. يرى الكثير من الأكاديميين من شباب المسلمين في «مشروع الحداثة» نموذجاً مفلساً، وما بعد الحداثة ما هو إلا طريق فكري مسدود لا أمل فيه، لذلك فهم يراهنون ويختارون دين آبائهم؛ فما الضرر من ذلك؟

إن محاولتهم لتسليس الإسلام بصفة أيديولوجية تحرر وتقديم، هي إجابتهم الفكرية وردهم على سيطرة الغرب على مجريات الأمور. فالإسلام بالنسبة لهم دافع وشرعية وتسويغ لأفعالهم، مثله مثل كل الأديان. إنهم يهدفون إلى أن يستبدلوا مجتمع الأنا مجتمع النحن، مجتمع التعاون والتكافل، هذا التعاون الذي يتضمنه الإسلام في صور شتى مثل عباداته (الصلوة والصيام والحج والزكاة). ولا يجب أن تحرم هذه الجماعات والحركات من حق المعارضة والمقاومة^(٣٤).

ولكن من الطبيعي أن نفهم قلق الغرب من تولى جماعات إسلامية عرف عنها استخدام العنف للسلطة في بلادها، فماذا يمنع هذه الحركات في حال توليتها الحكم من ممارسة العنف ضد معارضيها؟

تشير الجماعات التي تكون على استعداد لتبني العنف منهجاً وأسلوباً باحتذائها

(٣٣) Pinn ص ٧٠ لا يزال Kepel بأفكاره معاصرًا جداً لهذا الموضوع.

(٣٤) توصي السنة بالصبر على ظلم الولاة، ولكن ليس بالصبر بلا حدود على الظلمة والمتسلطين: البخاري جزء ٩ رقم ٢٥٧ وما يليه.

رسول حديث رقم ٧٠٥٣ وما يليه.

مسلم حديث رقم ٤٥٥١ وما يليه.

نقلًا عن التوسي حديث رقم ١٩٤، فإن أفضل الجهاد «أن تقول كلمة حق لحاكم ظالم».

الجماعات التي ثارت على العباسين في القرن الثامن، من حيث تصفيتهم لمعارضيهم، ونفيهم صفة المسلم عنهم وعن حكوماتهم. كما ينسب هؤلاء صفات تكاد تكون غير أدمية لأنفسهم، كما أنهم ينصبون من أنفسهم قضاة على الناس، ويحتكرون تفسير القرآن والسنّة بما يتناسب مع أهوائهم، ويطلقون شعارات مثل «لا حكم إلا لله» وغيرها.

وسيظل الشك قائماً. حتى يثبت العكس. فـي أن بين الإسلاميين النشطين سياسياً بعض من يتخذ الإسلام سبيلاً لتحقيق أهدافه الخاصة. لن يعقل أن يكون العالم الإسلامي قد خلا من المنافقين الذين عرف الإسلام أمثالهم، منذ بدايته في المدينة والذين كثيراً ما ورد ذكرهم في القرآن.

لكن هناك بعض جماعات المعارضة الإسلامية التي تنهى تماماً ومبذلاً عن استخدام العنف، حتى وإن كان مشروعًا ومبررًا نتيجة لظروفهم وأوضاعهم. وهم بذلك يحتذون بمثال نبيهم الذي لم يقابل قهر أهل مكة وظلمهم وعنفهم تجاه المسلمين بعنف مماثل، بل فضل الهجرة والخروج من مكة (هذه الجماعات يتم تتبعها وملاحقة نشاطها، للخوف الشديد من تأثيرها خاصة أن دعوتها وجنوحها للسلام يمثل جاذبية خاصة).

يقوم أكاديميون تلقوا تعليمهم في الغرب. غالباً وفي تخصصات علمية. بدورهم في هذه المجتمعات وصياغة أشكالها وعملها. إنهم كثيراً ما يعملون منظلين من وجودهم في الغرب، وينهجون أساليب ومناهج علمية غربية^(٣٥). ولا يوجد سبب يجعلنا نتهم مثل هذه المعارضة بعدم استعدادها الحقيقي والصادق لممارسة الديمقراطية والمحافظة على الدستور والعمل من خلال مظلته. ومن المناسب أن نقول إن هذه المجموعات الإسلامية الشابة هي الطاقة الأقوى ذات الصبغة الديمقراطية في العالم الإسلامي اليوم. حتى إن Edward Luttwak يؤكد هذا بقوله: «إن المسلمين هم المقاومة الفعالة الوحيدة في مواجهة الحكومات غير الديمقراطية»^(٣٦).

^{٣٥} (٣٥) تقلاع، عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ٢٥.

(ج) المعايير (١٩٩٢) ص ٢١

لقد صرخ حسن الترابي عام ١٩٩٢ في حوار دار في واشنطن دي. سي: «إذا كنتم ت يريدون إبعاد الإسلام، فعليكم الابتعاد عن صناديق الاقتراع في الانتخابات».

وليس هناك من شك في أن الأحزاب الإسلامية الديقراطية ستفوز في الانتخابات في البلدان الإسلامية كافة، بشرط أن تكون هذه الانتخابات حرة وتُجرى بنزاهة تامة. ولكن هل توجد مثل هذه الانتخابات الحرة النزيهة؟

* * *

متساوو الحقوق أم سواسية؟

شعار : يظلم بعض الفقهاء النساء ، أو يحكم عليهن بالبقاء في بيوتهن مدى الحياة .
(الشيخ يوسف القرضاوى ١٩٩٠/٥/٢ جريدة الشرق الأوسط اللندنية) .

- ١ -

نحدثنا سورة آل عمران في الآية ٣٦ أن أم مريم قالت بعد ولادتها : ﴿ فَلَمَّا رَضَعْتُهَا قَالَتْ رَبِّي وَضَعْتُهَا أَنْتَنِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذُّكْرُ كَالْأَنْثَى وَإِنِّي سَمِّيَتُهَا مَرِيمَ وَإِنِّي أَعِدُّهَا بِكَ وَذَرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرُّجِيمِ ﴾ .

لم يستعلم الله بطبيعة الحال من وزيرة عدل ألمانية إذا ما كان هذا الرأى - أي أن الذكر ليس كالأنثى - مقبولا سياسيا في القرن الحادى والعشرين ، أو إذا كان هذا ضد الدستور .

على أي حال ، يوجه القرآن بهذه الآية كل النقاش والخلافات التي تدور حول علاقة الجنسين الرجل والمرأة إلى جوهر الخلاف . الرجل والمرأة ، المرأة والرجل ، هل هما مجرد متساوو الحقوق كما ورد في الدستور المادة ٣ الفقرة ١١ ، أم هل هما وفق المادة ٣ الفقرة ١ متماثلان حتى يمكن أن يُساوى بينهما أمام القانون ؟

إننى أعني تماماً أن هذا التساؤل غير مقبول سياسيا في أوروبا ، وكذلك في أمريكا . فمجرد الرغبة في البحث عن فوارق واختلافات محتملة بين الجنسين تتعذر الاختلافات البيولوجية ، غير مرغوب فيه أيديدىولوجيا .

فمجرد البحث عن مستوى ذكاء البنين والبنات والفارق بينهما عامة ، والفرق في الموهبة في مجال الرياضيات خاصة ، يمكن أن يدمر مستقبل أكاديمى في بلد يدعى

عدم وجود رقابة وبياهى بحرية البحث فيه كالولايات المتحدة؛ لذلك فإنه من قبيل الشجاعة أن يستتتج Daniel Coleman في كتابه «ذكاء عاطفى - Emotional Intelligence» خوارق ظاهرة واختلافات مهمة بين الرجل والمرأة في هذا الصدد، ومن ثم تمكن بعد ذلك من التوصل حسائيا إلى معايير إنجازات ونجاح. ولقد بدأ بعض الأطباء من تواترهم الشجاعة لاقتحام مثل هذا المجال الشائك، من نشر بعض القوارق والاختلافات المرتبطة باختلاف الجنسين. في بالنسبة للسمع على سبيل المثال، يتفوق النساء على الرجال في قدرتهن على سمع الأصوات الخافتة.

أما الرجال، فيستطيعون تحديد مصدر الصوت ومكانه بشكل أفضل من النساء^(١). فهلا فكرنا في مسألة رعاية الرضيع ومسألة الصيد؟

لقد اكتسب الإسلام سمعة سببية فيما يخص موقفه من المرأة، حتى بات الناس يُعدُونه ديناً معادياً للمرأة. ليس بدون ذنب على ما أعتقد^(٢). وهذه السمعة السببية ترمي بظلالها على جميع المحاولات للتوصيل إلى تفاصيل أفضل بين الغرب والشرق.

هذا الموضوع ومناقشته يدلان مراراً وتكراراً على حقيقة ثابتة، وهي نقص المعلومات عن الإسلام لدى الغربيين، بل وجود الكثير من المعلومات المغلوطة عنه. فأخيائنا يتساءل أحدهم بجدية تامة: هل يعتقد الإسلام أن المرأة روحًا؟ وهل يسمح لها بالحج إلى مكة؟ وهل يمكن أن تدخل المرأة الجنة؟ وينعقد لسان المسلم من الدهشة فلا يرد جواباً.

وهذا دليل ومؤشر على أن مستقبل الإسلام في الغرب لا يتوقف فقط على موقفه وفهم الغرب لهذا الموقف من موضوعات كحقوق الإنسان والديمقراطية، بل هناك كذلك موضوع «المرأة».

(١) Rolf Degen: الفارق الصغير في حاسة السمع.

Der kleine Unterschied beim Hören.

في جريدة Frankfurter Allgemeine Zeitung تاريخ ٢١/١٠/١٩٩٨ ص ٢.

(٢) من هذه العناصر الحديث الذي رواه البخاري رقم [٤٣٠]، ومسلم رقم [١٣٢/٧٩]. وللذى يتضمن معنى أن غالبية أهل النار من النساء.

ليحاضر أي مسلم في أي موضوعات ولبعض أفكاره القانونية للتعامل مع تحرير الإسلام للربا، ولكن أول سؤال يوجه له دائمًا هو: «ما رأيك عن دور المرأة في الإسلام؟».

وتظهر شحنة العواطف التي تختفي وراء هذا السؤال بشكل واسع النطاق، خاصة إذا اخترلت في نقاط هامشية، مثل ارتداء الحجاب. هذا الأمر. غطاء الرأس هذا. يمكن أن يصيب بعض الدول في حميمتها إذا أعلوا من شأنه وجعلوه رمزاً وحملوه أكثر مما يحتمل حتى يصير أيقونة إسلامية^(٣).

يجد الغربيون - على ما يبدو - صعوبات جمة في قبول النموذج.

٢٠

لا تكذب الإحصائيات عندما توضح أن الأمهات، وكثيراً من الآباء يفضلون الأبناء الذكور على البنات.

ويصور القرآن تفضيل الذكور على الإناث بشكل جمالي بلين في سورة النحل الآيتين ٥٨ و٥٩: «وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًاٰ وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءٍ مَا يُشَرِّبُ بِهِ أَيْمُسْكَهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدْسُهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»^(٤). وفي موضع آخر قص علينا القرآن نبأً أبًّا سود وجهه عند ما يشرب بصبية في سورة الزخرف الآيتين ١٧ و١٨: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثْلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا

(٣) عندما تحررت Merve Kavaka ، وهي عضوة البرلمان الجديد عن حزب الفضيلة أن تدخل البرلمان التركي في مايو عام 1999 وهي مرتدية غطاء الرأس، أثار ظهورها هنا عاصفة مدوية في الأوساط العلمانية في تركيا حتى ليعتقد المرء أن هذه الدولة العلمانية التي يساند ١٠٨٠ من النواب وجودها، قد أخذت تهتز من جراء هذا التصرف.

لقد بثت إحدى القنوات التليفزيونية الخاصة في ألمانيا في خريف عام 1998 برنامجاً تضمن وثائق تؤكد أن بعض طالبات كلية الطب في إستنبول متنع من أداء امتحانهن الأخير لأنهن يرتدين غطاء الرأس. من البديهي إذاً أن يعني مثل هذا التصرف أيضاً منع هؤلاء من مزاولة العمل فيما بعد.

لقد كان الموقف أفضل بالنسبة للألمانية Fereshda Ludin والتي سمح لها بأداء الامتحان في شتوتجارت عام 1998 ، ولكنها لم تستطع أن تشغل وظيفتها بسبب ارتدائها لغطاء الرأس !

وهو كظيم^(١٧) أو من ينشأ في العلية وهو في الخصم غير مبين). ثم يحرم القرآن وأد البنات بكلمات غاية في القوة في سورة التكوير الآيتين ٩ و ٨ : «وإذا المروءة سُلِّمَتْ^(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِّلَتْ^(٩) ». وينطبق هذا على المولودة، وغير المولودة، أي الجنين في رحم أمه.

فإذا كان وأد الأنثى من الأمور الشائعة عند العرب قبل الإسلام لظروف الفقر وال الحاجة ، فإن عمليات القتل المنظمة للأجنة من الإناث قد شهد توسيعاً هائلاً ، خاصةً منذ أن استطاع الطب أن يحدد نوع الجنين بواسطة الموجات فوق الصوتية ، في دول مثل الصين ، وไตيوا ، وكوريا الجنوبيّة ، وباكستان ، والهند . و تستطيع أن تقرأ في العيادات الطبية التي تقوم بإجراء عمليات الإجهاض ، هذا الإعلان : «ادفع ٥٠٠ روبيه ووفر ٥٠٠ ، ٠٠٠ ». المبلغ الأخير يدفعه الأب ليجهز ابنته للزواج . ولقد أدى هذا الأمر إلى نقص حوالي ١٠٠ مليون أنثى في آسيا (هذا الرقم تقديرى) . أما في الصين فنسبة مواليد الذكور ١٠٠ بالنسبة لـ ٨٥ من الإناث^(٤) . وحتى إذا ما حالف الحظ هذه الأجنة من الإناث وسمح لهن بأن يرین النور ، فـ ٦٠ النساء معرضات منذ الأزل وفي أنحاء العالم كافة للاضطهاد وسوء المعاملة . ومن ينكر أن يكون هذا الأمر في الغرب ، فإنه يغفل ويغمض عينيه عاماً عن حقائق كثيرة . كل هذا الضطهاد والظلم وسوء المعاملة له أسباب مختلفة ، منها أسباب ذات طبيعة نفسية ، واجتماعية ، وثقافية ، وحضارية وكذلك اقتصادية . يقول محمد قطب : «لو اختفى الفقر عن مجتمعات الشرق ، لتم حل جزء كبير من مشكلات المرأة»^(٥) . ولكن من الخطأ ، وما يصيب الإسلام بالضرر ، أن يختبئ المسلم وراء هذه الحقيقة فقط .

فقاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨) أول المدافعين عن حقوق المرأة والداعين لأن تناول حقوقها بعد النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - يحدد السياق الناجع عنه هذا الضرر الواقع على المرأة بأنه موروث حضاري ، الدين بريء منه بقوله : «إنها الفرضي التي

(٤) Kausar ص ١٥٠ وص ١٥١ .

(٥) محمد قطب ص ١١٥ .

يدعى الناس أنها من الدين ويسمونها إسلام». لقد رأى قاسم أمين علاقة وثيقة بين تخلف المرأة وتخلف الأمة»^(٦).

أما حسن الترابي -أهم المدافعين عن الحقوق التي يكفلها الإسلام للمرأة في وقتنا هذا- فلقد رأى منذ ربع قرن مضى ضرورة قيام «ثورة ضد وضع المرأة في المجتمع الإسلامي التقليدي». لقد استأثر الرجال بتحريف القوانين والمبادئ وقاموا بوضع التشريعات الخاصة بالمرأة وغيرها. ولقد أدى هذا إلى ضياع الكثير من حقوق المرأة التي كفلها الإسلام، حتى إن البعض استخدم لتحقيق هذا، أي لتهميشه دور المرأة وسلبها حقوقها. الدين، والدين منه براء. «اضطهاد المرأة عيذ للأزمنة التي يضعف فيها إيمان الرجال»^(٧).

كان حسن الترابي يشير بهذا إلى ما أسماه Louis Gardet Climat de Jalouse^(٨) و Valorisation de la Virilité ، وأسميه أنا بشكل أقل أناقة ، طقس وثقافة الغيرة والرجولة عند العرب (يسميه البعض الآخر الأبوية السامية). ويظن المسلمون الأمريكيون -ذوو الأصول الشرقية وغيرها- أنه من الضروري أن يراجع الرجال المسلمون موقفهم من المرأة، فهم يهدفون إلى فصل الجوهر في الإسلام عن القشور، وتصحيح صورة الإسلام حتى لا يتزوج الناس منه ويعرضون عنه^(٩). يتحدث فتحي عثمان بصراحة في هذا الشأن: «لقد اعتدنا أن نؤمن بأن المرأة خلقت للأسرة وللقيام على شئونها ورعاية الأطفال فقط. ولكن ليس هناك سند واحد في القرآن والسنة يعصب هذا الرأي. فتقسيم العمل هذا إنما هو نتاج خبرة اجتماعية. ولكن هذه الخبرة ذات التاريخ الطويل والراسخة في أذهان الناس لا تعنى بالضرورة أننا نتعامل هنا مع أحد قوانين الطبيعة أو مع حكم من أحكام الله في الإسلام»^(١٠).

لقد عبرت بهذا عن ضرورة أن تغير بعض الأشياء بالنسبة للمرأة المسلمة، ولكن ليس هناك ما يجب أن يتغير (وجهة نظر الغرب) أو ما يمكن أن يتغير (وجهة نظر

(٦) قاسم أمين ص ٣٤ وص ٨٨.

(٧) الترابي (١٩٩١) ص ٤٣، ٣٨، ٣٥.

(٨) Gardet ص ٣٧٣.

(٩) Lang (١٩٩٧) ص ١١٦.

(١٠) عثمان - حقوق الإنسان (١٩٩٦) ص ١٥.

إسلامية) يتعارض مع القرآن والسنة. فالمسلمون المؤمنون لا يرغبون في تحديد الإسلام، ولكن أسلمة الحداثة⁽¹¹⁾ (Francois Burgat). فهم لا يهدفون إلى إجراء عملية إصلاح، ولكن إحياء⁽¹²⁾ بلا تقليد للغرب أو تقليد أعمى ومطلق للماضي⁽¹³⁾.

.٤٠

وحتى نبدأ، دعونا نرجع لأدم وحواء. لقد اتسمت صورة المرأة في الإسلام بالإيجابية، نظراً لأن القرآن لم يلصق بحواء صفة الغواية، مما كان له عظيم الأثر نفسياً في إضفاء صفة الإيجابية على المرأة. كما أن القرآن لا يذكر أنه عاقب حواء على غوايتها لأدم بأن كتب عليها عقوبة الحمل، أي حمل الجنين في رحمها. فالقرآن يصف الذنب الذي ارتكبه كل من آدم وحواء على أنه فعل مشترك أدى بأن ينزل كلاهما من الجنة إلى الأرض. كما أن القرآن لا يتضمن ما يشير إلى أن آدم خلق قبل حواء وأن الأخيرة خلقت من ضلع من ضلوعه. وتخالف هذه الصور تماماً عن الموروث اليهودي - المسيحي والذي يحمل المرأة ذنوبها شتى، مما أدى إلى أن تدان المرأة حتى تكاد تتساوى مع الشيطان في الفكر المسيحي بدءاً من بولس الرسول وحتى أواخر القرون الوسطى - حرق الساحرات أعظم الأدلة - وجنى أول العصر الحديث.

أما بالنسبة لموضوع الجنس، فنستطيع أن نقول إن الإسلام استطاع أن يحدد ويحافظ على موقف إيجابي وغير مضطرب من الجنس، وهذا يختلف تماماً عن المسيحية، دون أن نتطرق إلى تفصيلات هذا الموقف الذي يتأرجح ما بين الإلبريتانية والانفلات الجنسي. وتأكيداً لاحترام القرآن للمرأة، فإنه يذكر أمثلة ونماذج إيجابية كثيرة للمرأة مثل: ملكة سبا، أم موسى، زوجة فرعون، مريم وأمها.

(11) نقلأً عن Krämer ص ٤٩.

(12) الترابي (١٩٩٢) ص ١٥.

(13) جارودي: Charte de Séville ص ٢٤.

أما علاقة الزواج بين الرجل والمرأة، فيتم وصفها في القرآن. وفق المعايير الحديثة - بشكل إيجابي حتى وإن لم يكن الزواج عقداً مقدساً. ففي سورة الروم الآية ٢١ يقول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مُؤْدَةً وَرَحْمَةً﴾. وفي سورة البقرة الآية ١٨٧ عن الزوجات: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

ولا يدل هذا القول على علاقة تحكمها القرى، يكون أحد أطرافها متسداً للطرف الآخر. ولا يدل بأي شكل على سلطة رجالية. بل هي علاقة مشاركة يأخذ فيها كل طرف الآخر في حسيبه ويراعيه.

وبالفعل فالمؤمنون والمؤمنات مصدر فرحة بعضهم لبعض كما ورد في سورة التوبه الآية ٧١: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ﴾.

ولذلك، فليس مدعاه للدهشة، بل هو أمر مفروغ منه إلا تختلف المرأة المسلمة في وضعها الديني الروحي عن الرجل، فعليها الفروض كافة من صلاة وصيام وأداء الزكاة والحج. ويعبر القرآن عن هذا بشكل مؤثر ويليق بأن يخص كلاماً من الرجال والنساء بالذكر منفرداً، فترد في سورة الأحزاب الآية ٣٥:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَادِقِينَ وَالصَادِقَاتِ وَالصَابِرِينَ وَالصَابِرَاتِ وَالْخَاطِعِينَ وَالْخَاطِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَالِمِينَ وَالصَالِمَاتِ وَالْعَافِقِينَ فَرُوْجُهُمْ وَالْمَحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعْدَ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وتقول الآية ٩٧ من سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ لِلَّهِ حِيَاةً طَيِّبَةً وَلَنْجَزِيَنَّهُمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ولذلك، فإنني أستنكر نهي المرأة عن الذهاب لأداء الصلاة جماعة في المسجد^(*)، خاصة أن لصلاة الجماعة هذه وظيفة تربوية واجتماعية وسياسية.

(*) وقد جاء في السنة ما يزيد هذا؛ فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تمنعوا إماماء الله مساجد الله». البخاري [٩٠٠]، وأبو داود [٥٦٥ و ٥٦٦ و ٥٦٧].
وفي رواية ابن ماجه رقم [١٦]: «لا تمنعوا إماماء الله أن يصلين في المسجد».

فعدم ذهاب المرأة للصلوة في الجامع لا يتوافق مع ما كان يحدث في العقود الأولى للإسلام، حيث قامت امرأة بمراجعة عمر الخليفة الثاني بتلاوتها آيات من القرآن تعارض عمر في مطالبته بتخفيض مهور النساء^(*).

وينطبق ما سبق ذكره سالفاً عن وضع المرأة الديني على وضعها الذهني. فالاختلاف البيولوجي بين المرأة والرجل لا يعني أن أحدهما أكثر تقوى وورعاً أو أكثر ذكاءً من الآخر. حتى وإن أمكن إثبات وجود اختلافات بين الجنسين في التمتع ببعض المواهب أو طرق رد الفعل. فلو كان الأمر في حاجة إلى إثبات ذكاء المرأة لكانَت السيدة عائشة زوجة الرسول الشابة قد تمكنَت من الإتيان به. فقد قامت برواية الحديث الصحيح، بل وتصحِّح بعض الصحابة فيما رواه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وكانت حافظة للقرآن متمكنة في التفسير والفقه، كما قامت بدور سياسي بعد وفاة الرسول.

لقد قامت فاطمة مرنيس - هي إحدى المدافعتين عن حقوق المرأة الإسلامية بلا خلفية أو دراسة شرعية أو تاريخية - بجهودات مضنية لم يكللها النجاح لإثبات نجاح المرأة في التاريخ الإسلامي في تولي شئون الحكم. ولقد ساقَت أمثلة مثل الخيزران أم هارون الرشيد، ولكن هذه السيدة كانت تدير الأمور من الخريم. أما السلطانة شجرة الدر، فقد حكمت من القاهرة عام ١٢٥٠ لـ ١٢٣٦ - ١٢٤٠. وهذه النماذج إنما هي استثناء يثبت القاعدة^(١٤).

يعتقد معظم الرجال الشرقيين أن النساء أقل عقلانية، وتحكمهن العاطفة أكثر من الرجال. يمكننا مناقشة صحة الأمر لأمد طويل، ولكن يستمر اقتناع الرجال، هذه حقيقة واقعة.

يتجه النقد الغربي لوضع المرأة في الإسلام لمكونات أساسية في الشريعة، وهي:

(*) استدلت هذه المرأة بالآية رقم [٢٠] من سورة النساء، وهي قول الله تعالى: «وَإِنْ أَرَدْتُمْ إِسْتِبْدَالَ زَوْجَ مَكَانِ زَوْجٍ وَّهَاتِيْمَ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا إِنَّمَا يَأْخُذُونَ بِمَا بَهْتَانَّا وَإِنَّمَا مِنْنَا».

(١٤) مرنيس ص ٨٦ و ١٤٥ - ١٥٩.

١- تعدد الزوجات.

٢- وضع المرأة في الزواج.

٣- النصوص المتعلقة بزوج المرأة.

٤- حجاب المرأة والفصل بين الجنسين.

٥- سلطة الرجل المطلقة في طلاق زوجته من طرف واحد.

٦- انتقاص دور المرأة في مسائل الإرث والشهادة.

الاتهام بسماح الإسلام لتعدد الزوجات لا يجد له صدى سلبياً؛ لأنّه حتى وفقاً لرأي علماء الإسلام الغربيين فإن الاقتران بأمرأة واحدة، وهو الهدف الأصلي للقرآن، هو السائد في العالم الإسلامي^(١٥).

لقد قيد الإسلام الزواج من النساء بأربع نساء كحد أقصى في سورة النساء الآية ٢، ولكنه قيد هذا الزواج بشرط العدل في معاملتهن، فيرد في القرآن: ﴿وَإِنْ خِفْتُمُ الْأَنْقَسْطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوهُمَا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مُثْنَى وَثُلَاثَ وَرَبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمُ الْأَنْقَسْطُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلِكْتُمْ ذَلِكَ أَدْنَى الْأَنْقَسْطَةِ﴾.

ولكن يؤكد الله للرجال، وبخاصة الأزواج، أنهم لن يستطيعوا أبداً أن يعدلوا حتى لو أرادوا. الآية ١٢٩ من سورة النساء تقر ذلك: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلُّ الْمُؤْلِفِ فَتَذَرُّوهَا كَالْمُعْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا﴾. أفلًا يكفي كل هذا للترهيب والتحث على البعد عن تعدد الزوجات؟

ولكن يتفق الجميع بين فيهم المسلمون الليبراليون أن الآية ٢ من سورة النساء في غاية الأهمية، وليس من غير ذى نفع أو فائدة.

(١٥) Lang (١٩٩٥) يقول إن الزواج من امرأة واحدة هو الأفضل، انظر Lemni ص ٢٧.

ويرى محمد قطب أن الزواج من واحدة هو مبدأ أساسى ص ١٠٦. أما Gardet فيرى في هذا الزواج القاعدة ص ٣٧٢. أما Pinn فيرى أن القرآن يرفض في الأساس تعدد الزوجات ص ٧٢.

فبعد المخوب الكثيرة التي يتضاءل على أثرها أعداد الرجال، من الممكن أن تكون هذه الآية نعمة للمرأة التي فقدت زوجها وتعول أطفالاً، فيكون هذا الأمر نعمة لها ولأولادها.

وإنني أطالب الكتاب المسلمين من أمثال قاسم أمين أن يقرءوا الآية الثالثة، والتي لم ترد بهاءً من أولها، وأن يلحظوا أن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن الستامى؛ لأن بداية الآية تتضمن شرطاً موضوعياً آخر غير العدل لـ تعدد الزوجات^(١٦)، حتى إن هذا الشرط جعل بعض المسلمين مثل حمزة قيس يصل إلى نتيجة مفادها: أن الزواج الثاني أو تعدد الزوجات مسموح به فقط من الأرامل اللاتى يعلن أطفالاً^(١٧).

لم تكن الآية ٣ من سورة النساء تصريحًا حرًا بلا قيد لـ تعدد الزوجات أبداً، ولن تكون ما عرف بالحرم الذي يتم دائمًا التجديد فيمن يضم من النساء، حتى وإن أساء الكثير من المسلمين - خاصة فيما مضى - هذه الرخصة فأساءوا لها.

أما الاتقاد الثاني الموجه للإسلام والذي يندرج تحت وضع المرأة في علاقة الزواج، فيتجه إلى الآية ٢٢٨ من سورة البقرة والآية ٣٤ من سورة النساء، وهما الآياتان اللتان ظلتا حتى وقت ليس ببعيد يفسران على أنهما يقران وجود طرف أعلى في العلاقة الزوجية هو الرجل وأن المرأة تخضع بدور التابع، وبذلك تنتفي صفة المشاركة عن هذه العلاقة. فدعونا نرّسوها: تقول الآية ٢٢٨ من سورة البقرة: ﴿وَالْمُطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُونٍ وَلَا يَجْعَلُ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ لِي أَرْحَامَهُنَّ إِنْ كُنُّ بِهِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولَتِهِنَّ أَحْقَ بِرَدَهُنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرْجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

فتشتت الرجل بحق أن تكون له الكلمة الأخيرة في أمر الزواج هنا مرتبطة بوضع محدد، وهو أن يتضح حمل المرأة في شهور العدة الثلاثة، فهنا يكون للرجل الحق في أن يردد زوجته حتى لو لم تشا. إذا فحقه ليس مطلقاً، بل هو مرهون بطرف

(١٦) قاسم أمين ص ١١٣ يستشهد بالآية من القرآن.

(١٧) Kaid Afrique Magazine في Le Coran a l'Usage des Femmes رقم ١١٣ ١٩٩٤ باريس

معين؛ لأنَّهُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَتَحَمَّلُ تَبَعَّاتِ وَقَوْعَدِ الطَّلاقِ الْمَادِيَةِ وَتَضَعُفُ مَسْتَوِيَّتِهِ فِي حَالَةِ وِجُودِ طَفْلٍ.

إِذَا فَتَفَسِِّرَ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الرَّجُالَ أَفْضَلَ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ مُلْتُو مِنْحَازٍ وَغَيْرٌ مُوْضُوعٌ بِالْمَرْأَةِ.

أَمَّا الْآيَةُ ٣٤ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿الرَّجُالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَاتِنَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفَظَ اللَّهُ وَاللَّذِي تَخَافُونَ نُشَوِّهُنَّ فَعَظُوْهُنَّ وَاهْجَرُوْهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوْهُنَّ فَإِنْ أَطْعَنُكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهِ كَبِيرًا﴾.

لقد ثُمِّت ترجمة بِدَائِيَّةِ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى وَقْتٍ قَرِيبٍ، بِحِيثُ تَصُورَ عَلَاقَةُ الْمَرْأَةِ بِالرَّجُلِ كَأَنَّهَا عَلَاقَةُ التَّابِعِ بِسَيِّدِهِ أَوْ أَنَّ الرَّجُلَ أَعْلَى مِنَ الْمَرْأَةِ. وَلَقَدْ قَامَ مُتَرَجِّمُو الْقُرْآنِ مِنْ أَمْثَالِ Mirza Nasir Ahmad، Muhammed Ali، وَHamza Boubakeur، وَSadok Pesle/Tijani Mazigh، وَRudolf Paret، وَبِيَسْلِي/ تِيجَانِي باسْتِتَاجَ أَنَّ الْزَوْجَ هُوَ مِنْ يَمِلِكُ السُّلْطَةَ عَامَّةً فِي الْعَلَاقَةِ الْزَوْجِيَّةِ، وَتَوَافَقَ هَذَا الرَّأْيُ مَعَ الْمَفْهُومِ التَّقْلِيدِيِّ لِدُورِ الْزَوْجِ فِي الْعَلَاقَةِ الْزَوْجِيَّةِ^(١٨).

وَهَذِهِ الْآيَةُ ٣٤ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ يُمْكِنُ أَنْ تَفَهَّمَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، وَلَكِنْ لَا يُجُبُّ أَنْ تَفَهَّمَ وَتَفَسِِّرَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، فَمِنَ الْجَاهِزِ لِغَوِّيَا أَنْ تَفَهَّمَ بِدَائِيَّةِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الرَّجُالَ يَقْوِمُونَ عَلَى النِّسَاءِ أَيْ يَقْوِمُونَ عَلَى رِعَايَتِهِمْ، وَهَذَا أَدْقَ حَتَّى يَتَوَافَقُ مَعَ بَقِيَّةِ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ طَبِيعَةِ الْعَلَاقَةِ الْزَوْجِيَّةِ الَّتِي تَسْمَى بِالْمَشَارِكَةِ وَيُسَوِّدُهَا الْحُبُّ وَالْعَطْفُ وَالْمَوْدَةُ. وَمِنْ هَذَا الْمَنْطَلِقَ ظَهَرَتْ تَرْجِمَةُ أُخْرَى لِهَذِهِ الْآيَةِ هِيَ أَنَّ الرَّجُالَ مَسْتَوِيُّونَ عَنِ النِّسَاءِ... وَقَامَ كُلُّ مِنْ يُوسُفِ عَلَى Yusuf Ali، وَMuhammed Asad، وَJacques Berque، وَأَحْمَدْ قُونْ دَنْفَرْ

(١٨) لَقَدْ قَمَتْ فِي مَعَالِجَتِي لِتَرْجِمَةِ Max - Henning بِتَغْيِيرِ تَرْجِمَةِ الْآيَةِ ٤٣ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ إِلَى مَا مَعَنَاهُ أَنَّ الرَّجُالَ يَقْوِمُونَ عَلَى رِعَايَةِ النِّسَاءِ، بِدَلَالِ مِنَ الرَّجُالِ أَفْضَلَ مِنَ النِّسَاءِ. (Eugen Diederichs). مِيرِنْخ ١٩٩٩.

Adel Von Denffer Ahmad T.B Irving، وعادل خوري Münchnen بهذه الترجمة ونشرها في الطبعة الصادرة من دار نشر Khory (١٩) S.K. D-Bavaria.

وطبقاً لذلك، يتولى الأزواج مسؤولية رعاية زوجاتهم رعاية كاملة. ويترجم فتحي عثمان هذا بقوله: لابد أن يرعى الرجال النساء رعاية مالية ويتحملوا كل مسؤولية عنهن (٢٠). وينفي تماماً إمكانية تفسير هذه الآية على أنها تثبت أى تميز للرجال على النساء وأى أفضلية لهم عليهم (٢١).

وينطلق القرآن في حكمه هذا. كما يتبيّن من بقية الآية والنص. أن الرجال عادة أقوى جسمانياً من النساء، وأقوى مادياً من النساء. كما لا نستطيع أن نغفل عن حقيقة وهي أن المرأة المتوسطة ترى في شريكها المثالى صورة الرجل القوي، المسؤول الذي يعتمد عليه، مثل صورة الرجل التي تزين علبة سجائر مارلboro، والذي وصل سن المعاش الآن (٢٢).

أما جواز أن يضرب الرجل المرأة التي تعصاه، فإن هذا الأمر يؤدي إلى فقدان الحب والتفاهم اللذين تتضمنهما العلاقة الزوجية المشتركة. وفي الأحوال كافة، فإن المسلمين لم يفهموا. محتذين برسولهم. هذا الأمر على أنه سماح بالضرب الحقيقي، أو بجواز الإيذاء البدني. فهل يجوز أن تضرب المرأة وهي الأم التي قال فيها الرسول: «إن الجنة تحت قدميها»؟! (٢٣)

أما بالنسبة لأشكال الإيذاء البدني الذي ينthem الغرب الإسلام بممارسته، فهي عادة ختان النساء الفرعونية. وهذه العادة منتشرة في إفريقيا بما فيها مصر والسودان بين المسيحيين والمسلمين لأسف الشديد. وهذه العادة لا تستند إلى أى قاعدة إسلامية أو حكم شرعى ورد في القرآن أو السنة، كما أن القانون يجرم هذه العادة

(١٩) الطبعة الثانية ميونخ ١٩٩٨ مجلد (١) ص ٢٢٢ رأست فاطيما جرليم فريق الترجمة.

(٢٠) عثمان (١٩٩٧) ص ٨١٥.

(٢١) عثمان (Human Rights, 1996) ١٩٩٦ حقوق الإنسان ص ١٦.

(٢٢) Lang (١٩٩٥) ص ١٤٧ و ١٤٨ عن سورة النساء الآية ٤٣. انظر ص ١٥٣.

(٢٣) انظر التزوّي رقم ٢٧٦-٢٧٩.

في مصر^(٢٤). ولقد أيدت المحكمة العليا في مصر في بداية يناير عام ١٩٩٨ القانون الذي يحرم إجراء عمليات الختان للبنات مستندة إلى المعايير الإسلامية.

أما النصيب الأكبر من النقد الغربي، فينصب على تعاليم الرزى بالنسبة للمرأة وليس للنقطات التي سبق ذكرها؛ هذا الرزى الذي يتبع للمرأة أن تتحدى ويتحدث إليها الآخرون^(٢٥). يستتبع الغرب عداء الإسلام للمرأة من ارتدائها لغطاء الرأس، ويعدُّه اضطهاداً منظماً للمرأة الشرقية. والأمر أفحى من ذلك؛ لأن الغرب يَعُدُّ أي غطاء للرأس هجوماً شرساً على علمانيته، وعلى ما حصلت عليه المرأة من جرائمها من حقوق، كما يَعُدُّونه اتهاماً أخلاقياً.

ولا يكاد أحد في الغرب يصدق أن المرأة تضع هذا الغطاء بمحض إرادتها دون أن يجبرها أحد من أهلها. ولا يود الغربيون أن يستوعبوا بذلك من ملاحظتهم للأعداد المتزايدة من النساء الألمانيات والفرنسيات والإنجليزيات والأمريكيات اللاتي يعتنقن الإسلام.

ولا يعترف أحد منهم بأن غطاء الرأس يمكن أن يكون فعلاً تحريراً تحمى به المرأة مفاتنها في ظل عالم متکالب على الشهوات الجنسية، ولذلك فقد قالت امرأة بريطانية أسلمت - ضمن عشرة آلاف امرأة أخرى العام الماضي -: «تتمتع بالحقوق كافة، ولدينا كل شيء عند المدافعين بشراسة عن حقوق المرأة، ماعدا الشوادع من النساء وحق الإجهاض»^(٢٦). وفي هذا السياق يمثل غطاء الرأس موقفاً مضاداً لما هو سائد، وليس مجرد عودة للتقاليد^(٢٧)، ولذلك من الممكن أن تفهمه على أنه حفظ للكرامة النسائية.

(٢٤) لقد صرخ الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر أن مسألة ختان البنات ليست مسألة دينية، ولكنها مسألة طبية ويفصل فيها الطب والقانون (تصريح بجريدة FAZ تاريخ ١٢/١١/١٩٩٨).

لقد انتقدت موقفه هذا في حديث دار بيني وبينه في يونيو عام ١٩٩٧، لأن تصريحه هذا يعطي الانطباع بأن الشريعة ليس لها كلمة في مثل هذا الموضوع الشائك.

(٢٥) سورة النور، الآية ٦٠.

(٢٦) انظر Islamic Future رقم ٦٩ / العدد السنوى رقم ١٣ الرياض ١٩٩٧ ص ٢.

(٢٧) Pinn ص ٦٧ و ٦٩ تقلأً عن Holt ص ٦٥ يؤدى الرزى الإسلامي دوراً مهماً عند الفلسطينيات. أملاً في التحرر من إسرائيل - الملبس الإسلامي يتحجّن وقاراً ومعنى.

وما يزيد من عدم التفاهم في هذا الصدد، هو اقتناع الغرب بأن الأخلاقيات فيما يخص الجنس مثلها مثل كل القيم الأخرى، يجب أن تكون راسخة في داخل وجدان الإنسان.

ولا يختلف هذا عن الوضع في الإسلام، فقيمة أي عمل مرتبطة بالنية^(٢٨). ولذلك فالأخلاقيات الحميدة لا تفرض قهراً. ولكن الإسلام واقعى بحيث يعلم أن الظروف المواتية تصنع السارق، وأن ظروفًا خارجية مثل الخمر، والعرى، وانفراد الرجل بالمرأة، يمكن أن تؤدي إلى سلوك غير مرغوب فيه. وعكس هذا يؤدي إلى نقىض هذا السلوك أو على أقل تقدير يخفف منه. والإحصاءات التي تنشر تؤيد هذا الرأى. فماذا تقول هذه الإحصاءات: تجرى فتاة من كل عشر فتيات أمريكيات في السن من ١٥-١٩ عاماً سنوياً عملية إجهاض واحدة أو عملية ولادة. هناك نسبة تزيد على ١٥٪ من الأمريكيات اللاتي لم يبلغن ١٩ عاماً حملن مرة واحدة على الأقل^(٢٩). إننى على استعداد لأن أراهن على أن هذه الإحصاءات كانت ستختلف لو كان الزر الإسلامى أمراً شائعاً في الولايات الأمريكية. فالإسلام لا يتمتع - فقط - بذكاء فيما يخص الحياة، ولكنه يتم عن براجماتية شجاعة على رأى چيفري لانج.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما الملبس الذى يراه الإسلام شرعاً غير قابل للتغيير؟ هل ارتداء غطاء الرأس أمر واجب وضروري، أم توصية وفقاً للقرآن أو السنة أو كليهما؟ وألمى أن يظل صوب أعيتنا في هذه المناقشة أن الإسلام لا يهمه في مسألة الملبس - كغيرها من الأشياء - المظاهر الخارجية، ولكن ما يهمه هو جوهر الأمر. وهو هنا تنظيم الغريزة الجنسية وقصرها على العلاقة الزوجية، وتأمين هذه العلاقة. لذلك يتوجه أمر التعفف والبعد عن الشهوات إلى الجنسين.

من المتعارف عليه أنه من الممكن اشتئاه المرأة بالنظر، خاصة إذا أثارت مفاتنها مثل هذا الفعل، وهذا بالضبط هو ما ينهى القرآن عنه الجنسين كما ورد في سورة النور الآيتين ٣٠ و ٣١: ﴿فُلِّلِ الْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَنَ

(٢٨) البخاري مجلد ٨ رقم ٦٨٠ وكذلك مجلد ٩ رقم ٧٣ و ٨٥.

(٢٩) Kausar ص ١٥٥.

لهم إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ^{٢٠}). وهذا أمر للرجل أن يحفظ عورته^(٢٠) (من السرة حتى الركبة). وعلى المرأة أن تفعل المثل وإن شملت عورتها مساحات أكبر من تلك. وتقول الآية: **﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبَدِّلْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعْوَتَهُنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعْوَتَهُنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْرَاجَهُنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَاهُنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانَهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الْطَّفَلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهِرُوا عَلَى عُورَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَعْلَمَ مَا يُخْفِي مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوَبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنَاتُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^{٢١}). وهذا ما يخص المؤمنات من ملبس وسلوك. وهناك آية أخرى موجهة لنساء النبي والمؤمنات في سورة الأحزاب الآية ٥٩: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يَدِينِ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيَّهُنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَلَنَّ فَلَا يُؤْذِنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا^{٢٢}**). ولا توجد في القرآن نصوص أخرى تخص ملبس المرأة.**

أما بالنسبة لغطاء الرأس، فعليينا أن نحدد أو لا ببعض المفاهيم. فالخمار أى غطاء الرأس يتشابه مع أغطية الرأس التي يضعها بعض من نساء اليونان وبعض أجزاء إسبانيا للحماية من الشمس والأترة والرياح، وليس من منطلق ديني. ولذلك يقول محمد أسد في ترجمته الانجليزية: إنه يرى أن يغطي الخمار صدر المرأة^(٢٣). ومن ثم يعتقد محمد أسد أن ملبس المرأة يرتبط بما يصح أن يُنظر إليه، أى أن ما يتعدى المعالم الجنسية الظاهرة ويجب أن يُغطى، وهذا بدوره غير ثابت بالضرورة^(٢٤). ولكن، كما أرى، أستطيع أن أقول إن «أسدا» لم يلق من أحد تأييداً كبيراً لرأيه هذا، ما عدا فتحي عثمان ود. تيجانى هدام الإمام الجزائري للجامع الكبير في باريس، وحمزة قيض^(٢٥) وأصغر إنچنير. ويرى فتحي عثمان أن الآية ٣١ من سورة النور لم تضع شكلاً ثابتاً محدداً وجامداً للملابس المرأة، ولكن ثمودجا يجب

(٢٠) عورة: بمعنى ما يجب أن يستر. انظر Hans Wehr ص ١٣٩٢.

(٢١) أسد (The Message) الرسالة ١٩٨٠ هامش رقم ٣٨ عن الآية ٣١ من سورة النور ص ٥٣٨.

(٢٢) أسد: (٢١): هامش ٣٧ عن الآية ٣١ من سورة النور ص ٥٣٨.

(٢٣) Kaid (سبق ذكره) هامش ١٧ ص ٦٣.

تحقيقه وفقاً للظروف والعادات السائدة؛ لأن المفاسن التي يجب إخفاوها لم يتم ذكرها في تفصيلاتها، وهذه التفصيلات ما كانت لتصبح لوضع قانون دائم يصلح لكل الأزمنة^(٣٤).

لقد صرخ هدام بجريدة لوموند في ٢٤ من أكتوبر عام ١٩٨٩ بقوله: «يوصي الإسلام المرأة بأن تغطي مفاتنها. أما كيفية تحقيق ذلك، فيرجع إلى البيئة الاجتماعية المحيطة بها». ويقول إنچنير: «المعيار في هذا الشأن هو الطهارة والعفة. أما الطرق التي تؤدي إلى ذلك، فهي مرتبطة بالبيئة المحيطة. فلابد من التعرف، ولكن يمكن أن تُتَّخَذ سبلٌ عَدَة لتحقيق هذا الهدف».

أما رد فعل Jeffrey Lang على اقتراح أسد فيتضم بتوكى الخذر؛ لأنه يرى خطورة إمكانية محاولة الإسلام التأقلم مع المتطلبات الحضارية للمجتمعات المختلفة بدلاً من تغييرها. كما أنه لا يرى الحدود القصوى لمحاولة التأقلم المرنة هذه التي يقترحها أسد^(٣٥). أى ماذا بعد السماح بإظهار الشعر؟ ماذا سيحدث بالنسبة للأذرع والأرجل؟

فإذا ما تبعنا رأى كل من عثمان وأسد، فإننا بذلك نتجاهل السنة و موقفها المفسر للآية ٣١ من سورة النور، أو أننا نراها صالحة لزمانها فقط دون غيره. أما إذا لم نتفق مع رأيهما، فلابد من أن يحدد الإنسان موقفه مما جاء في السنة من أن الرسول أوضح بالإشارة لأسماء بنت أبي بكر ما يجب أن يظهر من المرأة المسلمة، وهو وجهها وكفافها وقدماتها. وهذه الرواية روتها عائشة ونقلها عنها أبو داود^(٣٦). ويجب أن تكون ملابسها ثقيلة فلا يرى ما تحتها، ويجب أن تكون فضفاضة وغير ملائمة لجسمها.

ولكن لن تنتهي هذه المناقشة؛ لأن الرسول صمت عنها ولم يوضح بكلامه هل هذا الحديث مبدأ وقاعدة يجب اتباعها، أم توصية يفضل الأخذ بها؟ ويفيل حسن الترابي إلى ترجيح الأمر الأخير، أى أنها توصية؛ لأن «هناك أوامر أخلاقية لما

(٣٤) عثمان (١٩٩٧) ص ٨٥٥ و ٨٥٧.

(٣٥) Lang (١٩٩٥) ص ١٧٢ وما يليها خاصة ص ١٧٥.

(٣٦) أبو داود، سنن حديث رقم ٤٠٩٢.

يجب أن تكون عليه ملابس الرجال والسيدات ولكنها ليست مادة أساسية في الشريعة^(٣٧).

أما بالنسبة للنقاب الذي يغطي الوجه، فليس له جذور إسلامية، ولكن استحداثه النبيلات في كل من بيزنطة وفارس ليتميّز عن بقية النساء ولا ظهار مكانتهن الاجتماعية. أما بالنسبة للإسلام، فهناك طبعاً من يأخذ به، ولكن ليس في الإسلام أي أمر أو تسويف له، ولا يمكن بأي حال أن تفسر آيات الحجاب على أنها تأمر بمحجب الوجه^(٣٨)، خاصة أن بدايات الإسلام لم تعرف مثل هذا الحجاب^(٣٩).

وآية الحجاب (الآية ٥٣) الواردّة في سورة الأحزاب تخص أمّهات المؤمنين دون سائر النساء، ولا تتساوى معهن أي سيدة، حتى من باب التقوى. ولقد كان الأمر بفصل الحجرات الخاصة بالرسول عن المكان العام، الذي يستقبل فيه الناس حتى يحفظ للبيوت حرمتها وللحياة الشخصية خصوصيتها^(٤٠). لذلك تم وضع حجاب، وأمرت أمّهات المؤمنين أن يكلّمهن المرأة من وراء حجاب (وَقُرْنَةٌ فِي بَيْوِنْكُنْ وَلَا تَبَرُّجْ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَئِيِّ..) [الأحزاب: ٣٣].

أما أن يتّخذ البعض من هذه الآيات ذريعة لتشحّذ المرأة تماماً من رأسها حتى قدّمها، فما هو إلا حرمان لها من حقوقها التي وردت في القرآن والشرع. ولذلك فحجاب الوجه أي النقاب أخذ في الانحسار حتى في المملكة العربية السعودية ولعله يختفي تماماً عن قريب. أعتقد أن النقاب يمكن أن يختفي أسرع مما يختفي هذا الفصل التعسفي بين الجنسين الذي تمارسه بعض الجماعات الإسلامية في الآونة

(٣٧) التراجم (١٩٩١) ص ٢٣ والتراجم (١٩٩٢) ص ٣٦.

(٣٨) التراجم (١٩٩١) ص ٢٦ والتراجم (١٩٩٢) ص ٣٦ / ١٩٩٧ Lang ص ١١٥ وعثمان (١٩٩٧) ص ٧٢٨، ٧٢٩. الوحيدة التي تطالب بالحجاب الكامل أي النقاب للمرأة هي المؤسسة المتشددة (WAMY) The Significance of the Hijab, Islamic ١٣ / ٦٩ Future الرياض ١٩٩٧ ص ٢.

(٣٩) Lang (١٩٩٥) ص ١٧٩.

(٤٠) هناك شرح واف للأسباب التاريخية لتزول آيات الحجاب عند البخاري في الحديث رقم ٦٣١٥ Lang (١٩٩٥)، وقد ذكر أن عائشة لم تر أنها تختلف الآية ٣٣ من سورة الأحزاب في خروجها لوقعة الجمل.

الأخيرة . ويقود حسن الترابي حملة ضاربة ضد هذا السلوك مؤكداً ومدللاً على مدى نشاط وإقدام النساء أيام الرسول وكيف كن صاحبات مبادرة . وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك لخديجة زوجة الرسول الأولى لمدة ٢٣ عاماً من ٥٩٦-٦١٩ م كانت صاحبة تجارة ، كما أنها هي التي بادرت برغبتها في الزواج منه . ولقد ذكرنا قبل ذلك النشاطات العامة التي مارستها زوجته عائشة . أما فاطمة بنت الخطاب أخت الخليفة الثاني عمر ، فقد اعتنقت الإسلام قبله دون الرجوع إليه ، كذلك فإن أول شهيد في الإسلام فهو سمية زوجة ياسر وأم عمار .

ومن المؤكد أن النساء المسلمات في بداية الحقبة الإسلامية كن يشاركن في كل التجمعات العامة وكل صلوات الجماعة للرسول في المدينة ، كما كن يشاركن في طقوس الحجج كافة وما زلن إلى يومنا هذا : أما الرسول فكثيراً ما كان يزور بعض النساء ويأخذ قيلولة في بيتهن^(٤١) . ويستنتج حسن الترابي مما سبق ذكره أن الإسلام لا يفرض عامة فصلاً بين الجنسين ، فيمكن لسيدة المنزل أن تستقبل ضيوف زوجها وتؤدي لهم واجب الضيافة وتحديث إليهم ، كما أنه لا يرى ضرراً من السلام بتصافح الأيدي بينهم خاصة في المناطق المعتادة على ذلك^(٤٢) . يرى حسن الترابي في مجمل ما يرى أن المرأة يقع عليها ظلم بين بسبب التفرقة والتمييز والعزلة التي تفرضها المجتمعات عليها^(٤٣) . إنه يرى تحرير المرأة الإسلامية شرطاً أساسياً للصحوة الإسلامية وليس مجرد ظاهرة مصاحبة لها .

لقد توصل Jeffrey Lang بعد دراسة مفصلة للأحاديث التي تدور حول العلاقة بين الجنسين إلى نتيجة مفادها أن هذا الفصل بين الجنسين والذي يمارس على نطاق واسع يتناقض ويعارض المبادئ الأساسية والخطوط العريضة التي أرساها الإسلام لتنظيم العلاقة بين الجنسين .

من المؤكد أن هذا الفصل التعسفي الذي تمارسه بعض العائلات المسلمة في الولايات المتحدة يدفع بعض الفتيات البالغات إلى الإحساس بشعور السجين في منزلها .

(٤١) الترابي (١٩٩١) ص ٢٤، ٢٥ مع ذكر أمثلة كثيرة .

(٤٢) الترابي (المصدر السابق) ص ٢٣، ٢٧ .

(٤٣) الترابي (المصدر السابق) ص ٤٠ .

والأمر ليس اختياراً بين تقسيمين إما فصل تعسفي، وإما اختلاط فاجر، ولكن من الضروري البحث عن طريق وسط^(٤٤).

ويتفق فتحى عثمان مع حسن الترابى بشأن تمنع المرأة بحقها كاملاً في ممارسة العمل وتقلد المناصب العامة، كما أن للنساء حق ممارسة العمل السياسى والمشاركة فى الانتخابات سواء بترشيح أنفسهن أو الإدلاء بأصواتهن، ولهن الحق فى أن يكن نائبات برلمانيات وزیرات وقاضيات، وعلى أزواجهن احترام حقوقهن فى ممارسة العمل، وعليهم- أى الأزواج- أن يقوموا بدور الشريك فى المنزل بالمشاركة بالأعمال المنزلية^(٤٥).

ونصل الآن إلى النقطة الأخيرة في هجوم الغرب على الإسلام من منطلق عدائه وظلمه للمرأة. وهذا الأمر هو وضع المرأة بالنسبة لقوانين الإرث والقوانين المدنية والأحوال الشخصية المتعلقة بالأمراء. وأول الانتقادات الموجهة هو حق الرجل في أن يطلق نفسه من زوجته من جانب واحد لمجرد القول بطلاقها دون اللجوء إلى قاض، وله الحق في ثلاثة طلقات كما ورد في الآيتين ٢٣٠ و٢٩٩ من سورة البقرة^(٤٦)، بينما يجب أن تلجأ المرأة إذا ما أرادت الخلع إلى المحكمة.

يدعو القرآن إلى أن يحتكم الطرفان إلى أحد أفراد العائلة قبل أن يقع الطلاق كما ورد في سورة النساء الآية ٣٥^(٤٧). فإذا نظرنا إلى نسبة حدوث الطلاق لا نجد ضرورة لكل هذه الإجراءات؛ لأن الزيجات المسلمة أكثر تماسكاً وصلابة من مثيلاتها الغربية في زماننا هذا.

بالرغم من التكلفة الباهظة لإجراءات الطلاق في الغرب، فإن معدلات الطلاق

(٤٤) Lang (١٩٩٥) ص ١٨١.

(٤٥) عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ١٧، ١٦، عثمان (١٩٩٧) ص ٧٢٨ وص ٧٢٩، الترابى (١٩٩٢) ص ٤٧، ٤٨.

(٤٦) قال الله تعالى: «الطلاق مرتان فلماكماك بمعرف أو تسرع بإحسان... * فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره».

(٤٧) قال الله تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلهما إن ي يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما».

في ازدياد دائم، فلقد وصلت حالات الطلاق في ألمانيا عام ١٩٩٧ إلى نسبة الثلث من الزيجات التي تمت بعد ست سنوات من الزواج.

هناك سبب جوهرى لاختلاف الإجراءات بين الإسلام والغرب في إجراءات الطلاق، ترجع إلى الموقف القانونى للإسلام من اقتسام الأموال. فلا يتم أصلًا عملية تحديد لاقتسام الأموال؛ لأن المرأة تحفظ بكل أموالها التي كانت لها أصلًا قبل الزواج، وتحفظ كذلك بكل ما حصلت عليه بوجوب هذا الزواج حتى من مهر وهدايا عرس وغير ذلك، بغض النظر عن مدة الزواج وقيمة المهر، كما تنص الآية ٢٢٩ من سورة البقرة^(*).

ولذلك فليس بالكثير إذا ما أرادت المرأة أن تطلق نفسها أن تذكر أسباب هذه الرغبة أمام المحكمة لأنها لا تخسر كثيراً مادياً بطلاقها، بينما وتكلف الزوج الكبير في حالة وقوع الطلاق. كما يتحقق للمرأة التي تحدد سلفاً في عقد زواجها الأسباب التي ستطالب بالطلاق من أجلها. وهناك اقتراحات (في بعض البلدان الإسلامية قانون يجبر اتباعه) بأن يتم طلاق الرجل للمرأة أمام محكمة مصاحبة لإجراءات قانونية للتوثيق وحتى يتم تجنب أي سوء استخدام⁽⁴⁶⁾.

والامر لا يختلف كثيراً إذا ما ناقشتنا وضع المرأة بالنسبة لقانون الميراث، فالمرأة ترث نصف ما يرثه أخوها كما ورد في الآية ١١ من سورة النساء^(**)، ولكن وضعها هذا أفضل؛ لأنها غير ملزمة بإنفاق ما ترثه على الأسرة، بينما يكون الأخ مسؤولاً عن الإنفاق على الأسرة بما فيها هذه الأخت التي ورثت نصف ما ورثه، فلها الاحتفاظ بكل نصيبها، وعلى أخيها أن ينفق عليها حتى يزوجها إن لم تكن متزوجة، وبالتالي تحفظ بنصيبها دائماً. كما يمكن للمورث أن يعطي من ثلث ميراثه لبناته فيضاف إلى حقهن⁽⁴⁷⁾.

(*) يقول الله تعالى: «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتتكم من شيئاً إلا أن يخافوا ألا يقيموا حدود الله».

(46) عثمان (١٩٩٧) ص ٨٢٣.

(**) يقول الله تعالى: «يورضيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين».

(47) لا يوجد سند إلا في السنة لتحديد حرية التصرف في المال بثلث الميراث (صحيح مسلم حديث رقم ٤٠٠٠، ٣٩٩١).

وأخيراً فهناك ما يُريكِ الرأس فعلاً عندما تُدبر معنى الآية ٢٨٢ الواردَة في سورة البقرة وهي قوله - تعالى -: «وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنَ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رِجَلَيْنِ فَرِجْلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ تَرْضُونَ مِنَ الشَّهِيدَاءِ أَنْ تَضْلِلَ إِحْدَاهُمَا فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» . ولقد سبقت تفسيرات عدَة على مِنْهَا مِنْ التَّارِيخِ لِتَوْضِيْحِ هَذَا الْأَمْرِ وَلَكِنْ لَمْ تُلْقِيْ قِبْلَةً^(٤٨) ، وَبِخَاصَّةِ تِلْكَ الَّتِي وَصَفَتِ الْمَرْأَةَ بِأَنَّهَا كَانَتْ عَاطِفَةً وَلَتُعَرَّضَهَا لِتَغْيِيرَاتِ بِيُولُوْجِيَّةِ مِثْلِ الدُّورَةِ الشَّهْرِيَّةِ وَالْحَمْلِ وَالْوَلَادَةِ وَسَنِّ اِنْقِطَاعِ الْعَطْمَثِ ، كَمَا لَوْ كَانَ الرَّجُلُ دَائِمًا فِي أَفْضَلِ صِحَّةٍ وَحَالٍ وَوَاعِ تَمَامًا وَلَا تَحْكُمُهُ نِزَوَاتٌ أَبْدًا .

أَمَّا حلُّ هَذَا الْمَلْغَزِ ، فَيُمْكِنُ فِي تَحْدِيدِ أَنَّ الْقُرْآنَ طَلَبَ فِي هَذَا الْمَوْقِعِ بِالذَّاتِ شَهَادَةَ امْرَأَتَيْنِ ، وَهُوَ يَخْصُّ أَمْرَأَيْنِ مَالِيَّا عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ ، بَيْنَمَا لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ فِي الْمَوْاقِعِ الشَّمَانِيَّةِ الْأُخْرَى الَّتِي يَتَحَدَّثُ فِيهَا عَنِ الشَّهَادَةِ^(٤٩) . فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فَعْلًا يَدُورُ حَوْلَ إِمْكَانِيَّةِ الْاعْتِمَادِ عَلَى قُوَّةِ مَلَاحِظَةِ الْمَرْأَةِ ، أَفْلَمْ يَكُنَّ الْقُرْآنَ لِيُطَلَّبَ شَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةِ الْحَدُودِ؟ وَلَكِنْ أَعْتَدَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ أَنَّ الْقُرْآنَ انْطَلَقَ مِنْ وَاقِعِ عَدَمِ مَعْرِفَةِ الْمَرْأَةِ فِي هَذَا الزَّمِنِ لِقَوْاعِدِ الْعُقُودِ الْمَالِيَّةِ وَعَدَمِ درَايَتِهَا وَخَبَرَتِهَا بِهَا؛ وَلَذِلِكَ فَإِنَّ الآيَةَ ٢٨٢ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ تَؤْدِي إِلَى حِمَايَةِ الْجَمَاعَةِ وَحِفْظِ حَقُوقِهَا . تَبْقَى قَدْرَةُ النِّسَاءِ مُسْتَقْبِلًا . بِفَضْلِ التَّعْلِيمِ . عَلَى الشَّهَادَةِ فِي الْمَعَامِلَاتِ الْمَالِيَّةِ . وَمَا يَنْفِي حَجَّةَ عَدَمِ مَلَاحِظَةِ الْمَرْأَةِ أَنَّ رِوَايَةَ الْأَحَادِيثِ وَجَامِعِيهَا مِنْ أَمْثَالِ الْبَخَارِيِّ وَمُسْلِمِ وَأَبِي دَاوُدِ وَالْتَّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهِ لَمْ يَتَرَدَّدُوا فِي قِبْلَةِ رِوَايَةِ رُوْتَهَا سِيَّدَةُ وَاحِدَةٍ مِثْلِ عَائِشَةَ^(٥٠) . بَلْ إِنَّ عَائِشَةَ رَدَتْ أَحَادِيثَ لِبَعْضِ رِجَالِ الصَّحَابَةِ ، وَصَحَّحَتْ لَهُمْ كَثِيرًا . وَلَذِلِكَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَتَفَقَّ مِنْ تَارِخِ الْبَالِ وَالضَّمِيرِ مَعَ رَأْيِ كُلِّ مَنْ فَتَحَى عَثْمَانَ وَJeffrey Lang^(٥١) بِأَنَّ شَهَادَةَ الْمَرْأَةِ تَعَادِلُ شَهَادَةَ الرَّجُلِ عَامَةً ، إِلَّا فِيمَا يَخْتَصُ بِالْمَعَامِلَاتِ الْمَالِيَّةِ ، خَاصَّةً إِذَا كَانَتِ الشَّاهِدَاتِ لَسْنُ ذَاتِ خَبَرَةٍ وَمَعْرِفَةٍ مُهْنِيَّةٍ بِالْأَمْرِ^(٥٢) .

(٤٨) Why two Women Witnesses?: Shamshad M. Khan,

Ta - Ha - Publishers; London, 1993 . لِمَذَا امْرَأَتَانِ مِنْ الشَّهُودِ؟ ص ٦ .

(٤٩) انْظُرْ ٤٥ Lang (١٩٩٥) ص ١٦٥ / ١٦٦ .

(٥٠) يَتَضَمَّنُ قِبَانِي Kabbani رِوَايَاتٍ تَرْوِيُّهَا نِسَاءٌ فَقَطْ .

(٥١) عَثْمَانَ (حَقُوقِ إِنْسَانٍ ١٩٩٦) ص ١٧ وَالْمَصْدُرُ ذَاهِهٌ ١٩٩٧ ص ٧٥٧ ، ٨٨٥ Lang (١٩٩٥) ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

في نهاية هذا الفصل، نستطيع أن نقول إن المسلمين يعتقدون بوجود اختلافات بين الجنسين في بعض الأمور، وأن الجنسين يتساوليان في بعض الأمور الأخرى.

فchora الإلسان الإسلامية تنطلق من اختلاف الخلق بين الجنسين^(٥٢) وضرورة هذا الاختلاف. ويرى المسلمون ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة فيما هما فيه متساويان فعلاً، والاختلاف حين يكونان مختلفين فعلاً.

ويرى حسن الترابي أن هذا في صالح المرأة، فحيث لا يرد في القرآن والسنة نصوص قاطعة، وحين لا يرتبط الأمر باختلاف بيولوجي واضح، فلا يوجد مبرر شرعي لممارسة التفرقة بين الرجل والمرأة^(٥٣).

إنني لا أرى إذن فروقاً جوهرية بين الشريعة الإسلامية والقوانين الغربية التي تحيز المعاملات المختلفة للرجل والمرأة في الأمور المرتبطة باختلاف الجنس، مثل الخدمة العسكرية وإجازة الحمل والوضع.

أما الاختلافات الأخرى، مثل تعدد الزوجات، وحق الطلاق، وقوانين الإرث، فلا تعنى الكثير للحياة اليومية التي يعيشها المسلم في الغرب، خاصة أن هؤلاء يتبعون القوانين الأوروبية وليس الإسلام. ولا يمكن بأي حال أن نتهم القانون الإسلامي بأنه ظالم لأنه يقترب، بل يتطابق مع الطبيعة البشرية بدون تسطيح لمفهوم الطبيعة.

أسوق هنا مقوله شاهد لا يرقى إليه الشك، هو الأب Michel Lelong علق على الآية ٤٨ من سورة المائدۃ بكتابه: «Si Dieu L'avait Voilu». لو كان الله قد شاء، يقول من خلال ملاحظته لحياة ونوعية حياة المرأة التونسية بالمقارنة مع المرأة الفرنسية: «إنني كثيراً ما ألتقي هنا (فرنسا) مع نساء محررات، ولكنهن يعانين من عبودية قد تكون أرقى ولكنها بلا شك ليست أقل خطراً. فهؤلاء النساء أسيرات ضغوط جديدة مثل الرفاهية، والأزياء، والدعائية، والحياة المهنية أو حتى

٥٢) Pinn ص ٧٤.

٥٣) الترابي (١٩٩١) ص ١١.

السيجارة». ويقارن Lelong هذا مع ماراقبه ولاحظه بنفسه طويلاً من «الحرية المدهشة التي تمارس بها المسلمات حياتها»^(٥٤).

ويبقى السؤال المهم: كيف للغرب أن يتصرف مع المرأة المسلمة التي تريد ممارسة دينها، مثل ارتداء غطاء الرأس؟ قاتونا، فإن هذا السؤال غير ذي أهمية؛ لأن الحرية الدينية مكفولة دولياً ودستورياً، فلا يحق لأى محكمة أو مؤسسة أن تدعى لنفسها الحق في تحديد حق المسلمة في ارتداء غطاء الرأس، أو أن تحدد لها إذا كان عليها حقاً أن ترتديه أو لا؛ لأن مجرد هذا التحديد وهذه المحاولة تعدّان خرقاً للحقوق الأساسية المكفولة دستورياً للفرد في حرية الدين ومارستها، فديانة الفرد يجب أن تختبر حتى وإن كانت ديانته الخاصة.

وكما سرر في فصل «إسلام صنع أمريكا»، فإن أمريكا قد استوعبت هذه الحقيقة، وسبقت أوروبا- فيما يخص الحرية الديمقراطيّة. فغطاء الرأس وارتداؤه ليست مسألة قانونية، إنما هي مسألة سياسية.

والسؤال المطروح هو: هل تنوى أوروبا القديمة أن تتحمل قبول دين جديد وانخلاف أتباع هذا الدين؟ هل هي على استعداد لهذا، أم أنها تستبعد الإسلام من استعدادها لإبداء التسامح الديني مع الديانات المختلفة وأتباعها؟
أولاً ينطبق الدستور على المسلم؟

* * *

لماذا محمد؟

شعار ١: لن يرجح هذا الدين قائماً... حتى تقوم الساعة.

(صحيح مسلم رقم [١٧٢/١٩٢٢]).

شعار ٢: لا تفضلوا بين أنبياء الله.

(البخاري رقم [٣٤١٤]، ومسلم [١٥٩/٢٣٧٣]).

١٠

لقد تعرضنا لثلاث عرائض اتهام يرفعها الغرب ضد الإسلام: حقوق الإنسان، والديمقراطية، ودور المرأة. حان الوقت الآن لمناقشة بعض الاحتتجاجات التي يقدمها العالم الإسلامي للغرب. بما أن الإسلام دين، والدين هو البعد الآخر لهذا العالم، فينبغي أن نبدأ بأمنيتين -لهمًا صبغة دينية- يتمناهما المسلمون. أولاهما: الاعتراف بمحمد، وثانيتهما: إسقاط صفة الألوهية عن المسيح. ويتبع ذلك موضوع ذو صبغة عملية، ألا وهي العنصرية.

١١

غالبًا ما لا تملك تفسيرًا لمشيئة الله. ولكن من الملائم أن يتتسائل، ليس المسيحيون وحدهم بل كذلك المسلمون، خاصة في موطن هيجل: لماذا سير الله تاريخ الدين كما حدث؟

يمكن للمسيحيين أن يتتساءلوا: لمَ كان ميلاد المسيح في الشرق الأدنى على

حدود الإمبراطورية الرومانية؟ ولماذا ولد المسيح يهودياً يتحدث الآرامية؟ ويطرح المسلمون أسئلة مشابهة: لماذا اختير محمد- صلى الله عليه وسلم- الأمي بالذات في بلاد العرب في القرن السابع الميلادي ليكون رسول الله حاملاً الرسالة والدين الخاتم بالعربية لينشرها في العالم كله؟

وكما أن مشيئة الله لا تفسير مضمون لدینا لها، فإن إجابات مثل هذه الأسئلة هي ذات طبيعة تأمليّة. ولكنّه ليس من قبيل الخروج عن الدين أن يجتهد المرء ليتوصل إلى إجابات، بل على النقيض، فإن الله يأمر. من خلال النصوص التي وردت في القرآن- المؤمنين بالتفكير والتأمل وإعمال العقل (القرآن هو النص المقدس الوحيد- بين الأديان الثلاثة- الذي يبحث على ذلك).

هناك مجموعة من الأسباب الوجيهة- من وجهة نظرى- للظروف التاريخية التي أحاطت ببعثة الرسول العربي محمد- صلى الله عليه وسلم.. فلنبدأ بالجغرافية: كانت بلاد العرب في القرن السابع الميلادي، تقع خارج منطقة نفوذ القوتين العظميين، الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية التي امتدت سلطتها حتى اليمن. لقد كان هناك صراع دائم بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية ذات الديانة المسيحية، وعلى رأسها الإمبراطور هيرقليوس الأول من ناحية، وبين الإمبراطورية الفارسية الساسانية التي يحكمها الشاه كسرى الثاني من ناحية أخرى، ولقد شهد عصر هذا الحاكم صعود نجم الديانة الفارسية الثانية حيث تضم الزرادشتية والمزدكية. (أزاحت هذه الديانة الساسانية وانتشرت في إيران والهند).

فإذا كان الرسول قد بعث بهذا الدين الجماعي الجديد- الإسلام- وهو الدين الذي يعادى نظام تلك الممالك والملوك، فكيف كانت تماح له الفرصة داخل هذه الإمبراطورية أو تلك؟

لم يكن هناك موقع جغرافي أفضل من شبه الجزيرة العربية، وبالذات في الحجاز، هذه المنطقة التي تخرج عن نطاق نفوذ الإمبراطوريات في ذلك الوقت، ليتمكن الإسلام من تكوين كيان أيديولوجي جديد قبل أن تتبعه إليه إحدى القوتين، ناهيك عن التفكير في التدخل والهجوم على هذا الكيان الوليد. فعندما أرسل الرسول- صلى الله عليه وسلم- عام 628 مبعوثين حاملين رسائله إلى حكام المناطق

الواقعة حول الحجاز، كان الوقت قد تأخر على مجرد التفكير في محاولة إجهاز هذا الكيان الجديد.

ولكن بالرغم من بُعد الحجاز عن متناول أيدي السلطتين العظميين، فإنه كان يتمتع من وجهة نظر أخرى بموقع چيواستراتيچي بالغ الأهمية، كما سينتضح فيما بعد عندما تنطلق الفتوحات منه إلى أنحاء العالم كافة، حيث يتمتع بموقع وسط يبعد عن المغرب وإنجلترا بالمقدار الذي يبعد به عن الهند والصين.

وهناك سبب معقول ومقبول منطقياً لتزول القرآن باللغة العربية. ففي هذا الزمن كانت اللغات المتداولة هي الرومانية واليونانية والفارسية والعبرية. وكانت هذه اللغات - وهي لغات الديانات السابقة - قد استنفدت في هذا السياق وباتت معزولة بأحكامها.

ولقد كانت الديانة الجديدة والرسالة التي تحملها والتي ستأتي بتحول برجماتي جديد إلى العالم، في حاجة إلى لغة عذرية على المستوى الديني والفلسفى، لغة لم تستنفد بعد، يأتي بها القرآن. وأهمية ذلك تتضح إذا ما نظرنا إلى ترجمات للقرآن يقوم بها مستشرقون حسنو النية، عندما يقحمون عليه مفردات تعبّر عن الفلسفية المسيحية الدينية والفلسفية.

كانت اللغة العربية التي تتحدث بها قبيلة قريش بمكة قد تطورت في القرن السابع الميلادي، حتى صارت لغة فصحى بلغة تصلح لأن تكون وسيلة ووعاء لغوريا للرسالة الجديدة. ولكن نتمكن من فهم هذا، لابد لنا من التعرف عن قرب على هذه اللغة الذهنية وفحصها بدقة أكثر. ولتكن سأسوق بعض الأمثلة الدالة: فاللغة العربية قادرة على التعبير زمنياً عن مقولات غير محددة. ومن الممكن كذلك أن تعبّر هذه اللغة بصيغة الماضي عن أشياء مستقبلية يقينية الواقع، كما لو أنها قد حدثت فعلاً.

وأخيراً يمكن أن تتحذ كل كلمة عربية ثمانية أشكال سواء تحقق معناها في الحقيقة أم لا. وهذا يتيح للغة أن تكون مهيئة لتفكير فلسفى تأملى وعلمى - فرضى.

ولقد كان توقيت الوحي القرآني ذا معنى عميق؛ لذا فقد بات واضحاً منذ القرن

ال السادس الميلادي أن المسيحيين واليهود المترافقين في جميع أنحاء العالم، عاجزون عن تصحيح التحريرات التي أطلقوا ببياناتهم، وبخاصة تصور شعب الله المختار عند اليهود، والطبيعة الإلهية للمسيح عند المسيحيين.

٤٠

ولقد ظهرت دراسات مسيحية جديدة تم تدوينها^(١). هناك فهم - يهودي - مسيحي لطبيعة المسيح ينطابق مع المفهوم الإسلامي. فلم يعُدْ هذا الفهم المسيح - الذي لم يطابق نفسه بالله أبداً ولم يستخدم صيغة «أنا» عندما كان يعني الله - إلا رسولاً يهودياً إصلاحياً مهما. وهذا يماثل ما جاء بالقرآن في الآية ٧٥ من سورة المائدة . . . (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرِيمٍ إِلَّا رَسُولٌ . . .) . ولم تعرف المسيحية الأولى فكرة الثالوث، أو حتى تلميحات عنها، حتى عند بولس الرسول المؤسس الحقيقي للمسيحية. وهذا القول ليس مثاراً للدهشة؛ لأن القول المؤسس لفكرة الثالوث في الرسالة الأولى ليوحنا (٧-٥) لم يظهر إلا عام ٣٨٠ م في إسبانيا وهي: «ثلاثة موجودون هم شهود في السماء: الأب والكلمة والروح القدس وهو لاءُ الثلاث هم واحد».

ولقد تمكن الباحثون منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، من إثبات أن هذه الآية (بالإضافة إلى الإصلاح الذي يتحدث عن الزانية في إنجيل يوحنا) تعد من حالات التزوير البينة الواضحة والمهمة جداً في العهد الجديد^(٢). وإنك لتجد على سبيل المثال في الطبعة الكاثوليكية للعهد الجديد التي أحتفظ بها (صرح بطبعها أسقف مدينة روتينبورج Rottenburg عام ١٩٤٠) هذه الفقرة موضع الخلاف في الرسالة الأولى ليوحنا وهي بين قوسين معقوفين، وإشارة في الهاامش تقول: «هذه الفقرة موضوعها ومضمونها صحيح ولكنها إضافة وتكلمة متأخرة».

(١) انظر Lüdemann (١٩٩٥) و Deschner . هناك هوامش كثيرة حول مناقشة المسيحية بتفاصيل أدق في الفصل القادم .

(٢) منذ ذلك الوقت يبدأ الإصلاح الثامن من إنجيل يوحنا في بعضطبعات الإنجيلية للعهد الجديد بدءاً بالآية ١٢ .

ولقد كان غالبية الأساقفة في الغرب المسيحي وكذلك في الشرق المسيحي حتى القرن الرابع ، متفقين مع رأي القسيس السكندرى آريوس Arius (٣٣٦-٢٦٠) القائل بأن المسيح مخلوق مباشر من الله (ولذلك فهو عيّز على سائر البشر) ، ولكنه ليس الله كما أنه لا يتمتع بحياة أبدية . وكان في هذا الوقت - أي قبل القرن الرابع - كل من يعتقد بالإيمان الذي أقره مجتمع نيقية فيما بعد ، يجازف بأن تلصق به تهمة التجديف .

ومنذ القرن الرابع الميلادى ، أصبحت مناقشة طبيعة المسيح باحتمالاتها الأربع من الأمور الشهيرة في كل من القدسية والإسكندرية ، وهذه الاحتمالات الأربع هي :

- المسيح ذو طبيعة واحدة : إله فقط : هذا الفكر الذي يعتقد ويمثله إلى الآن القبط والأرمن .

- إنسان فقط : هذا الفكر يعتقد المسيحيون اليهود والأريسيون (نسبة إلى آريوس الذي قال بأدمية المسيح) ، وهم الموحدون .

- ذو طبيعتين منفصلتين : إله وإنسان . الفكر الذي يقول بالطبيعتين والذي يعتقد جماعة النستوريانين Nestorians .

- ذو طبيعتين مختلطتين : إله وإنسان . الفكر الأورثوذوكسي الذي ثبّت أركانه منذ القرنين الرابع والخامس الميلاديين .

وتكتسب الفكرتان الأولى والثانية أهمية في التاريخ الفكري ؛ لأن لهما امتدادا في الإسلام وفي النقد الموجه لصورة المسيح المعاصرة . لقد تطورت الأورثوذوكسية المسيحية من خلال خلافها مع فكر آريوس الذي يقول : إن الحديث عن كون المسيح ابن الله ، لا يكون إلا بشكل مجازي .

ولقد كان المجمع الأول الذي عقد في نيقية في الفترة من ١٩ يونيو حتى ٢٥ أغسطس عام ٣٢٥ م علما فارقا في تطور المسيحية ؛ لأنّه عارض تماماً فكرة آريوس عن المسيح ، وأقر أنّ المسيح من جوهر الأب ، وأنه ولد ولم يُخلق ، وأنه يتساوى في الجوهر والكيان مع الإله الأب .

لم يمنع هذا من انتشار الأرثوذكسية في الفترة من ٣٣٧-٣٦١، حتى صارت الفكر الرسمي لبيزنطة، والفكر المسيطر لقرون عديدة على مسيحية الشعوب الגרמנية. ولكن بعد ذلك اكتسب الفكر الذي أقره مجمع نيقية قوة كبيرة، وتوطد منذ عام ٤٥١ بسبب انعقاد المجمع الكنسي الرابع في إسكندر. في هذه المرة أدانت الكنيسة الفكر القائل بطبيعة واحدة للمسيح (رقم ١) القائل بأن المسيح إله فقط (بجسده يبدو في صورة آدمية)، وعارضت هذا الرأي وقالت بنقضه وهو فرضية وجود التحداد بين المسيح والله، والاثنين في المسيح «غير مختلط وغير منفصل». وهذه المقوله التي تبدو متناقضة، ظلت إلى يومنا هذا الدين الرسمي المعترف به كاثوليكيا.

وفي هذه الأثناء، ظهرت - بتأثيرات من فكرة الثالوث في الميولوجيا المصرية والأفلاطونية السكندرية الجديدة - ظهرت فكرة الثالوث، وأضيف إلى الآب والابن الروح القدس.

وبتأثير من موضة لاهوت الروح، كان المجمع الثاني في القدس طبيعة قد شخص فكرة «الكلمة» (Logos) في عام ٣٨١، وبهذا تسللت تصورات هلينية إلى المسيحية، واكتسبت من خلال ترسيخها لفكرة الثالوث موقعاً مسيطراً.

أما وضع الشخص الإلهي الثالث في العهد الجديد، فلا يمثل أي صعوبة، فكل ما ينبغي تغييره هو فهم كلمة الله بوصفها روح الله، على أنها الروح القدس.

لقد كان للمجمع الكنسي الأول في نيقية - كما نعلم اليوم - أهم المجمعات على الإطلاق حتى المجمع ٢٢، الذي عقد في الاتيكان القرن الماضي. ولكن ذلك للمجمع البالغ الأهمية، لم يدع لعقده البابا أو أسقف روما، ولكن دعا لعقده شخص وثني غير معمد ولا علم له باللاهوت، هو القيصر قسطنطين الكبير. ولم يتم هذا المجمع في كاتدرائية نيقية، ولكن في مقر الإمبراطور الصيفي، ولم يرأس هذا المجمع أحد من رجال الدين الحاضرين. كما أن الإمبراطور هو الذي قدم اقتراح الصيغة القائلة بأن جوهر الله هو جوهر المسيح، وأنهما متماثلان. وهذا الاقتراح لم يصدر عن اهتمام ديني، ولكن رغبة منه في بعض الاتفاق الديني الداخلي بعد سنوات طويلة من الخلافات الدينية الحادة. ولقد رأى القيصر أن صيغة (المسيح = الله) صيغة مناسبة لحل الخلافات، ولم يفكر في كونها

محرفة، فالإباطرة الرومان كانوا كثيراً ما يحبون وضع أنفسهم في مرتبة مساوية للآلهة.

لاتبعد المسافة كثيراً من إستنبول حتى نقيه (إسمها الحالى إزنك). وكلما ذهبت هناك، أصابتني رعدة في البدن بالتفكير في نتائج ما وقع في هذا المكان عام ٣٢٥. فلم تتم مناقشة الأمر في هذا المجمع بصراحة، ولكن تم فرض الرأى الإمبراطورى، وبذلك أصبح عندنا أمر إمبراطورى نتيجة لوجود خلافات وصراعات قوى، وليس رأياً مبنياً على تفسير النصوص المقدسة.

بعد ذلك تم القضاء تماماً على الكتابات التي تعارض هذا الرأى، كما تم إلغاء نكر الأريسين والمسيحيين اليهود من ذاكرة الناس تماماً. وتم قطع أواصر الصلة تماماً بين المسيحية واليهودية. وبناءً على رفض بولس إجراء عملية الطهارة لمن يعتقد المسيحية، قامت قطبيعة لاهوتية مع فكر التوحيد السامي.

لقد تم الإعلان عن الله! ولكن كذلك أصبح وجود الكنيسة المقدسة واضحاً ويسيراً. وأخذ المسيحيون ينظرون إلى اليهودية على أنها مجرد تمجيد للمسيحية، وعد اليهود المسيحية بدعة وزندة ومروراً عن اليهودية. ولم يرد في الفكر المسيحي بعد ذلك لقرون طويلة محاولة لتصحيح ما جاء في إزنك عن طريق مراجعة المسيحية والفكر المسيحي لنفسه. بالعكس، أصبح هذا الفكر المسيحي المتطرف مطالباً بحماية نفسه ضد فكر أكثر تطرفاً.

ولذلك كان لا بد أن تأتى إرهاصات إعادة إحياء الفكر التوحيدى الإبراهيمى من خارج هذه المعارك من بلاد العرب، على يد رسول عربى يعيد دين إبراهيم وموسى وعيسى، يعيد دين الله كما أراد له وكما يبغى له.

هذا يفسر مكان وزمان ومضمون الرسالة التي بعث بها محمد، والتي ورد في القرآن عنها في سورة الأحقاف الآية ٩: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَا مِنَ الرَّوْسُلِ﴾. لقد كان محمد آخر الرسل، هدف رسالته كان إعادة الوحدانية النقية، الإيمان بالله الواحد دين إبراهيم، الدين القيم. هذا الدين الذى يتطابق مع الفطرة الإنسانية، ولذلك فقد كان محمد يعلم المسلمين بناء على ما ورد في القرآن:

- الله واحد ليس كمثله شيء.

- يرعى العالم.

- يمكن التعرف عليه من خلال الرسالات والكتب السماوية.

- واجب الإنسان أن يسلم نفسه لله ويطيع أوامره.

- أن هناك بعثاً بعد الموت، وأن الآخرة حق، وعندها يحاسب البشر ويجزون على أعمالهم.

فالإسلام يرفض رفضاً تاماً وغير قابل للمساومة أو للحلول الوسط، فكرة الثالوث المقدس والتجسيد. لقد ارتكزت محاولة الإسلام في القرن السابع الميلادي لتصحيح المسيحية التي توطدت أركانها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، بأن وضع المسيحية المستقاة من القرآن في مقابلها، وصور القرآن المسيح كما يلى:

- إن المسيح خلق مثله مثل آدم. والأيات الدالة على ذلك تجدها في سورة آل عمران الآية ٤٧: ﴿ قَالَتْ رَبَّ أُنْيَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسِنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾. وكذلك الآية ٥٩: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾. وكذلك في سورة المؤمنون الآية ٩١: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعْلَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾. وكذلك في سورة الإخلاص الآية ٣: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ﴾.

- جاء المسيح بولادة إعجازية من مريم العذراء، كما ورد في سورة آل عمران الآية ٤٧:

- جاء المسيح ليؤكد ما سبقه من دين ويعمل على إصلاحه، كما ورد في سورة آل عمران الآية ٥٠: ﴿ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التُّورَاةِ وَلَا حَلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ ﴾.

- وهو رسول أتى بمعجزات، كما ورد في سورة المائدة الآية ١١٠: ﴿ إِذَا قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ بْنَ مَرِيمٍ اذْكُرْ نَعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالَّذِي تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي

المَهْدِ رَكَهْلًا وَإِذْ عَلِمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَةَ وَالْتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلِ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطَّينِ كَهْيَةً
الْطَّيْرَ بِإِذْنِي فَتَفْخُّعُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبَرِّئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرُجُ الْمَوْتَىَ
بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنَى إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جَتَّهُمْ بِالْبَيْنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُّبِينٌ^(٢).

ومثله في ذلك مثل مجموعة أخرى من الرسل، كما جاء ذكر ذلك في الآية ١٣٦ من سورة البقرة، والأية ٨٤ من سورة آل عمران، والأية ٨٥ من سورة الأنعام.

ليس شخصاً إليها في ثالوث، وجاء هذا في الآية ١٧١ من سورة النساء، والأية ٧٢ و٧٣ من سورة المائدة، وكذلك الآية ٣٠ من سورة التوبة، والأية ٣٥ من سورة مريم.

- المسيح عبد الله ورسوله وليس ابنه.

- لم يلق حتفه صليباً، وجاء ذلك في الآيتين ١٥٧ و١٥٨ من سورة النساء.

تبين مما سبق أن المسلمين يدافعون عن المسيحية الأولى، مسيحية اليهود، فيما عدا النقطتين الأخيرتين.

أما فيما يخص هاتين النقطتين موضع الخلاف، فإن أي مسلم لا يردد سورة أكثر من ترديده لسورة الإخلاص. هذا إذا ما استثنينا سورة الفاتحة. والتي استناداً إلى كلام الرسول تعادل ثلث القرآن^(٣). وهذه السورة رفض موضوعي وقاطع لما أقره مجتمع إازنك الكنسي.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

ولقد أيقن الكثير من المسيحيين في العقدين الأخيرين من هذا الزمن خطأ مقوله أن المسيح ابن الله، وأن هذه المقوله كما جاءت في القرآن من الفظائع كما ورد في سورة الكهف الآية ٤: ﴿وَيَنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

وكما ورد في سورة مريم الآيتين ٨٨ و٨٩ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ⑧٨٨﴾ لقد جتّهم شيئاً إلّا^(٤) ولقد صاغ الفيلسوف Søren Kierkegaard هذا الأمر بحدّة لا يضاهيه فيها

^(٢) البخاري جزء ٦ رقم ٥٣٤، ٥٣٣ / جزء ٨ رقم ٦٣٨ / جزء ٩ رقم ٦٣٨، مسلم رقم ١٧٦٩ - ١٧٧٣.

أحد عندما قال: «إن المأساة الأساسية للمسيحية هي الدين المسيحي نفسه، أي وعظ الناس بفكرة رب-الإنسان». لأنه بهذا يتم حذف الفارق النوعي لطبيعة الأشياء بين الإنسان والإله. ولقد ملك هذا الفيلسوف الداغاركي من الشجاعة ما جعله يقول: «إن فكرة الإله-الإنسان هذه جعلت المسيحية في غاية الوقاحة، فهي تخاطب الإله بآمنت (أي بلا صيغة احترام) كما لو كان أحد الأقارب»^(٤).

ما سبق ذكره عن مساواة المسيح بالله نقوله كذلك على الرفض القرآني لفكرة التثليث: فسورة النساء تقول في آيتها ١٧١: «يَأَهْلُ الْكِتَابَ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَيْهِ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ قَامَتْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ اتَّهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

يندهش المسلمون من المعرفة الواسعة والغزيرة بطبيعة الله ونشاطه التي يدعىها المسيحيون، خاصة أنهم يحاولون حجب فكرة التثليث عن أي محاولة تفسير عقلانية لأنها سر وإعجاز.

وهذه الدهشة مسُوَّغة، خاصة إذا استمعوا إلى تفسيرات مثل: إن كلا من الشخصيات الثلاث الإلهية المجمعة في الثالوث، تقوم بما يجب عليها، بينما كل فعل الله خارج هذه الإلهية المثلثة هو فعل جماعي للشخصيات الثلاث الإلهية^(٥). والأمر نفسه يحدث عندما تحدث عن التركيب الآتي: «ليس هناك ماهية للتثليث ولكن هناك تثليث».

أما سر العلاقة الشخصية المداخلة بين الأب والابن والروح القدس، فيظل دائمًا وكمالًا في الله ذاته. أما أفعال الله الخارجية فتنتطلق من الشخصيات الثلاث مثل الانطلاق من مبدأ واحد^(٦).

وتمثل آراء الكاردينال Nicolaus von Kues (المتوفى عام ١٤٦٤) صوتًا منفردًا في

(٤) Kierkegaard ص ٦٠ / ١٥٩.

(٥) Kirste Ulrich Schoen في Kirste Ulrich Schoen ص ٢٧.

(٦) Bormans ص ١١١. لا يود المرء أن يقول له كما قال ل Schoen «لتيك صمت!».

المناقشات التي دارت حول التشليث، عندما دعا إلى ضرورة مراجعة التفكير في هذا الأمر. في كلمات صاغها Kurt Flasch «الطريقة الذكية لتكون إلهًا» لأن كوزانوس يقرر بسهولة ويسر: «لابد أن يكون الله ثلاثة إذا ما كان هو المبدأ الذكي للعالم إذا كان يعلم نفسه وإذا كان هو الحب»⁽⁷⁾.

أما بالنسبة للنقطة الثانية، أي الصلب، فلم تكتسب أهميتها إلا من خلال بولس الرسول، وذلك على أساس نظرياته القائلة بارث الخطية وضرورة الخلاص والموت للمخلص، وكلها تصورات لا يمكن جمعها أو أن تقترب من صورة الإله في الإسلام.

فالإسلام يعلمنا قبل أن يقوم Jürgen Moltman بإصدار كتابه «الرب المصلوب» عن مسألة الصليب هذه بتلك الآيات من سورة النساء (الآيات ١٥٧-١٥٨).

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا مُسَيْحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكُنْ شَهَدُوهُ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِّنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيْنًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. إذا ما قرأنا هاتين الآيتين قراءةً متعمنةً ومتأنيةً مدققين في الكلمات، لتبيننا ضمير الغائب للجمع أي «هم» الذي يظهر في قتلوا (٥) وصلبو (٥)، وهذا يعني أن الله الأَمْر بالحياة والموت هو من جعل المسيح يموت وليس اليهود. وتقول هذه الآيات إن المسيح لم يمت مصلوبًا ولكن مات فيما بعد. وما يؤيد هذا العرض القرآني لمسألة الصليب و يجعلنا نصدقه، أن الأنجليل الأربع تختلف في مسألة الصليب بشكل لا يجعلنا نصدق أيًا منها أو ننفِّق بأحدتها. أما أن المسيح لم يوثق في الصليب بل سمر، فهذا الرواية عرفت أول ما عرفت في القرن الثالث الميلادي، خاصة من خلال Tertullian (١٦٠ - ٢٢٠) ترتوilian، ولكن ليس على أساس نص وارد في الأنجليل، بل على الآيات ١٧ - ١٩ التي وردت في المزمار ٢٢: «ثَقَبُوا يَدِي وَرِجْلِي. صَرَتْ لَهُزَالِي أَحْصَى عَظَامِي... يَتَقَاسِمُونْ ثِيَابِي... وَعَلَى لِبَاسِي يَلْقَوْنَ قَرْعَةً».

Klostermann, Nicolaus von Kues, Kurt Flasch; (v)

فرانكفورت 1998 نقلأ عن FAZ في Martina Bretz - يوم ٣/١١/1998 ص ٢٤.

وفي هذه اللحظة الزمنية لم تكن حكاية «توماس غير المؤمن» قد أضيفت إلى العهد الجديد.

ويطبيعة الأمر لم يكن ترتوlian ليعلم بوجود الكفن الذي يصور عملية الصليب. ولقد ثبت أن هذا الكفن قطعة مزورة من القرن 13 أو 14^(٨)، كما تعرف الكنيسة الكاثوليكية منذ عام 1988.

إذن يمكننا أن نقول إن الصليب وعليه المسيح والقى تشحذ خبالنا ما هي إلا تخيل، خاصة أن هذه الصليب لا تتطابق مع الصليب الذى كانت شائعة في عهد المسيح.

ويكتفى بطبيعة الحال أن أتفق مع Paul Schwarzenau الذي ذكر أن القرآن احتاج على المفهوم المسيحي للصلب^(٩). وذلك في كتابه «علم القرآن للمسيحيين».

لقد استطاع بولس الرسول أن يحول الفشل الذي ذاقته جماعة المسيحيين الأوائل إلى عملية إنقاذ وخلاص، وجعل من الصليب رمزاً لها. وبذلك وضع الصليب في مركز الإنجيل المفروض، والذي يعظ به وليس المكتوب، حتى صار الصليب علاماً للانتصار المسيحية. ولقد أدت نظرية الخلاص هذه إلى إحداث فرقاً عظيمة؛ لأن كلام اليهود والمسلمين عَدُوها تجديفاً، فأى رب هذا الذي يواجه تطوراً خاطئاً بولادة ابن له، ثم التضحية القاسية المهينة بهذا الابن؟!

ولقد ظلل المسلمون متمسكين طيلة القرون بما ورد في القرآن عن المسيحية ونبيها عيسى، حتى أولئك المحدثين المسلمين و«المسلمين بالليلاد» بدءاً من على عبد الرزاق ومعمر القذافي ومحمد سعيد العشماوى وصولاً إلى فرج فوده ومحمد أركون وبسام طيبى، لا يمسون شيئاً واحداً: التصحیح القرآنى لصورة المسيح التي وردت لاحقاً في وقت لاحق ومتاخر، وليس في بدايات المسيحية.

* * *

(٨) بناءً على طريقة الإشعاع الكربوني، فإن الكفن يعود إلى الفترة ما بين ١٢٦٠ - ١٣٩٠ (FAZ تاريخ ١٤/١٠/١٩٨٨).

(٩) Schwarzenau (١٩٨٢) ص ١١٠.

ومجمل القول: إن المسلمين والمسيحيين يشكون اليوم معاً - من أن الغرب يعاني منذ ما يزيد على ١٥٠ عاماً من الإلحاد، والاغتراب عن الكنيسة واللاماورية، وكذلك الهروب إلى ديانات خاصة غير مفهومة ومتقوقة على نفسها من فلسفة حب الإنسان إلى الديانات التي تقدس الربات والديانات ذات الصبغة النسائية والبوذية؛ لأن المسيحيين والمسلمين في قارب واحد في خضم هذا البحر الهائل المعاصر من العداء للدين والشديد المادي.

ولكن هل من الواضح للمسيحيين أن هذا التطور السلبي في العصر الحديث شديد الصلة بما حدث في إزنك؟ وأن الوضع اليوم ما هو إلا نتيجة متأخرة لما ألم بال المسيحية في إزنك؟ وقد كتب محمد أسد - أبرز المسلمين الأوروبيين في القرن العشرين في كتابه الصغير الهام «الإسلام في مفترق الطرق» عام ١٩٣٤: إن أهم العوامل الفكرية التي تعوق التجديد والإحياء الديني في أوروبا، هو الرؤية المعاصرة لطبيعة المسيح على أنه ابن الرب. فالمفكرون الأوروبيون ينفرون غريزياً من صورة الإله التي تروجها تعاليم الكنيسة. ولكن هذا هو التصور الوحيد المأثور لهم، ولذلك بدءوا برفض وإنكار صورة الرب ومعها كافة الديانات^(١٠). فهل إزنك هي جذر الإلحاد؟

وبالنظر إلى المرأة والتواترات التي حكمت تاريخ العلاقات المسيحية - الإسلامية، وعدم إمكانية توحيد آرائهم حول المسيحية، فقد تم إعلان الكنيسة الكاثوليكية عن تخليها عن عد الإسلام عدواً لها في المجمع الفاتيكانى الثانى عام ١٩٦٤، وتم تكوين لجنة بابوية لشئون العلاقات مع الديانات غير المسيحية، وضمت هذه اللجنة رجال دين على دراية واسعة وعلم غزير بالإسلام، وربكرون له بعض الإعجاب. وفي ٢٨/١٠/١٩٨٥ أصدر البابا بول السادس المنشور البابوى الذى حمل عنوان «Nostra Aetate»، وقد جاء في هذا المنشور أن الكنيسة تحترم المسلمين الذين يعبدون الله الحى، الخالد، الرحيم، القوى، خالق السموات والأرض».

(١٠) أسد: الإسلام في مفترق الطرق ص ٥٢، ٥١ - Islam at the Crossroads

ولقد طالبت هذه الوثيقة المسلمين والمسيحيين بنسیان عداوات الماضي . وعليهم - أى المسلمين والمسيحيين - أن «يجتهدوا للتوصل إلى تفاهم وفهم متبادل» ، وأن «يعملوا سوية لحماية السلام وإقرار العدالة الاجتماعية ومن ثم حماية الأخلاق وسلام وحرية البشر كافة»⁽¹¹⁾ .

وفي ظل هذه التوجهات ، ومن منطلق هذا الفكر ، توجه البابا يوحنا بولس الثاني في ١٩ من أغسطس عام ١٩٨٥ بخطابه إلى الشباب المغربي المجتمع في ستاد الدار البيضاء . ولقد رد في أثناء هذا الخطاب كلمات تكاد تكون هي ذاتها كلمات الآية التي وردت في القرآن ، والتي تُعدُّ الإعلان القائل بالتعديدية الدينية والتسامح فيها وتلك الآية هي ٤٨ التي وردت في سورة المائدة ، وقال : «إننا نؤمن بنفس الإله ، الإله الواحد»⁽¹²⁾ .

لقد وضعت الكنيسة الكاثوليكية بمبادرةتها هذه لطبع علاقاتها مع الإسلام نفسها في طليعة العالم المسيحي قبل المجلس الكنسي العالمي وقبل كنائس مسيحية أرثوذكسية أخرى . وفي الأحوال كافة ، فإن الفاتيكان قام بخطوة مهمة واحدة فقط على هذا الطريق ؛ لأن المنشور البابوي وخطاب البابا في الدار البيضاء تجنبتا تماماً ذكر رسول الإسلام ، ذلك الدين الذي يحترمونه كثيراً . ولذلك السبب يتفق كل من Michel Lelong و الأب Hans Küng على أن الكنيسة لا تزال بعيدة تماماً عن استخلاص التائج اللاهوتي المترتبة على المنشور البابوي⁽¹³⁾ . ويتساءل Ulrich Schoen : «لماذا لا يتجرأ أحد على ذكر محمد بكلمة واحدة؟»⁽¹⁴⁾ . وإنني أطرح هنا سؤالاً إنسانياً :

إنه من الواضح أن الكنيسة لا تزال تحترم محمدًا من إعادة الثقة به وتصحيح صورته ورد الاعتبار له ؛ لأنها لا تزال أسيرة إنكارها له . ولن يجرؤ أي شخص من المعسكر المسيحي ، حتى وإن كان لا يؤمن بأن الإسلام عقيدة مضللة وأن محمدًا

(11) مقطع من Lelong ص ١٣ ، ١٤ .

(12) مقطع من Lelong ص ١٨ - ٢٠ .

(13) Lelong ص ٢٤ .

(14) Schoen في Kirste ص ٣٦ .

دجال ومحتال، لا يستطيع أن يتخيل أن يعترف بالقرآن ككتاب مقدس. مثله مثل الكتاب المقدس (للعهدين القديم والجديد)، لأن الاعتراف بمحمد رسولًا، أي وعاء لوحى الله، يعني ضمناً الاعتراف بالقرآن الكريم ككتاب مقدس والوصول إلى هذه الخطوة، يتطلب دراسة واسعة وتعاملاً حميمياً مع القرآن.

ويغفل الغرب عن حقيقة وهي أن الإسلام يهدف إلى أن يعيد المسيحية لتقف على قدميها، بدلاً من الوقوف على رأسها، وأن الإسلام يمكن أن يكون ذات فاعل هائل لإعادة الصحة إلى الحضارة الغربية. ولكن هذا ليس مقصداً هنا، ولكن لا تستدعي مجرد أصول المعاملة المهذبة واللباقة، عدم تجاهل رسول يؤمن به ما يزيد على مليار إنسان ويحترمونه؟⁽¹⁵⁾

* * *

عيسى يفرق - عيسى يوحد

شعار: لا يرضي كل إنسان بجملة: «إن الطريق هو الهدف» (مقولة لـ Alois Brandtter.

١٠

دعنا نتأمل أحد الكتب عن «تاريخ الله» لـ Karen Armstrong، وهو يستعرض قصة الإيمان التي ترجع إلى ٣٠٠٠ عام، متناولاً إله إبراهيم وإله آينشتاين^(١) وچاك ميلز. يميل هذا الكتاب^(٢) إلى الرأى القائل بوجود تصورات مختلفة عن الإله بقدر وجود اختلاف اليهود والمسيحيين والمسلمين. وإذا كان هذا أمر صورة الإله، فإن الأمر لا يختلف كثيراً بخصوص تعدد صور المسيح. ولذلك فمن المحتمل أن يكون عيسى الذى يوحد الناس خير عيسى الذى يفرقهم عن أناس آخرين، فقد ظهرت على مر التاريخ ثلاث صور مختلفة لعيسى.

- ١- لقد كان عيسى يهودياً مارقاً صدر عنه فعل التجديف الدينى حين عَدَ نفسه بغير حق المسيح المخلص (المفهوم اليهودي).
- ٢- إن عيسى إله وإنسان فى الوقت نفسه (مفهوم التجسيد الذى تبناه الكنيسة الكاثوليكية والكنائس المسيحية).
- ٣- إن عيسى نبى ورسول يهودى مصلح (الرؤى الإسلامية).

عاش فى الغرب حتى ١٠٠ عام مضت أناس رفضوا بشكل فردى الرؤى

(١) العنوان الأصلى فى الإنجليزية هو: «A History of God».

(٢) نقلأً عن الأمريكى Hanser: ميونيخ ١٩٩٦.

المسيحية للمسيح وللدين من أمثال جوته Goethe وغيره، ولكن لم يشكل هؤلاء الأفراد حركة تفرد علنية منظمة معارضة لما تروجه الكنيسة من عقيدة.

لقد بدأت حركة التمرد هذه في الظهور في القرن 19 من خلال محاولة إجراء مراجعة نقدية تاريخية للمصادر المكتوبة التي تستمد منها المسيحية تعاليمها، ولقد قام بهذه الحركة لاهوتيون، وكان لها نتائجها المدمرة. وأذكر في هذا الصدد أسماء بعض أساتذة علم اللاهوت من الكاثوليك والبروتستانت مثل Rudolf Bultmann, Hans Campenhausen, Adolf Harnack, John Hick, Emanuel Hirsch, Hans Küng, Gerd Lüdemann, Paul Tillich, Karl Rahner, Adolf Schlatter, Hans Joachim Schoeps, Wilfred Cantwell Smith, Wolfhart Pannenberg.

(لم تشارك الجموع المسيحية في هذه العملية، خاصة أن عملية المراجعة هذه قد حرص القساوسة على حجبها عن الجماهير والتكتم على أمرها).

لقد كان العهد الجديد كنص تاريخي أول ضحايا عملية نقد المصادر هذه. لقد قام Rudolf Bultmann باتباع المنهج التاريخي النصي المعمول به في الأدب في تحليله وتناوله للنص المقدس. ولهذا قام بتفسير «علاقة رسالة المسيح الأصلية بالشخصية التاريخية لعيسى». ولقد سار في تحليله إلى أقصى مدى، وتوصل إلى استحالة القيام بعملية كتابة صحيحة لتاريخ عيسى للظروف المحيطة بنشأة الأناجيل. لا يوجد رغم المجهودات المضنية مصدر أساسى، لا يوجد «إنجيل عن عيسى»^(٢).

لقد توصل البحث إلى نتيجة مفادها أن النصوص السبعة والعشرين نص التي يتضمنها العهد الجديد ليست حقيقة أو واقعية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، أي أن يكون كاتبها معروفاً وأن يكون معاصرأً لعيسى. ليس لدينا سوى روايات مصدرها الغرباء عن عيسى، ولكن هذه الروايات ليست مروية أو مكتوبة باللغة الأم، أي باللغة الأرامية، وليس صادرة عن شهود عيان. فكيف يتسعى لنا أن نعلم بما كان يريده أو يعنيه إن لم نكن حتى نعلم ماذا قال؟

كما أن مسألة الرواية لا تجدها إلا في سبع رسائل بولس، ولكن بولس

(٢) إنظر Mack. لقد ثبتت محاولات لإعادة تكوين مصدر رئيسي عن طريق التعامل مع الموضع التي لها نفس المعنى والاتجاه عند متى ولوقا.

هذا لم يعاصر عيسى ولم يحده. لقد توصل البحث إلى أن تاريخ الرسل وقصصهم ما هو إلا نتاج القرن الرابع الميلادي.

ولذلك لم يستطع الكثيرون نفي حقيقة أن نشأة النصوص المسيحية المقدسة لا تعود إلى أسباب تاريخية، بل تعود في حقيقة الأمر إلى مصالح تتعلق بالكنيسة. وهذا يعني: أننا نعلم علم اليقين التأثيرات التي أحدثتها الظاهرة عيسى، ولكننا لا نعلم صاحب هذه الظاهرة والتجربة: عيسى. فعيسى ليس مؤسس الدين المسيحي بقدر ما هو موضوع هذا الإيمان والدين، أي عيسى هذا «المجهول العظيم»^(٤). يقول Gerd Lüdemann: «إنني لا أؤمن إذن بالكتاب المقدس ككلمة الله لنا، ولكن أؤمن بعيسى الذي يقف خلف نصوص العهد الجديد تخنقه التقابيد الكنسية المتراكمة»^(٥).

لقد توصل كثير من الباحثين إلى استحالة إمكانية الحديث عن وحدة العهد الجديد وخلوه من التناقضات وصحته، بغض النظر عن مسألة كتابته. ويعتقد Lüdemann أن العهد الجديد هو اختيار الكنيسة للنصوص بهدف تحقيق أغراض بعينها، وهي مجموعة نصوص الجانب الفائز والفريق المتصر. لقد تم تدوين هذه النصوص بعد أن اجتازت المسيحية بداياتها بزمن، وهي بالتالي ليست كلمة الله بل كلمة الإنسان.

ويعتقد Lüdemann أن «التدقيق التاريخي لنشأة العهد الجديد وما يحتويه من مقدسات، يؤدي إلى انهيار أبنية الكنيسة وعلم اللاهوت كما لو كان بناؤهما من ورق»^(٦).

ولقد عبر كثير من علماء اللاهوت عن استيائهم البالغ من تزوير بعض الوثائق الكاملة، مثل رسالة بولس الثانية، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس، وكذلك جميع المواقع الخاصة بمسألة الثالوث، ومن ضمن هذه المواقع: رسالة يوحنا الأولى (٥:٧)، وأمر التعميد «باسم الأب والابن والروح القدس» (متى ٢٨:١٩).

(٤) Deschner ص ٨٢.

(٥) Lüdemann (١٩٩٥) ص ٢٢٦.

(٦) Lüdemann (١٩٩٥) ص ٩٨ و ٢١٥.

إن نقد العهد الجديد أصبح همّاً وشاغلاً عظيماً للباحثين في علم اللاهوت، حتى يتوصلا إلى ما وراء عام ٣٢٥ ليتمكنوا من إعادة اكتشاف المسيحية الحقيقة ذات الأصول اليهودية. يعتقد John Hick - أحد أبرز نقاد هذه الدوוגما وتعاليم الكنيسة - عن حق أن مجرد مناقشة التجسيد والثالوث قد سلبت الاثنين قدسيتهم ومكانتها حتى صار الاثنان مجرد نظرية^(٧). من المحتمل أن ينطبق هذا الأمر على الغرب. أما بالنسبة لكنائس الشرق الأرثوذكسيّة، فإن دوוגما وتعاليم الثالوث استطاعت أن تقف في وجه الزمن بشكل أفضل عما حدث في الغرب. وربما يعود ذلك إلى أن علماء اللاهوت الشرقيّين طالما تعاملوا مع مسألة الثالوث كلغز وسر في حد ذاته، بينما وقعت كنائس الغرب ضحية لمحاولتها تفسير هذا الدووجما بشكل عقلاني.

أما أكثر المواقف تطرفاً، فقد تبناها بعض علماء اللاهوت المسيحيين من أتباع مؤكدين Paul Tillich رأيه أن عيسى رمز جميل، جميل لدرجة تجعل من الضروري اختلاقه إن لم يكن قد وجد فعلاً، حتى إن أمر الحقيقة التاريخية لعيسى تصبح غير ذات أهمية. فالإيمان والدين المسيحي ليسا بحاجة إلى تسويغ تاريخي، ولكن - كما قال Bultmann - إلى: «القاء روحي مع المسيح». ويتسابه هذا القول مع رأى إاكو Umberto Eco: «بماذا يؤمن من لا إيمان له؟» ووفقاً لذلك، فإن المسيح حتى لو كان مجرد شخص في حكاية مؤلفة، فإن هذا التأليف رائع وشديد الجمال ويتسم بسحر وغموض يضاهي فكرة ابن الله الحقيقة.

يُعد كل ما سبق ذكره مجرد خطوات لتجديد ما قام به شلايرمخر Friedrich Schleiermacher من قبل، وهو تحويل الدين إلى فلسفة جمالية. تخلى فلسفة الحياة هذه عن جميع مضامين الإيمان الموضوعية وتلقى بها خلف ظهرها التصريح «ديننا بله»، لأن ديننا ينحصر في إحساس الفرد الداخلي، ويترفع عن الحياة والعالم الحقيقي، ويصبح كما قال جوته Goethe: «مسيحية لاستخدامي المخاص»^(٨).

فالدين إما أن يكون ديناً وإما لا يكون! لا يستطيع المرء إذاً أن يبحث مع كل من

(٧) Hick في Cohn - Sherbok الفصل ١.

(٨) جوته Goethe في «الشعر والحقيقة» فرانكفورت ١٩٩٣ الجزء ٥ ص ٥٧٥.

Henri Michaux و Carlos Casteneda عما يمكن تسميته بـ «خبرة الهوة وتجربة معايشتها» وذلك من خلال النباتات المخدرة المثيرة للوعي الديني والتي يكثر الهنود من استخدامها، أى أن يكون الإله المترعرف عليه في حالة غياب الوعي بتأثير المخدر بديلاً عن صورة الإله العقلانية التي يؤمن بها من يعتقد بالله كعلة أولى، وينفي مسألة الوحي؟

وبتأثير هذه الخلفية الفكرية، قامالأمريكي Matthew Fox ، هذا القسيس المتنمٍ إلى جماعة الدومينيكان سابقاً، بإجراء تغيير في النموذج، فدعا إلى تغيير نموذج عيسى من عيسى التاريخي إلى عيسى الكوني^(٩).

ولقد انزلق في محاولته هذه إلى فلسفة تتسم بمواصفات مرحلة ما بعد الحداثة، وملينة بالعناصر الغامضة والغنوصية.

ولكتنا نتساءل: هل تلك صورة عيسى الكوني مقومات الحياة إذا هي تخلت عن صورة عيسى التاريخي؟ أو ليست صورة عيسى المتعالية على الحقيقة التاريخية وصحتها، هذه الصورة المختلفة، المفتعلة، أو ليست شفرة إضافية للحقيقة غير الملموسة؟

هناك تلاعب لاهوتى أقل تطرفاً، بمقتضاه هناك بالفعل عيسى، كحدث وقع فعلاً (Jesus - Event) كنواة تاريخية للمسيحية، وكل ما عدا ذلك. أى ما تبع ذلك. من المسيحية ما هو إلا تأملات نظرية.

لقد كان عيسى أكثر من مجرد فكرة جميلة. لقد كان تجلياً ميزةً ووحيناً في الشخص ذاته^(١٠). ويقول Klaus Berger إن الله الخفي قد أصبح «مرئياً ومنظوراً» من خلال ظهور عيسى كإله وشفافية تجلى الله من خلال عيسى وجوده فيه، لأن عيسى «نفذ ومتخلل بشكل كامل في الوجود الإلهي، في وجوده هو».^(١١)

(٩) Fox في kirste ص ٣٧٤ - ٣٧٦.

(١٠) Cragg ص ٥.

(١١) Klaus Berger : «في البدء كان يوحنا». دار نشر Quell شتوتغارت ١٩٩٧ تقلأً عن محادثات من خلال FAZ في Helmut Löhr بتاريخ ٢/٦/١٩٨٩.

ويتعمّر وصياغة كلمات Michel Lelong: «فإن الله قد تجلّى بكامل وجوده في المسيح عيسى، وعرف نفسه فيه وظهر من خلاله»^(١٢).

في الحالات الثلاث السابق ذكرها (من خلال المقولات) يفقد عيسى الوهيت، ولكنه يُرفع إلى مكانة عالية، ويستمر السمو به إلى أن يكون مضموناً للتجلّى والوحى. ولكن إذا تساءلنا ماذا إذا لم تكن هذه المقولات تلاعباً بالألفاظ ولكنها توابع لما حدث وقيل وصيغ في إزنك؟، ذلك لأن علماء اللاهوت الذين يتبنّون فكرة «الحدث» لابد وأن يقبلوا أن نعارضهم بالحقيقة التالية: إن بناء أفكار من نقطة لا نستطيع إثباتها تاريخياً ولكن نَعُدُّها جزافاً حدثاً وقع فعلاً، فهو أمر كفيل بأن يُرجم بما في تأملات نظرية غير مجدية.

وهناك نظريات أخرى تتسم بصيغة عقلانية مما يزيد من فرص نجاحها وانتشارها على مستوى كنائس العالم. وهذه النظريات تنسب لواضعها الأستاذ البريطاني John Hick (برمنجهام) المسيحي الأنجليكاني. ولقد توصل Hick إلى أن عيسى إما أن يكون إنساناً فقط، وإما أنه لم يكن إنساناً على الإطلاق. واختار Hick بشكل مطلق أن يكون عيسى إنساناً فقط.

لقد رأى Hick أن عيسى كان إنساناً فقط اختاره الله ليحمل رسالته الإلهية، وأنه لم يكن معصوماً من الخطأ أو الخطيئة.

لقد تجلّت رسالته في أن يضيف إلى صورة الإله القاسية الموجودة في العهد القديم، صورة الإله المحب الرحيم، وأن يضفي على وصاياته موسى وتعاليمه روحانية، وأن يضفي مسحة أكثر إنسانية على تشددات التلمود. ولقد عَدَ Hick عملية تأليه عيسى والتي جاءت زمنياً في وقت لاحق لحياته، وتحوّيل عيسى إلى الشخص الثاني في مسألة الثالوث الإلهي المقدس «طريقة أسطورية ورمزية للتعبير عن معنى وقيمة عيسى». لقد تحولت صورة عيسى «كابن للرب»، وهي نهاية صاغها اليهود الموحدون، إلى نظرية أشبه ما تكون بنظرية الإغريق في تعدد الآلهة وعلاقة الإله الأب بأبنائه^(١٣).

(١٢) Lelong ص ١٦٠.

(١٣) Hick (١٩٧٧) الفصل الأول. ويشاركه Paul Schwarzenau (١٩٨٢) الرأى ذاته ص ١٢٣: «لم تتم تسمية عيسى في المسيحية الأولى والمرحلة التي سبقتها بالرب. بل إنه من المؤكد أن شخصية عيسى التاريخية ما كانت لتسمع أو تقبل بعملية تأليه لشخصه».

ترتكز نظرية Hick التي تدعو إلى إلغاء ونفي فكرة التجسيد إلى حقيقة أن عيسى نفسه لم يتحدث في أى لحظة عن نفسه كإله أو عن ثالوث إلهي . تتمرکز رؤية Hick الشاملة على عيسى أكثر منها على الإله ، ولكن لا يجزم إن كان وقوع حادث المسيح هذا فريداً أو أنه سيظل كذلك . فيقول : «إننا لم نعد نتحدث عن نقطة تقاطع بين الإلهي والإنساني ، هذا التقاطع الذي حادث في حالة واحدة فقط هي عيسى»^(١٤) . ويختلف موقف عالم اللاهوت الكاثوليكيين Kung و Rahner عن Hick ، فكلهما لا يرفض الحجج التي تساق لرفض فكرة الثالوث الإلهي متضمنة عيسى كشخص إلهي داخل هذا الثالوث ، ولكنهما يجتهدان في إعطاء عيسى مكانة الصدارة في هذا الشأن ، والتي تحميه بدورها من أن يكون مجرد رسول مثل باقي الرسل . أى أن كليهما يعترض على فكرة تعدد الآلهة والتي يتضمنها منطق فكرة التجسيد .

ولقد توصل Rahner من خلال إعادة التفكير في تعاليم التجسيد إلى تعريف أدمية وإنسانية عيسى الحقيقة ، حين قال : «إن من يقول إن عيسى هو الإنسان الذي يعيش حالة تسليم الذات لله بشكلها المطلق ، يمكنه بهذا القول أن يعبر عن حقيقة جوهر المسيح في عمقها بشكل صحيح» .

ويعتقد Rahner أن «التجسيد» الإلهي في الحياة الإنسانية إنما هو احتمال عام ، ويكون عيسى بهذا المثال الكامل والأوحد مثل هذا الإلهام .

أما لغة Hans Kung فتبعد أقل خفوتاً ورونقًا ، ولكنها تظل حسب رأيي . أقل من مطالبة Lüdemann في أن يكون للحقيقة الصدارة في الخلاف الدائر بين الكنيسة والحقيقة . فـ Kung يعترف من ناحية برب إبراهيم ورب عيسى ، وأن عيسى دعا - بوصفه مختاراً من هذا رب - له باسمه ، أى أن عيسى إنسان عزيز فريد «اختاره الله وأعطاه قوة مطلقة» . أى أن التثليث يتضاعل هنا إلى حد «وحي الله في المسيح من خلال الروح»^(١٥) ولكن من ناحية أخرى يكتب Kung أن هذا الإنسان الحقيقي عيسى الناصري ، وحي الله الحقيقي ، هو - في لغة أقرب ما تكون للغة الكتاب المقدس - هو المسيح ، المخلص ، صورته وابنه . وتحجتمع في المسيح عيسى هذا روح

(١٤) John Hick : «التعدد والتنوع الديني والحق في المطلق» في Ristie ص ١٤٦

(١٥) J.van ESS. / Ru`ng

الله، سلطته وقوته. ويتوحد المسيح الإله مع الإنسان، أي الشخصية التاريخية لعيسى الناصري^(١٦). وبهذا يثبت KÜNG أنه لا يزال الابن الوفي المطيع والتابع لكنيسة و تعاليمها.

ولقد تسلطت أضواء على عنصرى «الصلب» و«القيامة». واكتسبا رؤية جديدة، حيث نالت الرؤية القرآنية مساندة من جانب التيار النقدي في علم اللاهوت والذى أثبت أن عملية المحاكمة وتوقيع العقوبة قد تما في يوم الجمعة نفسه قبل عيد فصح اليهود مباشرة، وأن الكلمات التي تنسب للمسيح وهو على الصليب ما هي إلا كلمات ملقة لا أساس لها من الصحة، وأنها رواية مؤلفة في زمن لاحق لهذا الحدث.

أما الاعتقاد بقيامة المسيح والتي أصبحت ظاهرة تؤمن بها جماعة المسيحيين بأسرها، وإن كانت في الأصل رؤية فرد واحد، فييراها Lüdemann «رد فعل مسلسلا»^(١٧) لا مثيل له.

أعتقد أن هذا العرض الموجز يكفى دليلا على الأزمة العميقة التي تعيشها علوم اللاهوت المسيحية واليسوعية ذاتها و تعاليمها في العالم المسيحي، والتي يعد Eugen Drewermann أخيراً وليس آخرأً. أحد مؤشراتها البارزة. ويصور القرآن هذا الموقف بدقة شديدة في سورة الشورى الآية ١٤ : «وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ».

ولكن من غير المتوقع أن تؤدي هذه الأزمة (حتى الآن) إلى أن تسرع حشود المسيحيين المحبطة إلى الدخول في دين الله كما تبشر سورة النصر بذلك الآية ٢ : «وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا»، ولكن بالأحرى ستدفع هذه الأزمة بالكنيسة إلى فنائها وتعجل بالقضاء عليها وينهاية المسيحية المرتبطة بالكنيسة، وسيؤدي ذلك إلى زيادة شعور الجماهير بالاغتراب عن الدين عامة، وتزيد من رغبة الإنسان الفرد بانتقاء ما يريد ويناسبه من المعروض في سوق الديانات والمعتقدات والتي هي أشبه بالسوبر ماركت.

(١٦) KÜNG (١٩٨٨) ص ٣٣، ٤٣، ٤٥-٤٩، ٥٠-٥٤.

(١٧) Lüdemann (١٩٩٥) ص ٢٢٧.

ولقد ذكر القرآن هذا التطور في سورة الجاثية الآية ٢٣ .

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ...﴾ .

٢٠

إن هذا التطور السابق ذكره والذى تشهده علوم اللاهوت المسيحى وتعاليم المسيحية ، لا يصل إلى مدارك الجموع المؤمنة التى تذهب أيام الأحاداد إلى الكنيسة ، لأن المسيحية تشهد حالة من «الانفصال العميق بين التقوى والورع وبين العلم ، أشبه ما تكون بحالة الشيزوفرانيا»^(١٨) .

فبالرغم من الزلزال الذى ضرب علم اللاهوت لا يمكن إلا أن نتوقع استمرار الجموع البسيطة من الكاثوليك فى بولندا ، كرواتيا ، وأيرلندا وإسبانيا فى المشاركة فى المراكب التى تقام إجلالاً وتقديساً «لأم الإله» .

يشابه هذا التطور بما أحدثه كل من Werner Einsteing و Max Planck و Niels Bohr و Heisenberg من تحول فى بدايات القرن من الفيزياء النيوتونية (نسبة إلى نيوتن) إلى الفيزياء الجديدة . فلقد أدركت العامة نتائج نظريات هؤلاء بعد نصف قرن . ففى جميع الأحوال ، فإن مصداقية الكنيسة أو عدم مصداقيتها يتوقف اليوم على موقفها من علماء اللاهوت الذين يتبعون منهجاً تاريخياً نقدياً ، وما توصلوا إليه من نتائج ، وعلى إذا ما أفرجت الكنيسة عن هذه النتائج أو اختارت طيها فى بئر الكتمان .

وتفتح عملية رفع حالة القدسية عن عيسى وتخليصه من المسحة الأسطورية والملحمة الباب واسعاً أمام تصالح المسيحية مع غيرها من الديانات والمعتقدات غير المسيحية ، وبخاصة الإسلام .

إن الإمكانيات التى تتيحها عملية التصحيح هذه مذهلة ، لأنه إذا ما توطدت فكرة أن عيسى «مجرد» رسول الله . وهى مكانة عظيمة تحظى لدى المسلمين بتقدير

١٨) Lüdemann (١٩٩٥) ص ٢١١-٢٠٩ .

واحترام بالغين. فإن هذا كفيل برأس الصدع بين المسيحيين وال المسلمين، ذلك الذي أحدثه المجمع الكنسي في إازنك. إن الأمر لا يتعلّق بأن يشعر المسلمون بأنهم على حق عندما تتطور المسيحية لدرك أن المسيحية المذكورة في القرآن هي الأصل وهي الصحيحة، ولكن إذا حدث هذا فسيكون الإسلام قد أدى رسالته في إصلاح المسيحية وتخليلها مما علق بها من شوائب وتلفيقات، وعاد بها إلى أصلها. وبهذا يكتسب الحوار العالمي فرصةً جديدة ليس على المستوى الإنساني فحسب، بل كذلك على مستوى النظريات، لأنه في هذه الحالة لن تصبح مسألة الطبيعة الإلهية لعيسى أحد المحرمات التي لا تمس ولا تناقش كما ذكر Hans Küng. وبهذا سيكون تمكّن المسلمين بال المسيحية التي وردت في القرآن لمدة ١٤٠٠ عام قمري عملاً آتى ثماره واستحق هذا العناء والمثابرة.

لقد أحدث المنشور البابوي الذي أتى ذكره في الفصل السابق تغييراً ملماوساً.

فلم يعد الحديث قائمًا عن ملاك كل من هو خارج الكنيسة. لقد تخلّت الكنيسة عن موقفها هذا (الانجذاب خارج الكنيسة) الذي يعود إلى قرون طويلة. (أما في المجال العلماني فيتحول هذا الموقف في إطار العولمة لصياغة أخرى «الا حضارة خارج الغرب!»).

يتجلّى هذا الموقف في أكثر أشكاله تطرّفاً فيما ورد في المنشور البابوي لعام ١٩٧٩ في الفقرة ١٤ والتي جاء فيها «إن الإنسان - كل إنسان بلا استثناء - قد نجا من خلل المسيح، وكل إنسان مرتبط بال المسيح بشكل أو باخر حتى لو لم يعلم الإنسان هذا».

إن المسلمين وفق هذا القول ويُعتبر Rahner هم مسيحيون بدون أن يعرفوا.

إن المسلمين «يتقدّمون» لأنفسهم «فكريّاً» عندما يَعُدُّون عيسى (مثله مثل بقية الرسل) كما ورد في القرآن مسلماً بالمعنى الأصلي للكلمة، أي أنه إنسان يسلم نفسه كاملاً لله. فلقد ورد في سورة آل عمران الآية ٦٧: «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصراويا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين». وكذلك ورد في سورة البقرة الآية ١٣٦: «قولوا أمنا بالله وما أنزّل إلينا وما أنزّل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق».

ويعقوب والأسباط وما أتى موسى وعيسى وما أتى النبيون من ربهم لا تفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون^{١٩}). ويتشابه هذا، بل يكاد يتطابق مع ما ورد في الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

أما مقوله أن المسلمين مسيحيون (بدون أن يعرفوا)، فهي ليست عارية من الصحة تماماً: إن المسلمين من أكثر الناس احتراماً وإجلالاً ودفاعاً عن مكانة المسيح عيسى بن مریم وأمه اللذين اصطفاهما الله. وتتأكد هذه الحقيقة عندما يتبع المسلم بدهشة بالغة واستنكار واضح ما يتعرض له كل منهما- أي عيسى ومریم العذراء- من تقليل لكيانهما واحترامهما على يد بعض علماء اللاهوت المسيحيين أمثال We Dorothee Sölle - Heinemann و Ranke ، عندما يتعرضون لشخص المسيح على أنه شكل من أشكال العاملين في المجال الاجتماعي العام، ولا مه بصفتها أم غير متزوجة. إن بعض علماء اللاهوت أمثال Paul Schwarzenau و William Watt و Schwarzenau يعتقدون أن جميع المحاولات التي تستهدف الحفاظ على صدارة المسيحية- خاصة بعد تنقية صورة عيسى من جميع العناصر الأسطورية والملحمية، وبالتالي المسيحية- ليس لها أدنى أمل في تحقيق النجاح. يعتقد Schwarzenau الذي يتحدث عن بداية زمن ما بعد المسيحية، وعن ظهور عناصر دين عالمي، أن عهد المبشرين قد ولّى، وأن ساعة عودة البشر لدين الله الواحد قد حانت^(١٩).

يؤمن Schwarzenau مثله مثل Watt و Hick بأن الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام هي في حقيقتها وأصولها ذات مكانة متساوية، كما تساوى في حقيقتها. ويرى Schwarzenau أن القرآن بثابة وحى ورسالة إلهية- دينية كونية تصلح للعالم كله، وتتضمن حقيقة رواية عيسى الأصلية. وبالتالي يرى Schwarzenau أن القرآن يصلح لأن يكون إضافة مفسرة للعهد الجديد.

يتوقع Schwarzenau للمستقبل أن يتطور الأمر من «توالي موسى وبعده عيسى وبعدهما محمد إلى حالة معينة» (أي أن يكونوا معاً).

(١٩) Schwarzenau نقلأً عن Kirste ص ٤٧٨.

(٢٠) Watt ص ٤٣.

«سنكون في أواخر الأيام كلنا معاً داخل الإسلام العالمي»^(٢١).

لا يخفى Schwarzenau مثله مثل Hick اعتقاده أن الديانات كافة رغم مطالبها وأهدافها العالمية وتوجهها للبشر كافة، فهي مرتبطة بالنسبي التمايز الثقافي لها، وبالتالي لا تكاد تصلح لتحقيق مثل هذه العالمية التي تصبو إليها. يسمى Hick هذا الأمر «الإثنية الدينية»، والتي تدفع بالمؤمنين والتابعين للديانات المختلفة إلى المحاولة التي لا طائل منها لإثبات التفوق الأخلاقي والفكري لديانتهم على الديانات الأخرى: مع أن الفضيلة والرذيلة موزعتان بشكل قد يكون متساويا على العالم كافة.

إن الديانات كلها تكاد تكون لها نفس الأهداف، وهي عدم تركيز حياة البشر على الدنيا فقط، بل السمو بها عن طريق تركيزها وتغريبتها. أي حياة البشر. على الله وجوده. إن رؤية الديانات المختلفة للحقيقة النهائية لا تعنى أن إدراها على حق والآخر على باطل. لكن على العكس فإن كل الديانات. وفق اقتناع Hick. تشارك في نصيب متساوي من الحقيقة الإلهية.

وهذا الموقف يوضحه أكثر ما يوضّحه الضوء الذي ينكسر في مناخ الأرض إلى ألوان قوس قزح. وهناك تشبيه آخر لاختلاف الديانات مع اتفاقها في الهدف النهائي، وهي أن الطرق المختلفة تؤدي إلى قمة الجبل نفسه^(٢٢).

وانطلاقاً من هذه الخلطية التي تسمى «بتعدد النظريات اللاموتية للديانات» يطالب Hick أتباع الديانات والمذاهب إلى نبذ فكرة التمتع لدينهم ومذهبهم واعتباره طريق النجاة الأوحد والمطلق. ويناشد Hick المسيحيين أن يخطوا الخطوة الخامسة ويعترفوا بأنه بالإضافة إلى عيسى هناك مخلصون آخرون وأن هناك رسلا وأنبياء أوحى إليهم غيره، وأنهم كذلك أصحاب رسالات سماوية^(٢٣).

(٢١) Schwarzenau (١٩٨٢) ص ٩، ٢٢، ١١٧، ١٢٣، ١٢٤-١٢٦.

(٢٢) Hick (١٩٩٥) ص ١٠، ١٠، ١٢١، ١٢٠، ١١٩، ١١٨، ١١٥-١١٤، ١١٤، ١٢١، ١٢٣، ١٢٢، ١٤٩-١٢٨.

(٢٣) Hick (١٩٨٨) ص ٧.

Baumann (٢٣) ص ٧.

لابد وأن يلحظ المرء ارتباط تأسيس هذا التعدد الديني الليبرالي وقبوله بالفيزياء الجديدة من حيث تاريخ الفكر. فعلوم الطبيعة الجديدة التي تقبل بنسبية غير دقيقة تشبه تقبل Hick للنسبية في تقييمه للأديان: فالذى يبدو متناقضًا قد يكون كله صحيحاً. ويواافق Hick. كما تواافق علوم الطبيعة الحديثة. على ضرورة التفرقة بين الحقيقة والطريقة التي يفهم بها. ويميل Hick إلى رفض أي تقييم نوعي، إنه يتقبل بطبيعة الأمر أن يتحلى المرء بانحياز إيجابي أو حكم مسبق إيجابي لدينه، ولكنه يرفض أن يكون المرء سبيلاً للنهاية تجاه ديانات الآخرين.

إن هذا لا يتشابه مع علوم الطبيعة الحديثة فقط، ولكن مع أحدث صيحات الفكر والاتجاهاته في بدايات الألفية الثالثة.

لقد امتد ضياع المعايير، وثقافة الصدفة، ونظريات الفوضى، ليس إلى علوم اللاهوت فحسب، بل تجدها كذلك في فنون الرقص والموسيقى الحديثة لـ John Cage والذي يختار جميع الأنغام التي تروق له دون معيار فني. يالها من تعددية! أولاً تذكرنا الفلسفة الجمالية المعتمدة على الصدفة هذه بما سبق ذكره من الخيارات اللاهوتية؟

الملمح المميز لما بعد الحداثة في الفلسفة، والتاريخ، وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا هو نبذ المنظومات الكبيرة والنظريات الشاملة العامة. فبدلاً من الشرح، يحتل الوصف مكان الصدارة، ويتم تفكيك علاقات فكرية إلى مجرد طرق محادثة. فالعلم يتم «تدويره» وتحريكه كالمال في اتجاه ما بعد الحداثة.

فالنص آخر الأمر هو نتاج ما يفعله القارئ به، أي القارئ مؤلفًا

وكل شيء له الحق في أن يتمتع بالقدر نفسه من الحماية: كل ما هو صغير، كل ما هو غريب، كل ما تهده الأغليمة، النساء، الأطفال، مدمنو المخدرات، الشواد، جنسياً، النحل الدينية والحيوانات.

ويتمثل رد فعل ما بعد الحداثة على حالة الفقر الفكري والروحي للحداثة في مظاهر العصر الجديد، مثل: كشف الغيب، علوم إعادة التجسيم، النحل المسيحية

الجديدة الملفقة، الدين المدني، نظريات البيئة وأساطير الطبيعة، وغيرها الكثير مما نجده في السوبر ماركت الديني المعاصر.

ويستشعر الناس اليوم الخوف من كل ما يتسم بالنظام والقواعد. ففي عصر ما بعد الحداثة يتعد الناس عن «الموضوعية» كهدف وإمكانية، لدرجة أن الكثيرين ينفون عن العلوم الطبيعية مسألة المعيارية.^{٢٤}

فالمجوهر الأساسي للأستلة الفلسفية القديمة مثل: ماذا أستطيع أن أعرف؟ ماذا على أن أفعل؟ ما الذي أستطيع أن آمله؟ كل هذه الأستلة تطرحها ما بعد الحداثة كتساؤلات، ولكنها لا تبغي من ورائها إجابات. ولكن إذا أصبحت كل مقوله مجرد مادة تأملية، فسيصبح عن قريب من الفضائل ألا يكون للمرء رأى ثابت (no view) وكذلك لا يحدد لنفسه هدفا (no goal)، وستصبح كل حماسة دينية وانتماء عقائدي تطرقاً. هذه النسبية في القيم ستؤدي بطبيعة الحال إلى عدم اتخاذ مواقف، وليس للتسامح وتقبل الآخر (رومان هرتزوج)^{٢٥}. والنقيض هو الصحيح: تقبل الآخر والحق في وجود أشياء مطلقة متلازمان (Peter Steinacker).

لقد تبين للناس أن «الحلول النهائية» تكمن في منطق الدولة الحديثة. لقد عبر Zygmunt Baumann عن اعتقاده بأن ما يهدد الوجود الإنساني ككائن أخلاقي ليس الشهوات ولا الأفكار القديمة ولا الاعتقاد بالخرافات، ولكن ما يهدده حقا هو العقل، الحضارة والعلم^{٢٦}. ويتماشى مع وجهة النظر هذه ما قام به Jürgen Habermas في إحدى كتاباته بفصل الحق عن الأخلاق، نابذاً بذلك الأسس التي ارتكزت عليها مرحلة التنوير.

يؤدي الاستغناء عن ضرورة وجود فكرة «الحقيقة» إلى اتجاه نسبي ذي طبيعة عدميه، تؤدي إلى أن يختار المرء أى شئ يريده بلا تجديد لموقف ثابت^{٢٧}.

لكن مرحلة ما بعد الحداثة تتمسك بالإنجازات الرئيسية للحداثة، وهي: فصل

(٢٤) منح جائزة السلام الألمانية للأستاذة الدكتورة Schimmel فرانكفورت ١٩٩٥/١٥/١٥ من ص ٩.

(٢٥) Baumann.

(٢٦) العطاس (١٩٩٦) ص ٥٠٨.

الدولة عن الكنيسة، التعدد الفكري، رؤية تاريخية خطية مستقيمة. ميتافيزيقيا ملحدة، رسالة التبشير بالإنسان محور الكون.

٤٠

لا يؤدي السؤال عما إذا كان عيسى يوحد البشر أم يفرقهم دوراً مهماً في مشهد مرحلة ما بعد الخداثة، حيث لا تولى الأخيرة أهمية مثل هذه التساؤلات. ولكن من المهم جداً لل المسلمين أن يعلموا إلى أين ت يريد هذه المرحلة أن تصل بهم؟ فمثلاً ما هدف John Hick بالنسبة لل المسلمين؟ إلى أين يريد أن يتوجه بهم؟

تُعدّ الرؤية الإسلامية مرحلة ما بعد الخداثة هذه إحدى النتائج المتأخرة للخداثة والتي تحمل مسؤولية انتشار الإلحاد، والعلمانية، وفقدان القيم والمعايير، وفقدان الأشياء لمعانيها ومضامينها. إنها رد فعل مأزوم على عالم مرعب لا يمكن - على أقل تقدير منذ الحرب العالمية الثانية. بأي حال السيطرة عليه، لا من خلال مثل وقيم التنبير ولا حتى بقوة ردع السلاح^(٢٧).

يعتقد Emanuel Kellermann أن الإسلام يكتسب أهميته وقيمة المطلقة مقارنة بالأديان الأخرى، فهو يقدم أفضل ما يمكن للدين أن يقدمه^(٢٨).

ولذلك لا ينبغي لأحد أن تصيبه الدهشة إذا ما رفض العالم الإسلامي أن يشارك في مسألة اللامبالاة بالمعتقدات، لأن المخاطر الناجمة عن هذا لا يغفلها العقل. إن هذا الأمر بمثابة كابوس سيؤدي بالعالم إلى طريق مسدود، سيعمل على أن تفقد الأشياء معانيها وقيمتها، سيفقد العالم الأمان، التراث والتقوى. لقد عبر أندريه مارلو عام ١٩٦٨ عن هذا حين قال: «إنني أؤمن بأن حضارة الماكينات هذه هي أولى الحضارات بلا قيمة عليها. إن علينا أن نتظر لنرى هل يمكن لحضارة أن تكون

(٢٧) Mansoor (الدكتور) The Muslims World Book Review . Year 7 Number 2 Year 1987 ص ٣ .

٣ Year 1994 ص ٩ .

(٢٨) Kellermann (إmanuel) : الإسلام الطبعة الثانية : بازل ١٩٥٦ ص ٣٧٧ .

حضارة تطرح مجرد تساؤلات فقط، أو أن تكون حضارة الآن فقط. وهل من الممكن أن تؤسس قيمها على شيء آخر غير الدين لفترة طويلة؟^{٢٩}.

لا يعتقد المسلمون أن أزمة القيم والمعنى هذه يمكن التغلب عليها من خلال إستدعاء القيم الإنسانية والتوصل إلى اقتناعات مشتركة بين المسيحيين واليهود والمسلمين، والليبراليين، والماركسيين والملحدين، طالما ظل الإنسان هو معيار ومقاييس الأشياء كافة، وهو وحده صاحب الحقوق كافة.

إن التمسك الأعمى بنموذج للتقدم يستند على الفرد الحر لن يؤدي إلا إلى مزيد من الإنتكاسات. لذلك فإن قليلاً جداً من المسلمين يولون أهمية لمشروع Hans Küng بإقامة «علم أخلاق عالمي».

لقد كان لكل هذا أثره الواضح في جلسات برميّانات ديانات العالم المنعقدة في جنوب إفريقيا في الفترة من ١-٨ ديسمبر عام ١٩٩٩، حيث ناشد الحاضرون المؤسسات الرائدة في العالم الحفاظ على الأخلاق. ومن أمثلة النداءات: «لا يصدر عنك فعل لا أخلاقي»، «احترم الحياة»، «إننا نهدف لإقامة عالم تساند فيه التكنولوجيا آدميتنا وتنميها».

كل هذه المقولات الجميلة التي صيفت بصيغة الأمر ولم تتخبط القاعدة الذهبية القدية «أن تعامل الآخرين كما تُحب أن تعامل، وأن تحب لأن يُحبك ما تحب لنفسك»^{٣٠}.

هذه هي الحصيلة الأخيرة لما يتبقى، إذا ما عدنا أن الأخلاق هي التي ستبقى بعد زوال الديانات.

يقول Hans Joachim Fischer عن حق: «إن الأخلاق الجديدة لن تستطيع أن ترکز على مياه نظيفة في بحر الشمال أو جزر خالية من الأسلحة النووية. ستفقد مصداقيتها إذا ما أعلنت عن نفسها أنها أخلاق بلا هدف للتفرقة بين الخير والشر، الحق والباطل»^{٣٠}.

(٢٩) تلك القاعدة النعية يقابلها حديث الرسول: «أحب لأن يُحبك ما تحب لنفسك» (مسلم رقم ٧٢ - النورى رقم ٢٣٦، رسول رقم ١٢).

(٣٠) Fischer: أخلاق بلا أخلاق FAZ ١٦/١١/١٩٩٥.

لذلك فإننى لا أأمل خيراً فى نوایا برماتات الديانات باستغلال قدوم الألفية الجديدة وإقامة حدث عالمي في أىسلندا. و موقفى هذا يسرى كذلك على نية Hans Küng المتمثلة في كتابة «علم لا هوت منظم لديانات العالم»^(٢١).

إن الإسلام على النقيض من آراء John Hick التي ترسم علامات مرحلة ما بعد الحداثة. ليس على استعداد للتخلى عن قيمة «الحقيقة» بالرغم من أن على المسلمين أن يتتفقوا مع ما قاله الرئيس الإيرانى د. محمد خاتمى من أن الدين، وتصورنا عن الدين وفهمنا له، لا يتطابقان بالضرورة^(٢٢) يضرب الإسلام تشبيهاً مجازياً مقابل لضوء الإلهى الذى ينكسر فى ألوان قوس قزح، وهو تشبيه الذهب بمعاييره المختلفة وصولاً إلى أنقى درجاته: ٢٤. ورسالة الإسلام، التوحيد الخالص، أشبه ما يكون بالذهب فى أقصى درجات نقائه وخلوه من المعادن الأخرى أى ذهب عيار ٢٤. ليس هناك درجة أعلى من هذا التوحيد يمكن للمرء أن يتخيّلها، وهذه الدرجة غير مرتبطة بشفاعة بعينها.

لا يعني هذا أن الإسلام ليس على استعداد لتقدير الديانات الأخرى والتسامح فى وجودها، خاصة أن هذا التعدد والتنوع فى الديانات مشيئة الله وشأن من شئونه فى خلقه، كما ورد فى الآية ٤٨ من سورة المائدة. ويتضمن القرآن مبدأ يصلاح ليعكم العالم، وهو الوارد فى الآية ٦٧ من سورة الحج: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَيْنِي رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾. ويقول الله تعالى فى آخر آيات هذه السورة (٧٨): ﴿وَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جَهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حِرْجٍ مَّلَّةٌ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمُ هُوَ سَمَّاَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَقْرَبُوا الزَّكَاةَ وَأَعْصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مُوَلَّكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

كما ورد فى الآية ١٩ من سورة آل عمران والآية ٢٨ من سورة الفتح.

يتفق الإسلام مع فكر ما بعد الحداثة فى وجود تناقض لا مجال للتغلب عليه بين

(٢١) Die Welt : Küng ١٩٨٩/٣/٦ ص ١٣.

(٢٢) خاتمى: لا تتحكر أصحاب ديانة وحدها كل الحقيقة. FAZ ١٩٩٨/٩/٢٦ ص ٣٥.

التطور التاريخي والقيم الصالحة لكل زمان. فما بعد الحداثة ترفض فكرة وجود قيم غير مرتبطة بزمن محدد، أى قيم تعلو فوق الزمن لتصبح لكل زمان. أما الإسلام فيرى أن التاريخ ما هو إلا حقب فانية. مثل الحداثة وما بعد الحداثة. لكن الباقي المستمر تعاليم الله. لذلك أعتقد أن علينا أن نتعامل مع التغوير بشكل مغاير عندما تتحدث عن الإسلام.

فلم يأت التغوير بالضوء ليخترق ظلمات التقاليد الإسلامية ونصولها من قرآن وسنة، بل إن هذه القيم والقواعد من قرآن وسنة هي التي انبعث منها النور والضياء.

إن المسلمين يتعاملون بشك وريبة مع ما بعد الحداثة لأن تسامحها وقبلها الكل شيء ينتهي إذا ما كان هذا الأمر متصلة بالإسلام.

فالMuslimون لا يتمتعون بأى مزية من مزايا الأقلية في أوروبا الغربية.

فالحداثة وما بعد الحداثة تتعامل مع فوبيا الإسلام وحالة الذعر المرضي منه بنفس الشكل والأسلوب، والمثال الواضح على ذلك هو علم اجتماع البيانات.

فإذا كان الآباء والمؤسسو من أمثال Emil，Max Weber، Karl Marx، Georg Simmel و Durckheim قد انطلقو في تصوراتهم عن اختفاء منظم للإسلام، فإن خلفاءهم اليوم من يروجون لما بعد الحداثة لا يختلفون عنهم، حيث لا يظهرون أي تفاهم أو تعاطف أو ود للإسلام. إنهم لا يروجون لشعارات مثل «كنيسة واحدة، إله واحد وملك واحد» ولكنهم يرفعون شعارات «ثقافة واحدة، تكنولوجيا واحدة، نظام عالمي واحد». مجمل القول: أينما يول المسلمين وجوههم فإن شبح العولمة يتراهم لهم بوضوح.

لا تفرقنا على أساس اللون

شعار: لقد التقى بناس يعدون بيضا في أمريكا، بل وتحدى إليهم حتى تناولت طعامي معهم. ولكن موقف الرجل الأبيض كان قد تلاشى من عقولهم، بسبب هذا الدين (الإسلام).

(مالكولم إكس / مالك الشياط في رسالة من مكة)

١٠

نود هنا أن نتطرق إلى موضوع العنصرية؛ لأن هذا موضوع يتلهف المسلمين شوقاً إلى تناوله لما يشيره عندهم من غضب وشجون. ولكن تعرف السبب، فما عليك إلا أن تستقل طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا الألمانية في طريقها من إستنبول إلى فرانكفورت، وستستمع بطبيعة الحال من مكبرات الصوت إلى من يعلن عن وجود مراجعة لجوازات السفر قبل الوصول والهبوط من الطائرة، أي أن هذه المراجعة تتم في الطائرة. وإنك لترى بعينيك أن حاملى جوازات السفر الألمانية وجميع الركاب الذين لا يدل مظهرهم الخارجى على كونهم عرباً أو أتراكاً يشار إليهم ليمرروا بسلام. يطلق موظفو الأمن الأمريكيون على هذه العملية *Passenger profiling*، أي تحديد هوية الراكب من خلال وجهه، وبالتالي معاملته بما تستحق هويته هذه؛ لأنه يمكن أن يحدث لك ما حدث لى في مطار شيكاجو، حيث فاتتني الطائرة وأقلعت بدوني؛ لأننى كنت مضطراً للوقوف في أثناء مراجعة جوازات السفر خلف أناس ذوى مظهر عربى، أو لهم لحية، أو يرتدون غطاء الرأس.

ولم تكن هناك ضرورة لإعلان عام 1996 «عاماً أوروبا ضد العنصرية»، لكن

يتبه الناس ويذكروا أن العنصرية في صورتها الشوفينية - مثلا - قد عادت إلى الظهور في العالم من جديد.

لقد أعلن هذا البلاء الذي عرفه القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن عودته بقوة وشراسة أكثر . والنصيب الأعظم في العالم الإسلامي يذوقه البوسنيون والأكراد والفلسطينيون والشيشانيون ومواطنو كوسوفا وكشمير .

لقد تم حسبان اختفاء العنصرية نتيجة لعقلانية الحداثة ، والتي لا تجتمع معها العنصرية ، أمراً مفروغاً منه ، وواحداً من الوعود الكثيرة التي لم تف بها الحداثة . فما نراه اليوم من تفرقة ذات تسميات مختلفة ، مثل القومية والنازية وغيرها ، ما هي إلا تقسيمات على لحن بدأ منذ عام ١٤٩٢ متمثلاً في عنصرية دينية إثنية منظمة ضد اليهود وال المسلمين . وهذه العنصرية مستحبع أحد مصادر شقائنا ، وأحد الأخطار المهددة لنا في القرن الحادى والعشرين ، على الأقل في صورة أساطير ذات مركبة أوروبية وتفرقة على مستوى العالم بين الحضارة الغربية والبرابرة الآخرين (Barbaric Others) (ضياء الدين ساردار) .

وهذا التطور لا يدعو إلى الدهشة إذا ما كان الإنسان واعياً للعوامل المؤثرة في هذا الصدد : تؤثر انتماءات الإنسان العائلية وتوجهاته تأثيراً كبيراً من ناحية ، ومن ناحية أخرى يتعرض الشعور القومي في الأزمنة المختلفة للتغيرات تأخذ أشكالاً مختلفة في التعبير . فالشعور الوطني (الذي لم يصل إلى حد التعصب القومي البغيض) في آخر الأمر ليس إلا فكرة الانتماء العائلى متداً إلى القبيلة . وهذا الشعور سلوك طبيعي ، لكنه يخدم عملية تأمين الفرد والحيوان . وتنظر الأمة نفسها في صورة العائلة الممتدة أو العائلة الكبيرة . والولاء للرابطة التي تتيح لـ التعايش الاجتماعي وتنمى حياتى وتؤمن سبل معيشتى لهو فضيلة تحترم بلا شك .

والوجه الآخر لنفس هذه العملة مقبول ومعروف تماماً ، وهو أن الخوف والرعب من الغريب - الذي لم نعرفه أو نتعرف عليه بعد - هو في جوهره رد فعل طبيعي ، بل ضروري . ويقول القرآن مشجعاً الإنسان لكي يتغلب على هذا الخوف في سورة الروم الآية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَسْتَكْمُ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيات للعالمين ﴿﴾ . ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَبَائِلَ لِتَعْارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُم﴾﴾ .

يعرض القرآن معترفًا بهذه الحقيقة صلة الدم والنسب التي تتجزأ عن الانتساب أو الزواج كقيمة تستحق الحماية كما جاء في الآية ٥٤ من سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسِيًّا وَصَهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ . وكذلك سورة النساء الآية ١: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُفُسٍّ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ . وهذا أيضًا بين الإخوة والأخوات الذين يؤلفون مجموعة دينية وجماعة إيمانية إسلامية، (كما ورد في الآيتين ٧٤، ٧٥ من سورة الأنفال ﴿﴾ والأية ٦ من سورة الأحزاب)﴾﴾ .

والقرآن يقر أن أفراد العائلة قريون بعضهم من بعض بصلات القربي و بما يتعلق بحقوق الميراث وكذلك في بعض النواحي الأخرى، لذلك أمكن لداري بابادي مفسر القرآن أن يقول إن علاقة القربي تُعدَّ أهم مؤسسة اجتماعية في الإسلام.

ولكن كل جماعة متماسكة «in group» كما يطلق عليها علماء الاجتماع تخلق مجموعة «out group» مجموعة من الخارج لهذه المجموعة، هذا التحديد ضد الآخر الذي يمكن أن يؤدي إلى استبعاد الآخر. وهناك معايير تصلح لهذا مثل مكان السكن، والطبقة الاجتماعية، والخبرة التاريخية، والديانة، والجنس، واللغة (يكفي اختلاف اللهجة) وكذلك لون العينين، والشعر والبشرة. وكل منها عضو في جماعات متماسكة عديدة، ونستطيع أن نلحظ هذا إذا ما شاهد المرء منا مبارأة كرة قدم وانحاز لفريق دون آخر. هذا السلوك البسيط والطبيعي من الممكن أن يتطور ليأخذ أشكالاً مذابح يعجز اللسان عن وصفها، بل ويخرس بسبب وقوعها لسان أي إنسان، مثل «التطهير العرقي» الذي تعرض له المسلمون في كل من البوسنة والهرسك وكوسوفاً. هذه الفظائع تشبه الأهوال والمطاردات التي لاقاها المسلمون واليهود على أيدي المسيحيين في القرن السادس عشر.

﴾﴿ آية [٢٢] من سورة الروم . آية [١٣] من سورة الحجرات .﴾﴾

﴿﴿ يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أُولَى بِعِصْمَانِيَّةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .﴾﴾

﴿﴿ يقول الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أُولَى بِعِصْمَانِيَّةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولَيَّانِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ .﴾﴾

لقد فاقت أعداد اللاجئين نتيجة أسباب دينية عرقية في النصف الثاني من القرن العشرين، أي أعداد أخرى مسجلة في التاريخ.

قد تسمى القرن العشرون بحق: قرن اللاجئين والمشريدين "displaced persons". لا يجرنا كل هذا - من منطلق المسؤولية الأخلاقية - إلى الحديث عن إبادة الهندوسيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأحوال العبيد من الزنوج في الولايات المتحدة وصولاً إلى الحرب الأهلية هناك؟

إن مجرد ترديد مظاهر العنصرية، هو ضرب من ضروب الاستسهال وذكر حوادث معروفة، ولكنها تكتسب أهمية إذا كان ذكرها مسؤدي بنا إلى هذه النقطة: هناك عنصر واحد فقط قادر على تحديد جميع مصادر التعصب والعنصرية، ألا وهو الدين.

كمبدأ عام، أظن أن كل العقائد السماوية الحقة قادرة على التغلب على الصراعات الإثنية، حتى وإن كان التاريخ يثبت عدم قدرة المسيحية على ذلك، وكذلك لم يفلح الفكر الشيوعي العالمي المعادي للإمبريالية في تحقيق هذا.

ولذلك، فمن المهم أن نذكر أن الإسلام قادر فعلاً - وأنه كان دائمًا قادرًا - على تهميش العنصرية، بل وإزاحتها تماماً. لقد تحقق هذا في بدايات الإسلام عندما عرض بعض نفر من أهل يثرب (المدينة فيما بعد) على الرسول الهجرة إلى يثرب، وعرضوا عليه الحماية فيما عرف بيعته العقبة الأولى والثانية عامي 621 و 622، ولم يعرض عليه أهل يثرب مجرد اللجوء، ولكن الحماية والأخوة وانضمام المسلمين تحت قيادته السياسية في مدنهما التي تضم سكاناً من العرب واليهود^(١)، متغاضين بذلك عن الانتفاء القبلي، مجتمعين فقط على الإيمان المشترك بدين واحد^(٢).

ولقد بدأ بناء أول كيان جماعي سياسي في الإسلام بحادثة بيعة العقبة؛ لأن بعد هجرة الرسول إلى يثرب، قام بها أول كيان سياسي يضم أناساً يجمعهم دين واحد، متناسين جميع العناصر الأخرى التي تشكل انتفاءات الإنسان للجماعة،

(١) نجد شرحاً وافياً للأحداث التاريخية ليعتني العقبة عند Charles Le Gai Eaton ص: ٢٠٩-٢١١.

(٢) لم تكن هناك أهمية لكون أم محمد أصلاً من يثرب.

من انتماء عشائرى وقبلى وعائلى ورابطة الدم. ولقد ذكر القرآن الرابطة التى ربطت المهاجرين بالأنصار وسماهم أولياء بعض. كما ذكر قرب الرسول من المؤمنين على أساس الإيمان المشترك. فورد في سورة الأنفال الآية ٧٢ عن علاقة المهاجرين بالأنصار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آتَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ...﴾ أما عن علاقة النبي بالمؤمنين، فتحدثنا سورة الأحزاب الآية ٦: ﴿الَّتِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾.

وجاء في الحديث الصحيح: «تنكح المرأة لأربع: مالها، وحسبها، وحملها، ولديتها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» (*).

ولقد تخطى القرآن في وصفه صلة الإيمان وقوتها إلى أنه وضعها قبل الصلة العائلية، حيث ورد فيه في سورة التغابن الآية ١٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًا لَكُمْ فَاحذِرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفُحُوا وَتَقْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ويؤكد القرآن أن الأزواج والبنين لا ينفعون المرء يوم القيمة وأنه لن ينفعه سوى عمله وإيمانه، كما تقول الآية ٣ من سورة الممتحنة: ﴿لَنْ تَنْفَعُكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أُولُادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (**).

ولذلك يُعدُّ اختيار أفضل الناس وتحديد أفضليتهم هذه على أساس التقوى سلوكاً إسلامياً ومثالاً يحتذى، فالتفوى يتضاءل أمامها النسب والحسب والغنى وغيرها. ولذلك اختيار بلال العبد الأسود لأن يكون أول مؤذن في الإسلام، والعبد سلمان الفارسي أول وزير للمالية، ويكون لامرأة هي عائشة الكلمة العليا في قيادة جيش في موقعة الجمل عام ٦٥٦ في مواجهة على بن أبي طالب.

ولقد سار أمراء المؤمنين على نهج اختيار الأتقيى والأفضل دون النظر إلى انتساعات عرقية. حتى في عهد العثمانيين لم يكن معظم وزراء الدولة من الأتراك

(*) البخاري [٥٠٩٠]، ومسلم [١٤٦٦/٥٣].

(**) وتقول الآيات [٣٤-٣٦] من سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَقْرُرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخْيَهِ (٣٤) وَأَمْهُ وَأَيْهِ (٣٥) وَصَاحِبَهُ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾

بل من الألبان ، واليونانيين والكردات والشركس . ولم يكن الانتماء العرقي يؤدى دوراً مهماً فى تولى مناصب حكم أو جيش ، والمثال على ذلك صلاح الدين الكردى .

كما أن المتصوف ابن عربى القادم من الأندلس عاش وعمل مكرماً فى دمشق حيث مات . كما شهدت دمشق كذلك حياة الصوفى ورجل الدولة المناضل عبدالقادر الجزائرى حيث توفي هو الآخر هناك .

لم يستطع لورانس العرب خلال الحرب العالمية الأولى أن يُذكى من نار القومية العربية إلا بسبب ظهور التعصب التركى للقومية الطورانية أولاً ، التى عبر عنها شباب الأتراك الملتدون حول أنور باشا والذين لم يسلم من ظلمهم واضطهادهم غير الشعوب العثمانية .

ولذلك لا نستطيع أن نفهم مشكلة الأكراد اليوم إلا إذا فهمنا الرابطة الإسلامية التى حكمت هذه المنطقة حتى سقوط الدولة العثمانية . وبالنظر إلى كثير من الدول العربية والإسلامية القائمة اليوم ، نستطيع أن نقول إن هذه الدول - غالبيتها من صنع الاستعمار - لا تُعدُّ دولاً قومية ذات أنسن وطيدة . ونظرياً ، ما كان لهذه الدول أن تكون أصلاً .

أجمل تعبير للمساواة وانعدام التفرقة بين أفراد الأمة تصادفه سنوياً فى أثناء الحج . إن وجود ملايين المسلمين فى مكان واحد يجمعهم إحساس واحد بالمساواة والانتماء ووحدة الهدف ، وقد أتوا من مختلف قارات العالم ليؤدوا فى ظل ظروف قاسية شعائر دينهم ، يصلون معاً ويدعون معاً ويعيشون ويتناقشون معاً ، فهو تجربة فريدة من نوعها ذات طبيعة سامية ، حتى إنها استطاعت برقتها وسموها وما تتضمنه من كل المعانى والدلائل النبيلة أن تحرر مالكولم إكس ، هذا الإنسان النشط ذو البشرة السوداء ، من عنصرية العنفية البغيضة . فالحج هو أكثر الأعمال تأثيراً فى نزع أي فكر عنصري ، وأقدر الأفعال على مواجهة العنصرية .

لقد عاصرت مثل هذا الموقف ، أى أن تلاشى العنصرية بفضل الدين ، ولكن ليس فى مكة بل فى سان فرانسيسكو عام ١٩٨٥ . فلقد عهدت إلى جماعة من

المسلمين السود أن أؤمهم في الصلاة... أنا الواقد حديثاً ذو البشرة البيضاء، ولكن لم يكن ذلك يمثل أهمية، فقد اختاروني؛ لأنهم رأوا أنني أكثر منهم علمًا.

وهذا الفكر هو الذي جعل في إمكانية المسلمين إصلاح العلاقات والنفس المريضة في الجيتو، أي المناطق المغلقة على السود فقط، والتي تضيق بالمشكلات مثل المخدرات والعنف، وكذلك الوضع في جنوب إفريقيا.

وهناك مثال رائع في ماليزيا للتعايش الملايوين والصينيين والهنود بعضهم مع بعض في سلام، وكل متحفظ بلغته وملبسه وتقاليده وطعامه ودينه، كل هذا بفضل الإسلام الذي يحارب العنصرية.

يستطيع المسلمون أن يقولوا ويفخروا أنه بالرغم من رفضهم للصهيونية وللتتوسع الإسرائيلي، فإن بلادهم لم تشهد على مر التاريخ إلى يومنا هذا أي عداء للسامية. ولا يعود هذا إلى أن العرب أنفسهم ساميون، ولكن لأن القرآن يطالب كل مسلم باحترام غيره من أصحاب ديانات التوحيد السماوية.

فالإسلام لا يرفض الإجبار بكافة صوره في مسائل الإيذان فقط: «لا إكراه في الدين» [البقرة: 256]، ولكنه كذلك يحمي ويضمّن لجميع الديانات الأخرى وجودها وأمنها، كما ورد في الآية ٤٨ من سورة المائدة (*).

لقد وضحت في مقدمة حديثي أن جذور العنصرية تضرب بشدة في النفس البشرية، لدرجة أن الإسلام في واقع الأمر وبالمارسة (وليس النظرية) لم يستطع إبادتها تماماً والقضاء عليها القضاء المبرم. والادعاء بعكس ذلك يعادل الادعاء بأن الإسلام نمك من استصال الشر كله من العالم.

فمنذ البداية، عند اختيار الخليفة الأول للMuslimين بعد وفاة الرسول عام ٦٣٢، كان من الواضح أن المهاجرين يتوقعون أن يسلم الأنصار بأحقيتهم -أي المهاجرين- في أن يكون الخليفة منهم، ولقد كان، فتم اختيار أبي بكر ليكون الخليفة الأول.

ثم تحول أمر الخلافة منذ الأمويين إلى بقاء الحكم ضمن طبقة من النبلاء القرشيين، وصار الأمر كذلك حين توارث الأمويون الخلافة. سبق قيام الخلافة

(*) يقول الله تعالى: « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة».

الأموية نزاع طويل بين الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ومعاوية بن أبي سفيان الذي نازعه الخلافة. وكان وراء هذا الصراع أسباب ليست بالأسباب الفقهية، أو السياسية فقط، ولكن الصراع كان شكلاً جديداً للصراع القبلي، فلقد امتد منذ ظهرت النبوة في بني هاشم. وغيره بني أمية وكبيرها أبي سفيان. حتى الصراع الذي انتهى باغتيال الإمام علي، حيث لم يقبل بنو أمية أن يكون من بني هاشم الرسول وال الخليفة.

أما العباسيون الذين أزاحوا الأمويين عن الخلافة وأقاموا خلافتهم، فلم يختلفوا كثيراً عن الأمويين في أمر من يتولى الخلافة؛ لأنهم وإن بدت حركتهم حركة دينية ثورية، إلا أنهم تمسكوا بأن يكون الخليفة من قريش، وعلى وجه التحديد من بني العباس. ولقد امتد هذا التقليد حتى قيام مسليم الأول باحتلال القاهرة وإن ادعى لنفسه لقب الخليفة بالإضافة إلى احتفاظه بلقب السلطان.

ومن الجدير بالذكر أن أشير على هامش هذه المداخلة، أن الفكر الشيعي يهدف آخر الأمر إلى نظام وراثي؛ لأنهم يظنون أن الشخص الذي يأتي على رأس المؤمنين ومن له حق قيادتهم لا بد وأن يكون من نسل محمد من خلال توارث أبناء فاطمة - ابنة محمد - وعلى لقانة خلافة المسلمين وقيادتهم.

ولقد حدث في واقع الأمر في تاريخ الإسلام أن تعرضت مسألة مساواة البشر لتساؤلات عديدة، خاصة بعد التوسعات الهائلة التي شهدتها الدولة الإسلامية، ودخول العديد من غير العرب في دين الإسلام. ولقد سمي هؤلاء بالموالي. ولقد عانى هؤلاء كثيراً من كونهم مسلمين درجة ثانية، أي درجة أدنى من المسلمين العرب، ولقد ظهر هذا في تقسيم الفئات وتحديد دفع الضرائب. ولقد ثار الموالي على هذا الظلم الواقع عليهم والذي يتعارض تماماً مع تعاليم الإسلام، وقاموا في القرنين التاسع والعشر بحركات تمرد معادية للعرب عرفت بالشعوبية^(٢).

هذه الحركات لم تمت كلياً بين المسلمين الذين لم يقبلوا أن يتميز العرب عن سائر المسلمين، أي أن تكون هناك تفرقة عرقية.

لقد استخدم ابن خلدون في مقدمته الشهيرة كلمة «عصبية»، ليعبر بها عن

(٢) تعريف عقد Hans Wehr ص ٦٥٧.

شعور شعوبى قوى بالانتماء، هذا الشعور الذى يجمع حوله الكثير من المجموعات المختلفة فى العالم الإسلامى، وكان رأيه هذا ناتج ملاحظات موضوعية واقعية كثيرة.

من يستطيع أن ينكر أن العرقية أدت دوراً مهماً فى تجارة العثمانيين للبعد مع فينسيا، وبخاصة تصديرهم إلى أمريكا؟ إن هذا التاريخ لا يزال يلقى بظلاله على العلاقات بين بعض الدول الإسلامية مثل موريتانيا والسنغال.

وأسوق هنا مثالاً حاضراً معاصرتنا جمِيعاً، وهو حركة طالبان الأفغانية. تلك المجموعة تستمد تعاليها من شاه ولى الله دهلوى (١٧٠٣ - ١٧٦٢) فى الهند ومدرسة ديوباندى Deobandi الهندية المتشددة. لا أنكر أنهم يمثلون ظاهرة دينية باتباعهم أسلوب الحياة العسكرية الريفية التى تتشابه مع حياة الرهبنة. لقد انطلقاً بذوافع أخلاقية من المدراس الواقعة جنوبًا حول كاندهار متوجهين إلى كابل، كما فعل المرابطون البربر فى القرن الثانى عشر عندما انطلقاً من جبال أطلس متوجهين إلى مراكش.

لكن من ينكر أن هذه المواجهات المعاصرة ليست مواجهات دينية فقط بين حركة طالبان المتشددة وربانى وحكمتىار، يقر بأنها مواجهات قبلية بين القوى الأوزبكية والخديشيفية والباتينية^(٤)؟

ولا نستطيع أن ندعى بطبعية الحال عدم وجود مشكلات طبقية بين السكان الأصليين لشبه الجزيرة العربية فى المنطقة الواقعة بين الخليج والبحر الأحمر وبين العاملين فى هذه البلاد من الجنسيات المختلفة. ولكن هذا ليس بالشيء الجديد؛ لأن Carsten Niebuhr لم يستطع فى القرن الثامن عشر أن يتجاهل فى أثناء رحلاته فى الحجاز واليمن وجود تفرقة بين السكان الأصليين والعمالة الوافدة^(٥).

(٤) عن طالبان، انظر الملحق الذى يحمل عنوان «أفغانستان» لتقرير عدديناير / فبراير ١٩٩٧ Muslim Politics Report Nr. M Council on Foreign Relations in New York City.

(٥) Niebuhr: وصف الرحلات إلى جزيرة العرب وبعض البلاد المجاورة. مكتبة مانيس Manesse ذيورخ ١٩٩٢ ص ٣١٨: لا يسمح لكثير من الهاود باصطحاب زوجاتهم معهم إلى اليمن.

وكثيراً ما تستمع لشكاوى مسلمين أوروبيين وأمريكيين حديثي الإسلام من عدم الثقة التي يتعامل بها المسلمون بميلاد معهم، سواء كان هذا داخل الوطن العربي أو خارجه، ولكن هذا السلوك يرجع لتخوفهم من عدم إمام المسلمين المحدد بالعربية، وبالتالي ألا يكونوا على دراية وافية بالإسلام، وليس تعبيراً عن العنصرية.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يسلم من هذا الشك محمد أسد نفسه (بسبب جذوره الأوروبية- اليهودية) وهو علامة في اللغة العربية ولكنه كان مضطراً برغم إنجازاته العلمية في سبيل خدمة الإسلام، للكفاح الشاق حتى يحصل على الاعتراف به.

فقدّر على بعض المسلمين الغربيين أن يكونوا كالموالى في عهود الإسلام الأولى.

ومن هذا العرض نرى أن العنصرية تحاول دائماً التسلل من الأبواب الخلفية، خاصة إذا كان الرفض لها قوياً في الواجهة.

لذلك لا يصح للمسلمين أن يرکنوا إلى أن دينهم يحرّم بل يجرم العنصرية، ولا أن يعتمدوا على الكثير من الممارسات الرافضة لهذه العنصرية في تاريخهم، بل عليهم العمل على إزالة الواقع منها، ومنع حدوثه وفقاً لما يدعوه إله دينهم.

٤٠

بالنظر إلى الطبيعة البشرية والتي تميل إلى الضعف، لم يكن من الممكن تفادي تلطيخ ثوب العالم الإسلامي ببعض البقع العنصرية. ولكن هذا العالم الإسلامي يوفر من منطلق النظرية وبينية كبيرة من خلال الممارسة. صورة ممكّنة للحياة الرافضة للعنصرية. وهذه رسالة موجهة إلى كاتالونيا، إقليم الباسك، والبلقان، ولكن ليس لهؤلاء فقط، ولكنه نموذج يصلح لجماعة من الناس في العالم أجمع، لجماعة يحكم التعامل فيما بينها ومع سواها عنصر واحد فقط هو الإيمان بالله والتسليم له، وأن تغاضي وترفع عن كل العناصر الأخرى. وإنى هنا أردد قول *Jeffrey Lang* المسلم الأمريكي الشهير: «إن الإسلام وإن لم يستطع استعمال شأفة الأحكام المسقّة ذات الطبيعة العنصرية، إلا أنه لا يقرها. وعندما يمارس المسلمين

العنصرية أو يقرُّونها، فإنَّهم يعلمون علم اليقين أنَّهم يرتكبون إثماً كبيراً، ويخرجون بذلك عن تعاليم دينهم. إنَّى أعتقد أنَّ النجاح لم يحالف أيَّاً من الديانات العالمية الكبرى في حربها ضد الأحكام العنصرية المسبقة مثلما حالف الإسلام^(٦).

ومن يتشكَّكُ في ذلك، فليلق نظرة على أيِّ مركز إسلامي يختاره في ألمانيا، حيث يتعامل الترکي مع الشمال إفريقي مع الفلسطيني مع السوري والمصري والبوسني والألباني والألماني بود وحرارة، ويتناسى كلُّ منهم اختلاف جنسيته عن الآخر.

ولذلك، فإنَّى لا أرى من قبيل المبالغة أنَّهى حديثي هذا بأنَّ أقرَّ أنَّ الإسلام الحقُّ الذي يفهم على صحته ويمارس في الحياة بشكلٍ سليم (هذا الإسلام الذي يحمله المسلم في قراره نفسه) إنما يمثل التفريض للشوفونية والعنصرية.

* * *

ماذا يريدون هنا؟

شعار: لا نستطيع أن نحيز رغبات كل أقلية بناءً على مبدأ التسامح.

(تصريح لبيتر فريش رئيس لجنة حماية الدستور لمجلة دير شبيجل *Der Spiegel* العدد ٣٦ لعام ١٩٩٧ ص ٦١).

١٠

لقد طُلب مني منذ عدة سنوات مضت أن ألقى محاضرة متعددة في الموضوع التالي: «ماذا يريد الإسلام في ألمانيا؟». ولقد كان هذا السؤال كما يقول الأميركيون «a loaded question»: أي أن السؤال نفسه يتضمن الإجابة السلبية. ولقد قمت مواجهته بأمرتين، أولهما: لا يوجد إسلام هنا. ثانية: أن الإسلام لا يتمى إلى هذا المكان.

أى أن مجمل القول: ليس للإسلام مكان هنا، ولا ينبغي أن يبحث لنفسه عن ذلك؛ لأنه غير مرغوب فيه هنا على الإطلاق.

ولذلك، فالامر يستحق منا الإشارة إلى التاريخ الطويل للإسلام ولو جوده في أوروبا. وتوضيح أمر هذا الوجود من خلال ذكر المعالم المتبقية الدالة على تقدم فن العمارة الإسلامية في كل من صقلية وإسبانيا والبلقان ووسط آسيا.

فلقد كانت إسبانيا لعقود طويلة إسلامية. عقود تفوق في عددها العقود التي حكمتها فيها الكاثوليكية (استمرت إسبانيا حوالي ثمانية قرون يحكمها المسلمون، أما الكاثوليك فحكموا الأندلس منذ عام ١٤٩٢ فقط، أي خمسة قرون فقط).

يعيش حوالي ٣٠ مليون مسلم في أوروبا، ويعيش ما يقل عن نصف هؤلاء في

أوروبا الغربية. وفي موسكو، فيعيش فيها حوالي نصف مليون مسلم يتمنى كثير منهم إلى التتار. أما في الولايات المتحدة وكندا، فيكاد عدد المسلمين يبلغ ثمانية ملايين مسلم.

ولا يستطيع المرء أن يتجاهل وجود البنية الأساسية للمسلمين والدالة على وجودهم، مثل: المساجد والراكز الثقافية والمدارس والاتحادات ودور النشر والمكتبات والجザريين والمدافن.

إذا أقيمت منارة في كل مكان يجتمع فيها المسلمون لأداء الصلاة، لأصبحت أوروبا أشبه ما تكون بإقليم مسلم إذا ما نظر المرء إليها من فوق. لا شك في الأمر: الإسلام موجود.

فهل يبقى كذلك؟

ليس من التخييل أبداً أن يشهد وجود الإسلام في الغرب تراجعاً ما، فلا يمكن إلغاء هجرة العمالة الوافدة من المسلمين إلى أوروبا، ولا وقف هجرة الأكاديميين المسلمين إلى أمريكا الشمالية، ولا تعطيل استعجابة الأعداد الغفيرة من الأفروأمريكيين لدعوة الإسلام واعتناقهم إياه.

ولكن من المرجح أكثر أن تتوطد جذور المهاجرين في بلاد المهاجر وتتعمق هناك، وهذا ما حدث عندما أصبحت محامية من أصل تركي أصغر أستاذة جامعية في مادتها بإحدى جامعات ألمانيا عام 1998، وهذا ما جعل ألمانيا تعهد بتمثيلها في مسابقة الغناء الأوروبية عام 1999 إلى فرقة موسيقية تركية من برلين.

ولكن إذا تخيلنا أن يغادر كل المهاجرين المسلمين الغرب، فهل من الممكن أن يختفي الإسلام هناك من جراء ذلك؟ الإجابة هي النفي طبعاً، بالنسبة للدول كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا؛ لأن الجيل الثاني والثالث من المهاجرين قد اكتسب كل حقوق المواطنة في هذه الدول، وهذه الأجيال تقف على أرض صلبة، وقد وطدت جذورها في بلاد المهاجر هذه.

أما ألمانيا فتُعدُّ حالة فريدة في هذا الصدد؛ لأن الأتراك المقيمين هنا، حتى الجيل الثالث منهم، ما يزال شاخص البصر إلى تركيا. ولهذا أسباب كثيرة. فلم يكن

الأتراك على دراية باللغة الألمانية عند قدومهم إلى بلد المهاجر، على تقدير المغاربة الذين حلو بفرنسا، والهنود باكستانيين الذين استوطنوا إنجلترا.

كذلك لأن تركيا على مقربة، فالمسافة لا تبعد سوى ساعتين بالطائرة من ميونيخ، وهي مسافة تغرس بالتواصل والسفر المتكرر، كما أن تركيا أخذة في التطور الاقتصادي وذات شواطئ جذابة ومناخ مغر. ولكن هناك أمران هما الفاصلان في ارتباط الأتراك بتركيا وعدم اندماجهم في بلد المهاجر: وبعد انفصال تركيا عن الرابطة الإسلامية ومحاولة الدولة التركية محو كل ارتباط لها بالإسلام، ازداد الشعور القومي التركي خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، حتى صار شعار: «إنها السعادة غامرة أن تستطيع أن تقول أنا تركي» راسخاً في الوجدان، وليس معلقاً على الحوائط فقط. ولم يسلم المسلمون الأتراك من توغل هذا الشعور الشوفيني في نفوسهم. وكان لهذا أثره البالغ، فلم يستطع المهاجرون الأتراك أن ينفصلوا نفسيًا وداخلياً عن موطنهم. ومن ناحية أخرى، ارتبط كونهم مسلمين بكونهم أتراء بشكل وثيق.

وكان لهذا أثره في تشكيل مشهد المهاجرين ووضعهم في ألمانيا. وغير هذا المشهد بنتائجتين، أو لاهما: أن عمل المراكز التركية الإسلامية في ألمانيا تركز على الدعوة بين الأتراك والأوساط التركية؛ ولذلك فإن المراكز التركية ليس لها تأثير على محيطها الألماني مقارنة بتأثير المراكز العربية على بيئتها الألمانية المحيطة بها.

والنتيجة الثانية أن الأتراك المسلمين المقيمين في ألمانيا يشاركون في النزاعات والمجادلات السياسية الدائرة حول دور الإسلام في وطنهم، حتى بات البعض منهم يظن أنه يجب على تركيا إعادة أسلمتها من خلال ألمانيا.

هناك عوائق أخرى أمام فاعلية المسلمين الأتراك في ألمانيا وتأثير نشاطهم على محبيتهم، وهي أن هؤلاء الأتراك منقسمون إلى جماعات عديدة، ترتبط تلك الجماعات بشخصيات مؤسسة ورائدة، مثل ارتباط حركة نوركولوك Nurculuk بشخص سعيد نورسی (1877 - 1960)، وجماعة سليمانيكلار Süleymaniclar بشخصية سليمان توناهان Silleyman Tunahan، وجماعة IGMT بشخص نجم الدين أربكان. وهناك معلمون متطرفون يدعون لأنفسهم، مثل أحمد هولوسى

Ahmed Hulusi . ولكن هذا لا يستبعد أن غالبية المسلمين الأتراك أصبحوا أكثر ارتباطاً بلاد المهاجر منذ عام 1999 كرد فعل للنتائج والتطورات في وطنهم، وللتطور الذي شهدته قانون الجنسية الألماني، وبالتالي أصبح لهؤلاء تأثير ديني أقوى على محیطهم.

٢٠

ويعدُّ سؤال ماذا يريد الإسلام في الغرب صياغة لسؤال: ما شأنه أصلاً بالغرب؟ ويتضمن هذا السؤال اعتقاداً خاطئاً بأن الإسلام ديانة عربية، وبالتالي شرقية، وهي بصفتها هذه لا تصلح لأوروبا وأمريكا. وهذا التجني كثيراً ما يصيب علماء التاريخ الثقافي بالغثيان.

لقد نشأ الإسلام مثله مثل اليهودية والمسيحية في الشرق الأدنى، والكتب المقدسة لهذه الديانات الثلاث أُنزلت بالعبرية والأرامية وبالعربية. وهي كلها مشتقة من اللغة السامية نفسها. ومثله مثل المسيحية، فقد انتشر الإسلام في أرجاء متفرقة ومساحات واسعة من العالم.

ولذلك، فالمسلمون العرب يمثلون أقلية داخل الأسرة الإسلامية العالمية، مثلهم مثل مسيحيي الشرق الأدنى بالنسبة للمسيحية في العالم أجمع. ولكننا إذا قارنا الإسلام؛ بال المسيحية من ناحية التاريخ الفكري، لوجدنا أن المسيحية تعد دينًا شرقياً أكثر من الإسلام؛ لأن المسيحية - على تقدير الإسلام - استواعت عناصر كبيرة - بجانب ميراثها اليهودي - الموسوي (نسبة إلى النبي موسى) من الديانات ومدارس الفكر الشرقية مثل الزرادشتية، والمانوية، والمازدكية، والأفلاطونية الجديدة، والغنوصية، والعبادات السرية. الرومانية وتأثيرات إيرانية.

ففكرة التجسيد والثالوث، والأسرار الإلهية، والرهبة والكهنوت، والبخور والقداس، والموقف السلبي من الجنس، كلها موروثات شرقية قديمة.

وإذا تعاملنا مع الإسلام بمعايير الأساس للتنوير وهو العقلانية، لأثبت الإسلام أنه مهيأ تماماً ليتماشى مع التنوير.

الإسلام - مقارنة بال المسيحية - يخلو من الأسرار والغموض . فالإسلام لا يعرف الذنب الموروث ، ولا التجسيد ، ولا الثالوث ، ولا موت المخلص ، ولا رحلة يسوع السماوية ورحلة مريم السماوية ، ولا وجود الله متمثلاً في النبيذ والخبز ، ولا التخلص من الذنوب عن طريق التعميد ، ولكنه يعرف معجزة الوحي القرآني فقط .

وفي آخر الأمر يستطيع الإسلام أن يثبت بالدليل القاطع مساهمنته في تطور الحضارة الأوروبية وما توصلت إليه من إنجازات . فتأثيره أعمق وأبلغ من اليهودية ، ويكاد يتساوی مع تأثير الحضارة الإغريقية والهellenية . ونحن لسنا بصدده أن نثبت مثل Sigrid Hunke أن شمس الله تسقط على الغرب ، ولكنني أدعو القارئ الغربي إلى أن يتذكر أن نظام الأرقام الذي يستخدمه (بما فيه الرقم صفر) أبجزه عالم رياضيات مسلم . وأن الكثير من علم الطب وأغاني التروبيادور ، وكذلك معرفته لفلسفة أرسطو إنما يرجع الفضل فيها لل المسلمين . ذلك ، وغيره كثير . وهكذا يصبح الحديث عن أوروبا المسيحية - الرومانية وحضارتها الغربية اليهودية المسيحية غير علمي أو موضوعي ، وإهانة لل المسلمين ، وجحوداً لفضلهم . فالأصح أن نتحدث عن الفكر الإنساني اليهودي ، المسيحي ، الإسلامي .

٤٠

إذن فوجود الإسلام وحضوره حقيقة لا نقاش فيها ، بل هو كذلك وجود مسوغ ؛ فالإسلام له كل الحق في الوجود .

ولكن ماذا يريد الإسلام ، غير أن يعترف به كدين لأقلية مهاجرة ، وأن يكون هناك تسامح ما في هذا الوجود ؟ ولكن إذا كان هذا وحده هو مده ، فإن هذا يعده هنا في الغرب بالشيء الكثير ؛ لأن الإسلام يرهق حتى الآن قدرة التسامح وتقبل الآخر ، ويحملها ما لم تتعود عليه في الغرب ، حتى وصل بها إلى أقصى حدود طاقتها ؛ لأن هذا الغرب (خصوصاً أوروبا) صار منذ زمن ، منطقة لا تعرف إلا انتشار دين واحد . على عكس المشهد الديني المتعدد في العالم الإسلامي - وبالتالي ليس لها خبرة ممارسة التنوع الديني ، وما يتطلبه من تقبل الآخر والتعايش معه .

لقد دارت حروب شديدة بين الكاثوليك والبروتستانت الألمان والتي عرفت

بحرب الثلاثين عاماً (1618-1648)، كبدت هذه الحروب الشعب الألماني خسائر فادحة. ولقد أدت تفصيلات لاهوتية دقيقة من قبيل: هل نقول عند القربان في القدس «إنه جسدي»، أو «إنه يعني جسدي»، إلى الحكم على الناس إما بالموت، وإما بالحياة! ولقد امتدت مظاهر الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت الألمان إلى عهد المستشار أوتو فون بسمارك Otto von Bismark في أثناء الحرب الثقافية، حيث كانت أصابع الاتهام موجهة إلى الكاثوليك الألمان بتعييدهم لروما، وأن الأخيرة هذه تحركهم، فعانيا هؤلاء الكاثوليك من اتهامهم بأنهم «المان غير صالحين». ولكن استطاعت الفرقان في آخر الأمر أن تصالحا وأن تتعايشا في سلام ووفاق، وليس أدل على ذلك من وجود دور للعبادة لكل منهما، تقف إحداهما مقابل الأخرى.

فما الذي يتوقعه المسلمون هنا من معاملات في ظل هذه المؤشرات، خاصة أنهم أكثر اختلافاً عن غالبية الألمان عما كان عليه الكاثوليك آنذاك؟ كما يعتقد الكثيرون أن المسلمين يتم تحريكهم من مكة.

فهل سنرى يوماً مسجداً يقف بالقرب من كنيسة كاثوليكية تقابلها كنيسة بروتستانية؟ هل ينضم الجامع إلى مشهد الكنسيتين المختلفتين اللتين تتفانى إحداهما قبلة الأخرى رمزاً للتعايش والتوافق؟

هل سيتحقق هذا، أم سيتم نبذ الإسلام كما لو كان جسماً غريباً عن هذا المجتمع؟

هناك أربعة مجالات يظهر فيها اختلاف المسلمين عن الألمان، وهذه الاختلافات تشير ردود فعل أشبه ما تكون بردود الفعل الهisterية:

١- من السهل التعرف على المسلم من مظهره الخارجي. فهناك ما يميزه مثل: لحية الرجل وغطاء رأس المرأة، والشكل المميز للجنوبيين وذوى الأصول الممتدة إلى الشرق الأدنى، نطق اللغة، بعض المفردات العربية التي يرددها المتحدث في أثناء حديثه (مثل: إن شاء الله، الحمد لله، ماشاء الله، سبحان الله) وملابس غريبة عن أهل هذه البلاد، ألمانيا، فغطاء الرأس مثلاً يثير الأعصاب بشكل ملحوظ، مع العلم بأن تعداد السكان الأجانب يبلغ حوالي ٩٪.

٢- الأمر الثاني هو أن المسلمين يشيرون الأعصاب، بل يتلفونها؛ لأنهم لا

يتمكنون من أداء أشياء بسيطة يأتي بها كل فرد هنا، مثل عملية الشراء من السوبر ماركت، فهم يقرءون كل المكونات المكتوبة على البضائع ليتبينوا خلوها من أي من متجانسات الخنزير، كما أنهم يتركون الأيس كريم - المقدم لهم في أي مطعم دون أن يمسوه إذا ما تبين لهم أن فاكهة الكريز - المحلي بها الأيس كريم - قد تشربت بأى نوع من الخمور. كما أنهم أحيانا لا يأكلون سوى السمك؛ لأن اللحم، وحتى لحم الدجاج، من حيوانات لم تذبح وفق شريعتهم، وإذا تذكروا من ذلك فإنهم يردون تناول الطعام وهم جلوس على الأرض ويتناولونه بالأيدي دون استخدام أدوات المائدة، وإذا ما أخذ فرد في تدخين سيجار وهو بينهم، فإنه يشعر من جراء نظراتهم بتأنيب الضمير.

٣- يصبح هؤلاء المسلمين شديدي الإزعاج وكثيري المطلبات إذا ما تعلق الأمر بأمر يخص طقوسهم. فمن الواضح أنه من الضروري أن يبدءوا صلواتهم في الظلام، قبل أن تشرق الشمس، ثم إنهم يكررون هذه الصلاة في أثناء أفضل فترات العمل. كما أنهم يصومون لفترة طويلة جدا في أثناء اليوم في شهر صيامهم، رمضان، وهذا أمر غير معقول.

وبالنسبة لحجهم، فهو محدد بفترة زمنية تتحرك خلال أشهر العام، فيفكرون في إجازاتهم في هذا الوقت دون مراعاة الإجازة المحددة من قبل العمل.

كذلك يردون بناء مساجد ذات قباب في مقاطعة بافاريا، هذه المقاطعة التي لم تشهد من قبل ولم تعرف في تاريخها مثل هذا الطراز من المباني. وكذلك يردون بناء مساجدهم وبها منارات؛ لينادوا منها على الصلاة. ويطلبون بجرأة أن يقوموا بتدريس مادة الدين بأنفسهم في المدارس.

وبالنسبة للمقابر، فهم يطالبون ببناء قبور تتجه إلى مكة، ولكنهم يخلون على موتاهم بتابوت فيدفنوهم في هذه المقابر بلا توابيت.

٤- وأخيراً فهم يرفضون كل ما يؤمن به أي مسيحي، ويتمسكون في كل شيء وبأى شئ جاء في قرآنهم، وبما تعليه عليهم تقاليدهم. كما لو أن الاثنين - القرآن والتقاليد - ليسا قد يدين قدم الأزل حتى إن الزمان قد عفا عليهما. فلتذكروا فقط موقفهم من المرأة.

كفانا سخرية. فهناك بالفعل مشكلات كثيرة تواجه التعايش السلمي بين الثقافات المختلفة والمتعددة في هذه النقاط وال المجالات الأربع، وهي المظهر الخارجي، وعادات تناول الطعام، والطقوس، والعقيدة.

ولكن لا ينبغي معالجة هذه المشكلات بالتشابه والتماثل مع الحضارة الغربية والاندماج فيها بحيث تختفي هذه الاختلافات وبالتالي المشكلات الناتجة عنها؛ لأن هذا سيلغى اختلاف المسلمين، وسيكون لهذا نتائجه السلبية لكلا الطرفين... فالمسلمون ينظرون إلى الإسلام وبالتالي إلى أنفسهم كبديل للحياة الغربية ونطحها المتشر والأفكار التي تحكم هذا النمط... ولكن لا بد أن يعبر هذا عن نفسه.

ولكن هذا لا يعفى المسلمين من محاولة تقليل حيز الاختلافات والبعد عن النقاط التي تثير التزاعات، عن طريق التفرقة بين الجوهرى في الإسلام، أى الدين، وبين الموروث والتقاليد التي هي إحدى مكونات الحضارة الإسلامية، وبالتالي هي مجرد موروث ثقافي، حتى وإن علت قيمته. وأعتقد أن المسلمين يستطيعون أن يتغاضوا عن هذه الموروثات (ليس الجوهرى في الدين) في سبيل تعايش سلمي واندماج أفضل، وليس ذوبانا أو تجاهسا. ومن ضمن الموروثات طريقة الملبس، وتناول الطعام، فالمسلمون غير مجبرين على تناول الطعام كما كان العرب يتناولون طعامهم في القرن السابع.

فيمكنهم ارتداء ربطة العنق، والخلوس إلى مائدة لتناول الطعام واستخدام أدوات المائدة، وأن يقوموا بتنظيف أسنانهم بالفرشاة والمعجون بدلا من السواك.

كان ينبغي - في حقيقة الأمر - أن يكون المجتمع الغربي من القوة بحيث يتقبل المكونات الفولكلورية للحضارة الإسلامية دون إيداء أى تحفظات، ولكن بما أن هذا الأمر لم يتحقق بعد، فأعتقد أن مصلحة المسلمين في الغرب تستدعي أن يقوم المسلمون بالتجاهض عن الممكن؛ ليسهلاً أمر تقبل الغرب لهم.

وهذا لا ينطبق بالطبع على المجالات التي لا تخضع للنقاش أو المساومة، مثل: العقيدة، والأخلاق، والعبادات وما تنص عليه الشريعة. ما عدا ذلك فهو من الممكن.

لذلك، فمن غير الضروري أن يختبر المسلمون استعداد الغرب لتقبلهم، وأن

يتمادوا في ذلك إلى أقصى الحدود من خلال إصرارهم على مطابقة الإسلام للعروبة. فعلى المسلمين أن يدركوا تماماً أن الانتشار السريع للإسلام الذي تشهده أوروبا - والذى وصل إلى السويد وفنلندا - قد خلق صدمة شديدة وخوفاً أشد من المستقبل عند أناس راسخى الجذور الثقافية، غير مؤهلين لتقدير ثقافات أخرى بسهولة.

٤٠

و بالرغم من استعداد المسلمين لحلول وسط حتى يتحقق التعايش السلمي، فهناك مؤشرات واضحة على أن الالقاء الأوروبي الإسلامي سيشهد نهاية سلبية. ويؤكد هذا أن معرفة الغرب بالإسلام والتعاطف معه لم يزدادا في الثلاثين عاماً الماضية بشكل ملحوظ. بل إننا نتوقع حدوث العكس، خاصة بسبب التأثير السلبي لوسائل الإعلام. ولقد انتشرت بعض المجموعات المعاشرة للإسلام بصور فردية بين الإيغانيجييين.

ولقد عبر مسلم ألماني عن هذا الوضع منذ فترة قصيرة، حيث قال: «إنني كلما اندمجت بشكل أعمق في الجماعة الإسلامية، يتم انتزاعي أو طردي من المجتمع الألماني». ويضيف: «لقد تعلمت أن بعض الألمان لا ينظرون إلى الدستور على أنه ركيزة أساسية للتعايش الديني والثقافي». وانطباعه الشخصي هذا ليس خادعاً، فبناءً على استبيان تم في إبريل عام ١٩٩٧ يرى نصف تعداد الشعب الألماني فقط أن المسلمين نفس الحقوق التي يستمدون هم بها، وقليلاً ٣٠٪ من الذين شملهم الاستبيان أن المسلمين الذين يعيشون في ألمانيا - وليس صدام حسين - إنما يشكلون خطراً جسيماً.

أما أكثر الأشياء البغيضة التي تتم الآن في أوروبا، فهي المحاولات المؤكدة والمسجلة لتحميل العمال الأجانب من المسلمين مسئولية مشكلة البطالة التي تعانى منها بلاد أوروبا؛ لأن هذا الأمر سيؤدي إلى وجود مشاعر دفينة بغيضة؛ لأن القلق الاجتماعي والاحتياج المادى مجتمعان مع وجود أحكام مسبقة ذات طبيعة دينية وعنصرية تؤدي دوماً إلى خليط من المشاعر الكريهة. وهناك دائماً من يتصدى

ويتحين الفرص لإطلاق هذه المشاعر من عقالها. فهل ستراجع الاقتصاديات الغربية العولمة وما تبعها من ضغوط، أم لا؟

وتزداد الصورة قتامة عندما يلاحظ المرء أن المسلمين في الغرب يتحملون بثبات كل ما يحدث في العالم الإسلامي. وسرعان ما يحولهم الغربيون إلى كبس فداء لكل الأحداث المفزعية، مثل إلقاء قنبلة على قرية كردية في العراق، ومثل حادثة لوكربي أو مجزرة الجزائر (بغض النظر عنمن قام بهذه المجزرة)، أو أى اغتيال لمنفِّع إيراني، أو إلقاء قنبلة يدوية على سائح غربي في مصر. أى حوادث من هذا النوع يحملها الغرب لكل مسلم شخصيا.

وهناك ضرر بالغ يلحق بمستقبل الإسلام في ألمانيا، وهو متمثل في النشاط الذي يمارسه بعض الأفراد الذين استوطنوا ألمانيا من القادمين من العالم العربي، خاصة هؤلاء من لهم مكانة مرموقة وكذلك خلفية ليبالية أو ماركسيّة. هؤلاء المسلمين الثقافيون يستغلون المصداقية التي يحظون بها في وسائل الإعلام للدعابة لما يسمى بالـ «Euro - Islam». اليورو إسلام (قليل من الإسلام وكثير من الأوروبي). وهؤلاء يجعلون المسلمين الشيّطون يظهرون بظاهر المتطرفين.

هذا الأمر يؤدي دوما إلى أسئلة من هذا القبيل: لماذا لا تستطعون أن تكونوا مثل هؤلاء المثقفين؟ فهم لا يريدون بناء مساجد، ولا يحجون، ولا يصلون دوما، كما أنهم يتناولون الخمر ويسمحون لنسائهم بالخروج مكشوفات الأذرع. أوليسوا هم الآخرون مسلمين؟

ومن الجدير بالذكر أنه من الملاحظ أن أسلوب الحياة الغربية يأغرّ إلاته العديدة سينجح فيما فشل فيه المبشرون المسيحيون في إفريقيا الشمالية برغم عملهم الدائم لعقود طويلة، ألا وهو تغريب شباب المسلمين عن دينهم، وإقناعهم بأن هذه الديانة إنما هي سبب تخلفهم.

وأخيراً، فأننا لا أريد أن أسكّن عن الاتهام الموجه مني إلى المسلمين. فعلى المسلمين أولاً أن يقوموا باللحاق بما فاتهم من عملية التثوير والإصلاح الإسلامية. فبدون ذلك تقل فرص الإسلام؛ إذ يظهر على أنه حضارة متخلفة غير متطرفة.

ولا يساعد في هذا الأمر كثيراً أن نكرر دوماً أن الإسلام كدين لا يحتاج إلى هذه الإصلاحات؛ لأنه لا يحتمل عداءً للعلم، كما أنه لا يعرف الكهنوت ولا سلطة رجال الدين، وبالتالي ليس هناك في الإسلام أشياء ينبغي القضاء عليها مثل تلك الأشياء والعناصر التي أدت إلى حدوث ظواهر في الغرب مثل: حرق الكتب، وحرق الساحرات، ومحاكم التفتيش ومحاكمات علماء مثل جاليليو وجیورданو برونو.

يقلل سلوك المسلمين في الغرب -للأسف- من فرص تقبل هذا الغرب لهم وله. ويعود هذا إلى تفرقهم وتشريدتهم. فإنك دائمًا وأبدًا تجد منظمات متصارعة والاتحادات تحكمها العلاقات الإثنية. فالصراعات الفردية تعيق استعداد المسلمين للعمل الجماعي. ويضاف إلى ذلك اتجاه -يمارسه المسلمون الأقل تعليماً وثقافةً- يعني بالأشياء غير الأساسية والجوفية. يمارس هذا الاتجاه التراشق بالألفاظ والتفسيرات المختلفة للقرآن وأحاديث الرسول، ويركز مجهداته في الكشف عن العناصر التي تجعل الإسلام يبدو وكأنه دين يعادى الحياة ويعارض المتع كافية. وتضييع في خضم هذه المهاجرات روحانية الدين.

وهناك أمر محزن، هو أنه في كثير من الأحيان يفشل اعتناق فرد للإسلام، ليس بسبب مسائل لاهوتية معقدة مثل الثالوث، ولكن بسبب أشياء تافهة جدًا، مثل طريقة تناول الطعام أو انتباع أن المرأة لا تحظى بحقوقها في الإسلام. فالرجل الذي يرفض مصافحة امرأة، قد تكون شغوفة ذات اهتمام بالإسلام -باليد مصافحة بريئة، إنما يفزعها من دين الله ولا يصدّها عن نفسه فقط بل عن الإسلام كذلك.

وهناك أسباب كثيرة خلقها المسلمون بأنفسهم، خاصة ما سبق ذكره من الشفرة النظرية، وعدم التوصل إلى شكل معترف به لنظام الحكم، وكمسألة حقوق الإنسان، ونظام ونموذج اقتصادي، ووضع المرأة.

إنه لأمر محزن أن يرتكب المسلم عندما يسأل عن دولة إسلامية نموذجية موجودة بالفعل. ولكن ما يرتكب أكثر من السؤال هو حقيقة أن هذا هو الأمر الواقع فعلاً. ولذلك فلابد أن يتم تغيير ما؟

ماذا يجب أن يتغير؟

شعار ١ : «شتناً لم نشأ سبق تغيير ما».

(محمد أسد: «الدولة والحكومة في الإسلام» ص ١٦)

شعار ٢ : «اختلاف علماء أمتي رحمة»

(حديث رواه السيوطي في الجامع الصغير)

١٠

لقد رأينا في الفصل السابق ضرورة حدوث بعض التغييرات في كلا الجانبين- أي الغرب وال المسلمين- حتى يتعامل الغرب مع مسلميه من منطلق التفاهم والتعايش لا المواجهة . . ولا يمكن بأى حال تجاهل أن على المسلمين- مثلهم مثل الغرب- القيام ببعض المجهودات حتى يتم التعايش معا جنبا إلى جنب، وصولا إلى أن يكون هذا التعايش من أجل الجميع .

وسيدور حديثنا في هذا الفصل حول أهم عنصرين ، على المسلمين التفكير فيما والعمل على تغييرهما ، وهما: مراجعة التراث لتنقية السنة الصحيحة ، مما ليس منها ، والعمل على تجديد علوم القانون ، أي الشريعة .

يقول د. طه جابر العلواني ، وهو أمريكي من أصل عراقي ، ويشغل منصب رئيس كلية الدراسات الاجتماعية الإسلامية بليسبurg ، Graduate School of Islamic (Social Studies - Leesburg) جدید ، ولن يتحقق الإحياء بلا إصلاح^(١) .

(١) العلواني ص ٢٠ .

توصلنا إلى أن هناك ضعفاً ما وثغرة واضحة في قدرة المسلم على تحديد معالم كيان حكم إسلامي حديث. وهذه النقطة التي تمثل ضرورة قصوى يجب على المسلمين العمل على تحقيقها، تعود أسبابها في حقيقة الأمر إلى المأزق الجوهرى الذى تعانى منه الدراسات والبحوث الإسلامية المعاصرة. هذا المأزق الذى يصفه Daniel Brown دانييل براون بـ«الأزمة الفكرية»^(٢)، والذى أدى إلى «أقصى درجات الخلاف والنزاع بين المسلمين»^(٢)، هو: تعدد معانى وتفسيرات التراث المتقول عن أقوال الرسول المجموعة في صورة أحاديث عند أهل السنة والشيعة والإباضية (عمان).

هذا التراث والبحث فيه والاستقصاء عنه في غاية الأهمية، ويستحق أن يفرد له مجاله الخاص.

من المعروف أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن، وتقوم السنة بتفسير الكثير مما ورد في القرآن وتضييف إليه بما يساعد على فهمه.

والسنة هي مجمل أقوال الرسول وأفعاله وما نهى عنه. وقد تم تدوين كل هذا كتابة، ولذلك فهي بالإضافة إلى القرآن تحدد المساحة المسموح للمسلم التصرف فيها وتفسيرها.

أما الاختلاف الأساسي بين القرآن والسنة، فهو أن الأول هو كلام الله ووجهه مباشرة إلى رسوله، والذى تكفل بحفظه، ولا خلاف في ذلك. أما الثانية، فلا تسلم من التشكيك في صحتها، ويرجع هذا- ضمن أسباب أخرى- إلى أن الرسول كان قد نهى عن تدوين أقواله حتى يضمن عدم خلطها بالقرآن، ثم عاد فسمح بذلك. وعلى ذلك، لم يتم حفظ الأحاديث في القرن الهجرى الأول مثلما تم حفظ وكتابه القرآن.

وهذا الأمر- أي أن يبدأ جمع الموروث من أقوال الرسول وأفعاله في القرن الثاني الهجرى على أقصى تقدير- ليس سلبياً بالنظر إلى القدرات الذهنية وقوة ذاكرة الناس الأميين في ذلك الزمان.

(٢) Daniel Brown ص ٣، ص ١١٩.

أما الخطر الحقيقي، فيتمثل في محاولة الاستفادة من اختلاق أحاديث غير صحيحة لخدمة أغراض سياسية معينة.

ولقد حاول علماء علم الحديث مواجهة هذه الظاهرة بتحديد معايير شديدة الدقة لإثبات صحة الحديث وسنته. ولقد اتفق العلماء على عدم قبول صحة أي حديث إلا إذا توافرت له الشروط التالية:

- أن تتصل سلسلة الرواية حتى الرسول. صلى الله عليه وسلم..

- أن يكون الرواية ثقates (الأمانة)، وضابطين (الإنقان). (نأسأ للتحقيق هذا الشرط علم «الرجال»، أي تراجم وسير ذاتية محققة بدقة عن الشخصيات التي يُروى عنها).

- أن يكون الحديث بلا علل، لا في السنده ولا في المتن.

ولقد كان هؤلاء العلماء حريصين على التدقير في شروط الحديث الصحيح عندما يختص الأمر بالأحكام، أكثر من حرصهم عندما يختص الأمر بـ كارم الأخلاق والزهد والرقائق.

ويعد صحيح البخاري أصح المراجع، مع موطأ مالك، وبعدهما صحيح مسلم، فقد قام الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (870 - 810 م) بغربلة 600 ألف رواية وفحصها وفق المعايير العلمية، ثم اطمأن إلى أقل من ثلاثة آلاف حديث جمعها في كتابه المشهور، وأدى تكراره لأجزاء منها إلى أن وصلت إلى أكثر من سبعة آلاف حديث في كتابه.

ولكن معظم علماء الحديث، وهم يغربون الأحاديث المختلفة، كان أكثر اهتمامهم ينصب على صحة السنده وليس على المتن، أي مضمون الرواية، ولم يستعينوا بعوامل اللغة والتاريخ والأوضاع السياسية في فحصهم للمتون^(٣)، وهذه هي المشكلة.

(٣) أبو الفضل ص ٥٣، ٥٤ يشير الانتباه إلى أنه لم يكن مستبعداً أبداً من حيث المبدأ أن يتم استبعاد حديث ما بسبب المتن، وذلك لأسباب نحوية أو تاريخية، أو لأنه مناقض للقرآن أو لقوانين الطبيعة.

ولقد أراد بعض المستشرقين الغربيين من أمثال Ignaz Goldzieher (١٨٩٦) و Joseph Schlacht (١٩٥٠) استبعاد السنة بأكملها. بسبب عدم القدرة على التتحقق من صحتها، وتبعهم في ذلك قلة قليلة من المسلمين أمثال محمد توفيق صدقى بكتابه *الذال على رأيه من العنوان*: «الإسلام هو القرآن وحده». ويواافقه كذلك كل من رجاء جارودى والسورى محمد شحرور. وهذا الأخير يُعدُّ التنزيل الإلهى هو الوحيد المقيىد، وكل ما عداه إنما هو إرث قانونى^(٤). ولكن تتمسك غالبية المسلمين فى واقع الأمر بالأحاديث مع تحفظهم على إمكانية وجود بعض الأحاديث غير الصحيحة. ولهذا السبب أدعو أفضل علماء الإسلام المعاصرين الذين يختلفون نعmani الشبلى وقاظلور رضهان ومحمد الغزالى ويوسف القرضاوى إلى اتباع أحدث المناهج العلمية المعتمدة فى التاريخ والنقد للفصل فى أمر صحة أحاديث الرسول واستخلاص الصحيح منها واستبعاد المدوس علىها. إننى على يقين بأن هذا الأمر إنما هو واجب عظيم ومهمة تتطلب تحمل مسئولية هائلة، ولكن لن يستطيع الإسلام أن يدخل القرن الثالث الميلادى دون إنجازها وتحقيقها^(*).

إن المرء ليصاب بالدوار إذا ما فكر في هذه الأسئلة وحاول الإجابة عنها، حتى لو لم يعلم بأن مستقبل الإسلام في الألفية الميلادية الثالثة يتوقف بشكل أساسى على هذه الأسئلة.

- ٤ -

ولا بقل أهمية عما سبق ذكره توصل علم القانون الإسلامي إلى الاتفاق حول مفهوم الشريعة التي يكثرون عنها الحديث؛ لأن المهتمين بهذا الأمر مختلفون ما بين فقهاء تقليديين وعلماء محدثين. لقد كان أمراً مسلماً به عند القدماء أن القرآن يحتوى بشكل يبلغ درجة الكمال على كل القوانين المنظمة لكل شيء، وأن القرآن يتم شرحه وتأكيده من السنة، ولذلك رأى القدماء أن الفقه الإسلامي المبني على

(٤) شحرور ص ٧.

(*) وهذا هو بالضبط ما فعله عباقرة الحديث السابقون: مالك، والبخارى، ومسلم (الناشر).

القرآن والسنة، وأن القوانين المستنيرة والمستخلصة منها إنما هي حق إلهي وقانون إلهي لا مساس به.

ولكن أليس فهم القرآن والسنة واستخلاص الأحكام الشرعية منها المجاز واجتهاد للبشر؟ بل أليس نقل نصوص السنة هو عمل بشري قابل للصواب والخطأ؟ وتتلخص أهمية هذا العمل في أهمية الأسئلة الرئيسة التي يبحث لها عن الإجابة.

- ١- هل الوحي هو مصدر كل من القرآن والسنة؟ أم القرآن فقط؟
- ٢- هل تستطيع السنة أن تنسخ حكماً ورد في القرآن،^(٥) أو أن تمحى منه شيئاً؟ وهل في القرآن ما ينسخ السنة؟
- ٣- هل هناك بالإضافة إلى سنة الرسول سنن أخرى، مثل سنة أبي بكر أو عمر جديرة بالحسبان؟
- ٤- هل تم تدوين السنة كلها؟ أم أن هناك بالإضافة إلى الأحاديث، أي السنة المكتوبة، سنة أخرى معيشة لم تدون؟
- ٥- هل يمكن رفض حديث حتى وإن بدت سلسلة الرواية سليمة لا غبار عليها؟
- ٦- إذا ما رفض حديث بسبب مضمونه، أي متنه، فعلى أي الأسس نعتمد في رفضنا هذا؟ (العقل، خلوه من التناقض، أسباب تاريخية وأسباب ترجع إلى السياق الذي ذكر فيه).
- ٧- هل السنة ضابط أخلاقي؟ هل تعدد التقاليد ذات الطبيعة القانونية صالحة لكل زمان وكل مكان؟

فلا نستطيع أن ننكر أن من قاموا بالتوصل إلى هذا الصرح من القوانين الإسلامية إنما هم في آخر الأمر بشر معرضون للخطأ، وأنهم بطبيعة الحال علماء أتقياء حاولوا وفقاً للمخلفية التاريخية لزمنهم ولمتطلبات ذلك الزمان أن يقرروا هذه

(٥) ينكر طه جابر العلواني إمكانية أن تغير السنة شيئاً في القرآن أو تخفف منه. وشيخ الأزهر السابق جاد الحق قد اتخذ موقفاً مصادراً في فاكس بعث به إلى.

القوانين ويقيموا هذا الصرح الهائل، الذي يُعدّ (بالإضافة إلى القانون الروماني^(٦) والـ Common Law) إحدى القسم القانونية الثلاثة للميراث العالمي^(٧) في مجال القانون.

لقد نتج هذا الفقه من خلال استخدام منهج القياس في معالجة المصادر، وكذلك بالأخذ بالإجماع. ولكن من الجدير بالذكر أن القانون الإسلامي لم يعرف في العصور الوسطى فكرة القطب الواحد أو الفقة الواحد. فهناك المدارس الفقهية العديدة (المالكية والحنبلية والحنفية والشافعية) التي اختلفت في أمور معينة، ولم يدع أحد مؤسسيها أنه معصوم من الخطأ^(٨).

ولا شك في أن تطور هذا الفقه أمر مطلوب جداً اليوم، خاصة محاولة استعادة مرونة هذا الفقه، حتى يستطيع أن يوفر إجابات عن المشكلات المعاصرة.

فمثلاً، لم يعط القرآن أو السنة أو فقه العصور الوسطى إجابات عن استغلال المصادر في الفضاء الخارجي أو حقوق المؤلف في الإنترن特 أو قوانين المرور أو مسائل مثل الأم البديلة أو تكنولوجيا الجينات. ولكن على فقهاء الإسلام المعاصرين اتباع فقهاء العصور الوسطى ومنهاجهم في الاجتهد للتوصل إلى تنظيم قانوني جديد على أساس وأهداف ومبادئ القرآن والسنة الصحيحة، عن طريق التحليل والأخذ بالمناهج العلمية^(٩).

وهذا الأسلوب يتطابق تماماً مع التراث الإسلامي. فعندما بعث الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ععاذ بن جبل ليحكم في اليمن، سأله: كيف تقضي؟

(٦) إن نسخة من القانون الروماني الصادرة عام ١٧٣٥ والذي يضم ١٢٧٨ صفحة، ويتضمن جميع المؤسسات وغيرها والقوانين الجديدة حتى عهد القيصر فريديريك الثاني، تمثل في حجمها كل ما يتضمن القوانين الإسلامية.

(٧) هناك أمثلة جديرة بالإعجاب ودالة على المستوى الرفيع لعلوم القوانين هذه، وتجدها عند ابن رشد والنورى والشافعى.

(٨) نقاً عن محمد أسد (١٩٨٧) ص ٢٠: «لن تجد عملياً مشكلة قانونية كبرت أو صغرت اتفقت عليها الأنظمة المختلفة أو المذاهب للخلفية».

(٩) لقد وضع عمران نيازى بدراساته أساساً جديداً يصلح لتطور علوم القوانين الإسلامية الجديدة، من منطلق الإصلاح.

فأجاب معاذ: أقضى بكتاب الله، وإن لم أجد فبستة رسول الله. وعندهما سأله الرسول ماذا يفعل إن لم يجد في كليهما، أجابه معاذ: أجهد رأيي، ولا ألو. ولقد راقت هذه الإجابة الرسول^(١٠). ولقد أشار مأمون عبد القيوم رئيس المaldiif في محاضرة ألقاها خلال شهر رمضان عام ١٩٩٣ في نطاق ما يعرف بدرس الحسينية في الرباط، إلى أن هذا الحديث يدل على تمنع القانون الإسلامي والفقه الإسلامي بالمرونة التي تتيح له الإجابة عن كل التساؤلات الجديدة، أيا كانت هذه التساؤلات. ويطلب هذا الأمر. وهنا مربض الفرس. أن يؤخذ باقتراح محمد أسد وتبغ ما طالب به، أي بحصر مفهوم الحق الإلهي، أي الشريعة التي لا تقبل التغيير على مائتى القاعدة والقانون التي وردت في القرآن والأخذ بالجانب القانوني في السنة النبوية الصحيحة. أما ما عدا ذلك من الفقه الإسلامي، فلا بد من إعادة تفسيره بالرجوع إلى المصادر^(١١).

ومن الخطأ كل الخطأ في واقع الأمر أن نحسب أن القرآن والسنة خاليان من القواعد القانونية وأنهما يتضمان مبادئ وتوصيات فقط ذات خلفية تاريخية لا تصلح إلا للمجتمع المدينة (يشرب). والمنادون بهذا الرأي إنما يفعلون كل ما يسعهم لينال الإسلام رضا الغرب ويتقبله. ولكن بدون شريعة لا يملك الإسلام ثوذاً جاً بديلاً للمجتمع الغربي القائم.

أما الحركة الجديدة في علوم القانون الإسلامية، فيمثلها - ضمن آخرين - د. طه جابر العلواني^(١٢) وفتحي عثمان^(١٣) ويوسف القرضاوي^(١٤). إنهم يجتمعون على رأي محمد أسد ويتتفقون في أن القرآن والسنة لا ينظمان الفروع، ويكتهمما. أي القرآن والسنة. أن يشغلان مجالاً حاكماً ما بين الممنوع والمسموح، المحرّم

(١٠) سنن أبو داود حديث رقم ٣٥٩٢.

(١١) محمد أسد (State) - دولة ١٩٨٠ ص ١٣.

(١٢) يشكو العلواني في ص ١٨ من أن الفكر الإسلامي قد خلد كثيراً للراحة، كما أنه يذكر أن الطبيعة والفطرة إلهام من الله يجب أن يؤخذ في الحسبان (ص ٢٢).

(١٣) لا يحمل كتاب عثمان عن الشريعة (١٩٩٤) العنوان التالي اعتباطاً: *The Dynamics of Change in the Islamic Law - ديناميكية التغيير في القوانين الإسلامية*.

(١٤) يجيز القرضاوي في كتابه عن المسموح به والممنوع عنه عن كثير من الأسئلة المعاصرة.

والمحلّ، لا يحق لأى قانونى أو حاكم أن يحده ولا أن يعده تحت ادعاء إرادة الله ومشيّته^(١٥).

فالقرآن يقول في الآية (٨٧) من سورة المائدة محذراً: ﴿لَا تُحِرِّمُوا طَيَّبَاتٍ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾. ولذلك يعارض مؤلاء العلماء المعاصررون الاتجاه السائد بين أتباع المدرسة التقليدية في التشدد بتحويل الأشياء التي أوصى الله بها إلى فرائض، وتحويل ما أوصى بتجنبه إلى محرمات. ولا يستطيع المرء إلا أن يأمل في أن تفهم صيحة فتحي عثمان وتتبع «إن الحق والقانون الإلهي ليس بديلاً عن العقل البشري، ولا يهدف إلى تعطيل قوته، وشل حركته»^(١٦).

* * *

(١٥) عثمان (١٩٩٤) ص ٢٢.

(١٦) عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ٦.

طالبو إحسان أم شركاء؟

شعار: «إن القرآن كله مليء بinterpretations صبيانية للعالم قد عفا عليها الدهر». د. پاول إسر: خطاب قاري مبعوث إلى جريدة FAZ بتاريخ ١٩٩٧/٥/٢٨.

١٠

من حسن الطالع أن هناك إلى جانب العلامات الدالة على المقاومة المتزايدة من الغرب للإسلام، علامات عكسية، أي إشارات إلى استعداد الغرب لتقدير الإسلام بالرغم من المشكلات التي سبق ذكرها.

فالإنسان الغربي، على أقل تقدير، مستعد لتقدير المسلم بما يميزه فولكلوريا مثل الكباب والكسكس والكارى، كتقبله الإيطالي بالبيتزا والمعجائن، فالإسلام مرحب به كتنوع غريب.

سيزداد انتشار الإسلام عن طريق زيادة المواليد بين المسلمين، حتى وإن أخذت نسبة المواليد في الانخفاض بسبب ارتفاع مستوى المعيشة. لقد أصبح اسم محمد أكثر أسماء الذكور شيوعاً بين المواليد.

من المحتمل ألا توجد أزمة في الدين نفسه، ولكننا لا نستطيع أن ننفي أن المؤسسة الكنيسية تعاني من أزمة واضحة. وهذا يفسر نشأة وظهور موجة من التدين ذات طبيعة فرضوية وسط الانهيار الذي تشهده الكنيسة، ويتمثل هذا إيجابة طبيعية ورد فعل مسونغاً لما يشعر به الكثير من الشباب من فراغ ديني. من الممكن أن يتم

البحث عن معنى عميق للحياة وعن قيم دائمة. إحدى الطرق المؤدية إلى الإسلام - عن طريق التقوّع وحركات الصحوة.

على أي حال لا ينسحب كل من يترك الكنيسة إلى دين ذاتي شخصي أو يتخذ موقفاً لا أدرياً.

بعد احترام الاختلاف إحدى فضائل ما بعد الحداثة. ومن مظاهرها كذلك حب الأشياء الغريبة حتى وإن كانت في صورة شغف بالعالم الثالث، وكذلك مقاومة العولمة وأثارها. وبالرغم من محاولة استبعاد الإسلام، فإن المسلمين يمكنهم بشكل أو باخر الاستفادة من موجة ما بعد الحداثة.

ولقد أدى عجز الغرب في حل النزاع الدائر في البوسنة وحماية المسلمين هناك، إلى تفجر شعور بالذنب، أدى إلى تدخل الغرب في آخر الأمر لصالح المسلمين في كوسوفا. وتقوم بعض الدول الإسلامية ذات التأثير القوى والأهمية الإستراتيجية بفضل ثرائها وغناها بالثروات المعدنية، باستغلال دورها على الساحة الدولية لخدمة الإسلام، ليس فقط من خلال بناء المساجد، أو طبع ونشر الكتابات الإسلامية الكلاسيكية باللغات الأجنبية. وتعد الكويت وقطر وأبو ظبي والشارقة وكذلك السعودية من ضمن هذه الدول، وكذلك منظمة المؤتمر الإسلامي.

ويفضل هذه الدول والمؤسسات دورها الحامى للإسلام والمسلمين، لم يعد يسع الغرب التعامل مع المسلمين لديه دون مراعاة الأصداء الدولية لهذا التعامل. ويتمتع الإسلام في هذا المعنى بنوع من المكانة بين القوى المختلفة.

أصبح للمنظمات الإسلامية في الآونة الأخيرة مكانة في كل من بلجيكا والنمسا، كما أصبحت تحظى باحترام حكومى واضح في إسبانيا، حتى أصبحت إسبانيا صالحة لتكون مثالاً ونموذجاً يحتذى به في تشكيل وتحديد العلاقة بين الدول الغربية و المسلمينها.

لقد فرض البرلمان في مدريد الحكومة في عقد اتفاق مع د. منصور عبد السلام إسکودرو Escudero رئيس إحدى المنظمات المركزية الإسلامية المعترف بها حكومياً، وبعد التصديق على الاتفاق، تم نشر هذا الاتفاق بصفته القانون رقم ٢٦ لعام ١٩٩٢ بتاريخ ١٠ من نوفمبر عام ١٩٩٢ في الجريدة القانونية.

وينص هذا الاتفاق على تدريس مادة الدين الإسلامي في حالة طلبها، حتى في المدارس الخاصة، وكذلك توافر الرعاية الإسلامية في القوات المسلحة والسجون. كما أن للمسلمين الحق في التوقف عن العمل لأداء الصلاة، ولكن عليهم أن يقوموا لاحقاً بأداء ما فاتهم من ساعات العمل. تتمتع المساجد والعاملون بها وأرشيفها بالخصوصية، ولأنماة المساجد سلطة عقد الزيجات. للMuslimين الحق في الحصول على إجازات في أعيادهم، على أن يعملوا في الإجازات المسيحية^(١). أخيراً تم افتتاح جامع في قرطبة بعد ٦٠٠ عام من إغلاق الجامع بها. أما في طليطلة، فأقيم بتاريخ ٣٠/١٠/١٩٩٨ صلاة الجمعة في جامع كان قد أغلق لمدة ٥٠٠ عام. لقد نالت إسبانيا بهذا الاتفاق استحساناً بالغاً في العالم العربي- الإسلامي.

لقد انضمت اتحادات مركبة إسلامية في الدول الأوروبية في تشكيل هو الاتحاد المركزي الأوروبي، الذي يُعدُّ لجنة التعاون الإسلامي في أوروبا، واتخذ من مدينة ستراسبورج مقرّاً له^(٢).

أما في ألمانيا فيزداد الوعي بأهمية دور اللجنة المركزية لمسلمي ألمانيا التي تشكلت عام ١٩٩٤، والتي تُعدُّ صوت المسلمين غير المرتبطين بتركيا^(٣). تقوم هذه اللجنة بإقامة «يوم المسجد المفتوح» يوم ٣ من أكتوبر من كل عام، حيث يجتمع في هذا اليوم ما يزيد على ١٠ ألف مواطن يتعرفون لأول مرة على الواقع الإسلامي.

لقد قامت الكنيسة الإنجيلية في ألمانيا والمنظمات التابعة لها بتعيين شخصيات معنية بأمور الإسلام، ولقد كان لهؤلاء الشخصيات دور بارز في أن تأخذ مناقشة الإسلام شكلاً أكثر موضوعية. كما ساهموا في مقابلات إنسانية مشمرة بين الديانتين

(١) لقد ظهرت نسخة فرنسية للتنظيمات والقوانين الإسبانية في باريس ١٩٩٤ رقم ٢ Le Conseil Nr.2. وأخرى إنجليزية في ENOUNTERS رقم ٢ / ٢ Markfield, LE (UR) عام ١٩٩٦ ص ١٥٥ . ١٦٧

انظر هنا مزاد هو فمان: الإسلام في إسبانيا- غودج يصلح لأوروبا- في الإسلام ميونخ ١٩٩٦ عدد ٤ ص ٤ ، ٥ .

(٢) المنسق هو أ. د. عبد الله يوسف، Impasse du Mai F - 67000 Strasbourg Tel. t 33/3 - 8822. 1095.

(٣) ZMD, Vogelsanger Str. 290. Tel + 49 - 221 - 244. 34/ D- 50825 Köln 222. g567 الرئيس يدعى د. نديم (Eschweiler).

ـ كما لو أن روح المجمع الفاتيكانى الثانى قد وجدت لها تحققًا من خلال الكنيسة الإنجيلية الألمانية.

ومن بين الأدلة على هذا، التقويم السنوى الذى يأخذ فى الحسبان البيانات الثلاث والذى تصدره الكنيسة الإنجيلية، ويشرف على إصداره القس Thomas Dreesen Offenbach وهو متزوج من تركية مسلمة. وهناك بعض المدن مثل أوفنباخ، قامت بتخصيص مساحات لإقامة مدافن إسلامية مزودة بالتجهيزات الالزمة لعملية تغسيل الموتى.

٢٠

هذه سلسلة من المؤشرات المضيئة لقبول الإسلام فى أوروبا، ولكن هدف الإسلام هو الاعتراف به واحترامه، وليس مجرد تقبيله. فقد قال جوته Goethe : «التقبيل والتسامح مجرد خطوة لا بد أن تؤدى إلى الاعتراف، أما مجرد التقبيل فهو إهانة».

يستطيع المسلمون أن يصلوا إلى هدفهم بأن يكونوا شركاء للغرب، وليس مجرد طالبى إحسان، إذا ما نجحوا فى إقناع الغرب بأن الإسلام يمكن أن يقدم لهم الشىء الكبير مما يحتاج إليه الغرب بشدة ويفتقده، حتى إن الإسلام يستطيع أن يحرره وينقذه من أزمته الوجودية. فالإسلام يمكن أن يكون دواءً لداء الغرب وليس مجرد عنصر يعمل على تعدد ألوان صورة الغرب.

يعتقد Walter Lippman أن الغرب تهدده اليوم بروليتاريا فكرية، وليس بروليتاريا العمال التى كان كارل ماركس ينادى بتكوينها وتشكيلها. «إن البرابرة لا ينتظرون خارج الحدود ولكنهم يحكموننا منذ زمن» كما يقول Alasdair MacIntyre^(٤).

ولكن إذا كان الأمر بالفعل كذلك، أى أن جذور الأزمة الأخلاقية الحالية فى الغرب تعود إلى ٢٥٠ عاماً مضت، فإن عملية الشفاء منها تبدأ بفقد جذرى لعقلانية الحداثة وما خلقته من دين بديل.

(٤) نقلأً عن Ophuls ص ٥٧.

فلن يكون هناك أمل في الشفاء إلا إذا نجحنا في تحرير الغرب من وهم الحداثة التي تحكمه؛ لأننا في هذه الحالة فقط ننجح في وقف عملية التسخيم الذاتي العقلاني التي يمارسها الغرب؛ ليتمكن من إعادة صلته بالغيبيات وأن يستعيد القدس والإلهي مكانته في دائرة اهتمامه ويكون هذا أمام عينيه.

إذا فالأمر يتطلب إعادة الاعتبار للدين كرد فعل عقلاني على حاجة الإنسانية والتي لابد وأن تبدأ بوضع العلوم التطبيقية في مكانها الطبيعي، وليس كبديل عن الدين.

الأمر بختصار يتطلب عملية تغيير في النماذج المتبعة، تهدف إلى رؤية دينية جديدة للعالم، تتجدد من خلال موضوعية الإسلام وغيبياته المعقولة ووحدانيته الخالية من الأسرار والغموض.

من الممكن نظرياً أن تقوم المسيحية بكل هذا، ولكن نظرياً فقط؛ لأن المسيحية قد فقدت بمرور الوقت المصداقية المطلوبة بسبب المبالغات التي تتضمنها. ولم تبد الشخصيات المؤثرة في الكنيسة استعدادها لاهوتياً لإعادة التقييم و«كبح» هذا التدهور، ولا نرى أنه من الممكن أن تساهم أي ديانات أخرى أو أيديولوجيات في مسألة إعادة تشكيل الغرب ومساعدته على الشفاء من أمراضه. فالبوذية لا تساعد على تشكيل جماعات كبيرة. والليبرالية القائمة على «الحق الطبيعي» أضعف من أن تقوم بذلك. كلاً. كما سبق القول - فإن الديانات المستعارة والبديلة غير قادرة على فك أغلال القوى الضرورية للتغلب على أنانية الفرد والجماهير.

- ٣٠ -

إنني أثق في قدرة الإسلام على النجاح في أن يستبدل بالنموذج القائم نموذجه قادر على تجاوز فشل الحداثة (وذلك بالرغم من القصور بين أتباعه) للأسباب التي سأذكرها لاحقاً.

- ٤ -

- الدفء الإنساني: لقد داعب حلم «The Greening of America» - إعادة

الازدهار إلى أمريكا، خيال الأجيال الشابة مع مؤلف هذا الكتاب Charls Reich ولم يكن حلم Reich أو حلم الدوحة الورقة لتنشئة الأطفال يعني سياسة تشجير المتنزهات، ولكن كان يهدف إلى تعاون جماعي ومشاركة جماعية جديدة تتسم بالكثير من الدفء الإنساني.

ولكن هذا النداء لم يجد له صدى. فلم تجد الأجيال الدفء، بل وجدت بدلاً منه البرودة الشديدة، ولم تعد هذه البرودة سمة مميزة للعلاقات الشخصية فقط، بل أصبحت سمة للوضع الاجتماعي ككل. إن الوعظ في الكنيسة يطالب دائمًا بأن «تحب جارك كما تحب نفسك»، ولكن لم يعد هذا إلا كلاماً يتلى في الصلوات. أما في الحقيقة، فإن هناك بروادة اجتماعية تسود جميع العلاقات، ومنافسات قطع البلعوم حتى أصبح الحقد الاجتماعي أشبه ما يكون بمؤسسة راسخة في ظل النظام الرأسمالي. «فالناس لا تزيد أن تكون غنية بل أغنى من غيرها». (چون ستیوارت میل، J.S.Mill) وفي ظل هذا المجتمع يشق كل فرد طريقه مستخدماً العنف ليصل إلى سعادته المرتبطة، بل المتمثلة، في الاستهلاك: فالزوج يستخدم العنف ضد زوجته ليحقق نجاحه الخاص، وهي تفعل المثل والأطفال ضد الآباء، والعكس، كل ينسج خيوطه حول ذاته التي لا تمس.

في ظل هذه الظروف تعيش الجماعات الإسلامية في الغرب حالة تماسك اجتماعي يترفع عن العناصر العرقية والقومية، هذا التعايش يشع دفناً اجتماعياً ملماساً. لا يملك المجتمع الغربي إلا أن يتبع المسلمين بدهشة بالغة، حين يراهم وهم يشيدون المساجد من حصيلة نقودهم التي حصلوا عليها من تطوعهم بالعمل في إجازات نهاية الأسبوع وغيرها، وكيف يحتفل المسلمون بأعياد الفطر وعيد الأضحى وكأنها حفلات عائلية كبيرة. فالمسلمون يخلصون الدين من ارتباطه بخصوصية الإنسان ويجعلونه عاماً. إنهم يؤمنون الدين. والكثير من المراهقين يعجبهم هذا على وجه التحديد. فكثيراً ما وجد أحد المعتنقين للإسلام طريقه للإسلام من خلال الإحساس الجماعي واستعداد المسلم للتضحية ومراعاته للغير، وبسبب هذا الدفء الإنساني.

أما بالنسبة لمعاداة الإسلام للعنصرية، فقد أفردنا له فصلاً خاصاً به. فلقد اعتنق

الكثيرون من المضطهدين والمنبوذين الإسلام بسبب معاداته للعنصرية ومساواته بين البشر، ومن هؤلاء الجماعات نذكر على سبيل المثال وليس الحصر: المنبوذين في الهند، والفلبينيين العاملين في الخليج العربي، والأمريكيين من أصول إفريقية في الولايات المتحدة.

ومن النقاط التي لا تقل أهمية: حرية الفرد في علاقاته بربه، أي عدم وجود وسيط بين المسلم وربه، وكذلك دون سلطة كهنوتية. فالنحو صر الإسلامية الأساسية متاحة للكل، لا يستطيع أحد أن يدعي أنه يحتكر تفسيرها. كما أن «خادم الحرمين الشريفين» بالرياض لا يعتلى عرش البابوية. ولا توجد محكمة كنسية كالتي في روما *La Rota Romana*، وليس هناك نسق كنسى. وليس هناك فتوى ملزمة للمسلم. والزواج ليس رياطًا مقدسًا لا يفصم. يستطيع كل مسلم أن يؤدي أي عبادة دون وجود وسيط. وخلو هذا الدين من التسلط الكهنوتي، وغياب الهراركية فيه، يؤثران بشكل إيجابي على كثير من الشباب في الغرب.

لقد بالغت الحداثة في أداء وظيفتها في استبعاد جميع الأسرار والمعجزات والأعمال الخارقة من العالم. وكانت النتيجة استياء عاما من كل شيء يبدو وكأنه معجزة. والطريق إلى المسيحية مهد بمعجزات كثيرة، بينما لا يعرف الإسلام إلا معجزة واحدة هي القرآن. ولكن الأهم من ذلك، أن الإسلام يطالب المسلم دائمًا بآلا يدع أحدًا يفكر له، فهو ملزم بالتفكير والتدبر. لا يصح لل المسلم أن يتوارث دين آبائه دون اقتناع منه بهذا الدين بعد أن يُعمل عقله ويقرر لنفسه. أي أنه وفقًا لرأي جوته *Goethe* على المسلم أن يكتسب إرثه الديني عن طريق الفكر حتى يمتلكه حقًا. وهذه العقلانية التي تميز الإسلام والتي تعكس في الأجزاء الواضحة التي تسود الجماع، تثير إعجاب كثير من الناس.

يعتقد *Rüdiger Safranski* أننا نعيش عصر «تعدد الآلهة العلماني»، فالإله الواحد «تشرذم في عدة آلهة متزلية صغيرة»⁽⁵⁾. ويشارك المسلمين الرأى نفسه. فإنما الإنسان الغربي للسجائر والخمر وجميع أنواع المخدرات الأخرى، والسبيل الذي لا ينقطع من إعلانات التليفزيون التي يتعرض لها الإنسان في الغرب. كل

(5) Safranski: «إرادة الإيمان» FAZ ملحق تاريخ 24/12/1993.

هذا أصبح عملية منظمة تستهدف الإنسان، وينعكس في عملية الإدمان هذه السباق الاجتماعي المحموم للحصول على نصيب وقسط من السعادة المفقودة.

لقد دفع الغرب ثمن ازدياد ظاهرة الإدمان وأثارها المدمرة على الحضارة الغربية، ولكنه لا يستطيع - كما هو حال المدمنين - أن يفعل شيئاً حيال ذلك. فبدلاً من القضاء على المخدرات، يحاول التوصل إلى أنواع أقل خطراً، ويقوم بالسماح بأنواع أكثر وينجح حربات أكبر في تناول المخدرات.

إن أمريكا التي ثارت وهاجت ضد تجارة الخمور في عشرينيات هذا القرن، ولم تخرج من هذه المعركة إلا وقد أضافت إلى مشكلاتها مشكلة جديدة هي المافيا، أمريكا هذه تثور اليوم مجدداً ولكن ضد التدخين.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن الصورة تختلف. ففي مقابل مشكلة المخدرات هذه يقف المسلم بما يفرضه عليه دينه من الصحوة والإفادة من المخدرات كافة. فرفض المسلم للإدمان ليس مبنياً على مراعاة صحة الفرد فقط، ولكن أيضاً يتعد به المسلم عن عصيان بالله بأن يرفض تخدير وتغريب عقله، الأمر الذي يمنعه من ذكر الله والعمل بشرعه، فكانه في النهاية طريق للشرك.

وستفيد من هذا الأمر في أمريكا الأحياء التي يقطنها الأميركيون ذوو الأصول الإفريقية، عندما يتعاون المسلمون على إخلاء هذه الأحياء من المخدرات بشكل سلمي عن طريق الدين، كما يحدث في لوس أنجلوس وفي لادلفيا.

يرى William Ophuls أن الاتجاه النساني المتطرف ذا الصبغة الغربية، إنما هو «إعلان بالانهيار التام والنهائي للمجتمع المدني»^(٦). ويتساءل الكثيرون من المعنيين وهم في حيرة من أمرهم: ماذا سيحدث لهذا الجيل الذي تربى في ظل غياب الأب؟ هل سيقوم هذا الجيل بالقضاء تماماً على الأسرة؟ ويولى المسلمون للأسرة أهمية قصوى، وينزلونها منزلة عالية حتى إنهم يرفعونها إلى أعلى مكانة، فيعدونها أهم وحدة اجتماعية. وال المسلمون يدقون ناقوس الخطر حين يقولون: إن انهيار المجتمع يبدأ من الأسرة وينتهي كذلك عندها.

(٦) Ophuls ص ٥١.

ويستجيب بعض الشباب الذين أخافهم انتشار مرض الإيدز لهذا الإنذار ويعودون للارتباط الوثيق بأسرهم. ولقد وجد كثير من الناس طريقهم إلى الإسلام عن طريق معايشتهم للأسر الإسلامية.

من الطبيعي أن يعتقد المرء أن «الحق في الحياة» حق لا خلاف عليه، وهو من حقوق الإنسان البديهية، ولكن هذا لا ينطبق إلا على المحظوظين منا من تمكنوا من اجتياز أخطر مرحلة لما قبل الولادة وتمت ولادتهم فعلاً.

فلم يُعد هناك - حتى في الأوساط الكاثوليكية - حركة قوية ونشطة مناهضة لمسألة تجنين عمليات الإجهاض والسماح بها. فليست صحة الأم فقط هي التي لها أولوية على حياة المولود في الغرب، بل هناك كذلك ما هو أهم من حياة المولود، مثل السيارة الثانية، والفراء الثاني، والإجازة الثانية. ويستخدم بعض الناس ذرائع العقليات المتحفظة موقفاً أصولياً متطرفاً من مجتمعاتهم، ويكتشف بعضهم أنهم فيما يخص مسألة إباحة الإجهاض أو تحريره، إنما يشاركون موقف الإسلام من تحريره، بل تحريره للإجهاض. وإن موقف الإسلام هذا، واتباعه أفضل بكثير من إلقاء القنابل على العيادات التي تجري فيها عمليات الإجهاض.

يستطيع المرء المتابع للمسيحية في موقفها من الجنس والمرأة، أن يلاحظ وجود التجاهين متناقضين، بل متطرفين، وذلك منذ بولس وباركوس وأوجوسنوس حتى يومنا هذا. ويتمثل هذان الموقفان في موقف شديد التطرف من المرأة والجنس ينادي بالبيوريانية الشديدة، ويکاد يرى في المرأة الشيطان نفسه. أما النقيض الآخر لهذا الموقف فهو الانغماس بلا حدود أو رادع في المللذات الجنسية. وإذا ما نظرنا إلى هذا الموقف الأخير على أنه غير مسيحي واستبعدناه تماماً من المسيحية، لامكنا فعلاً وصف المسيحية كما فعل Georg Denzler فأسمها «٢٠٠٠ عام من تحرير المتعة».

على النقيض من المسيحية، استطاع الإسلام أن يدمج الجنس في حياة المسلم اليومية دون اتخاذ موقف أحادي متطرف. كما أن الإسلام لم يتخذ موقفاً مناهضاً للمرأة أو الزواج ولم يرفع في الوقت نفسه الزواج إلى مسألة القدمية. لقد أبدى المسلمون دهشتهم من أن الجنس والعلاقة الزوجية مثاب عليهما من الله، فقام الرسول بتوضيح ذلك حيث بين لهم أن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج

الشرعى إنما هي خطيئة يعاقب عليها الإنسان، إذاً فالأمر الأول أى الشواب هو الوجه الآخر للعملة، أى للعقاب على الخطيئة. ويتناقض الموقف العقلاني الذى يتخذه الإسلام من الجنس مع الفطرة البشرية، ويفسر كذلك عدم وجود رهبة فى الإسلام وعدم وجود ساحرات! فإذا أراد الغرب أن ينجو أخيراً من التخبط بين النقيضين فى الموقف من الجنس- هذا التخبط الذى كلف المجتمع الغربى الكبير- فإن الإسلام دين الوسط يلوح كمخرج وملاذ.

أما بالنسبة لموضوع تحرير المرأة، فقد بدأ المرء يلاحظ صحة فى الغرب ، بعد أن اكتشفت بعض النساء أن الأواني قد فات ليصبحن أمهات فى خلال انغماسهن المحموم لتحقيق نجاحات باهزة فى مجال العمل . ولقد زاد من أسباب هذه الصحة أن الكثيرات من النساء لا يحظن أن الساحة السياسية ودنيا العمل لا يزال الرجل يحكم سيطرته عليهما ، وأن المرأة لا تزال تتعرض لأنواع شتى من الاستغلال حتى لأغراض دعائية وإعلانية . وفي ظل هذا المناخ ، فإن الكثيرات من النساء قد تيقن أن وضع المرأة فى الإسلام وتحرير الإسلام للمرأة لهو أنساب ما يعيشه الغرب . ولذلك تختار كثيرات من النساء- بحرىتهن- ارتداء غطاء الرأس ، والالتزام بالزى الإسلامى ليكتسبن وقاراً وكرامة واحتراماً كمن قد فقدناهن فى خضم التنافس على العرى العلى .

وبالنسبة لمشكلة الشذوذ الجنسي ، نستطيع أن نقول كلاماً مشابهاً لما ذكرناه عن الإجهاض . فإن الشائع الآن أن يبتعد المرء عن هذه المسألة . وقد شهد الغرب تخيطاً واضحاً وتراجعاً بين موقفين متطرفين من هذه المسألة؛ فتارة يعاقب القانون على الشذوذ ويعُدُّه جريمة ، ثم يتم تقبيل هذا الأمر حتى يكثُر الحديث عن إمكانية ممارسة حياة الشذوذ ، ويتحول الشاذ فجأة من مجرم إلى عضو في أقلية تتمتع بكافة الحقوق والحماية التي للأقلية ، بل لهم الحق في عقد الزواجات بينهم !

ولقد اتخذ الإسلام موقفاً عملياً عقلانياً من الشذوذ ، فالآية ١٦ من سورة النساء تقول ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا إِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَغْرِضُوهُمَا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَاباً رَّحِيمًا﴾ .

فكثير من المفسرين يعتبرون الآية- والأية التي تسبقها- عن الشذوذ ، والإيذاء هنا

كلمة واسعة تحتمل صنوفاً كثيرة من التعزير طبقاً للحالة، أهي مرضية وانحراف عن الفطرة بسبب التنشئة وما إلى ذلك؟ أم هي مجرد فسوق وعصيان يستوجب التعزير الشديد؟

وتقول الآية السابقة لها (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَهْدُوْا عَلَيْهِنَّ أُرْبَعَةٌ مِنْكُمْ إِنْ شَهَدُوا فَأُمْسِكُوْهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا)، ونجد هنا العقاب بحبس تلك النساء -بعد شهادة أربعة عليهن- في بيوتهن حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلاً، وتبين الآية ١٧ ذلك السبيل (إِنَّمَا الْقُرْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِعِجْمَاهَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قُرْبَبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيْمًا حَكِيمًا).

والإسلام لا يرفع الشذوذ إلى مستوى حياة مقبولة أو حتى مثالية. فالشذوذ لا يمكن عدده أسلوب حياة أبداً.

وهذا الموقف ينال إعجاب ورضا أناس في الغرب، ويزداد الإعجاب بوقف الإسلام حيث يؤدي هذا الموقف إلى مقاومة انتشار مرض الإيدز.

يتسنم المسلمون ابتسامة ذات دلالة عند رؤيتهم للمواد الطبية المستخدمة لإنقاص الوزن أو للأطعمة المخصصة للحفاظ على رشاقة الإنسان، خاصة أن مشكلة السمنة أصبحت إحدى الظواهر المخيفة في المجتمعات الغربية، أي مجتمعات الوفرة والاستهلاك. وسبب هذه الابتسامة التي تحمل قدرًا من الدهشة والسخرية، يعود إلى اقتناع المسلم بأن أنظمة التغذية التي تهدف إلى إنقاص الوزن لا فائدة منها إذا لم تصاحبها عملية تجديد ذهني وروحي، وأن صيام شهر رمضان كما أمر به الله وكما أراد لل المسلم أن يؤديه، يعني بكل ما تهدف إليه الأنظمة الغذائية وأكثر، أي: الإحياء الذهني والروحي، وممارسة الانضباط، وفقدان الوزن الزائد والسعرات الحرارية غير الضرورية.

لقد تعرف كثير من الناس في الغرب على الإسلام في شهر رمضان، وتبينوا من خلال هذا أن الإسلام دين يعني بالإنسان من جوانبه كافة، ويهمكم كذلك بإعادة تشكيل الإنسان.

يعانى الإنسان الغربى من التوتر، ليس فى موقع العمل فقط، ولكن فى أثناء إجازته، بل وخلال ممارسته للجنس داخل إطار الزواج أو خارجه. فمشكلة هذا الإنسان - والتي لم يفكر أحد فيها سابقاً - هي أن يتعايش مع الحياة. فالمشكلة ليست ماذا يحدث فى أثناء الحياة، ولكن المشكلة أن تكون أصلاً على قيد الحياة؛ ولذلك فإن الأمريكى المتوسط له دائماً طبيب نفسى، إلا إذا كان يتبع أحد الطرق التأملية مثل اليوجا أو طقوس الشاي اليابانية. ولن تجد إنساناً لا يعانى من أزمة وجوده هذه، إلا وعده الآخرون إنساناً غير متعايش مع واقعه وغير عاقل. ولذلك فإن William Ophuls ليس على خطأ تام عندما يقول إن علم الطب النفسى هو ذاته المرض ولو ادعى هذا العلم قدرته على شفاء الناس منه⁽⁷⁾.

ويكتشف بعض الناس أن الإسلام يستطيع أن يحقق معجزة وهى أن يجد الإنسان نفسه ويحفظ ذاته من خلال أداته للصلوة، والتسليم بكل شيء وبنفسه لله الأعظم الرحمن الرحيم. وفي نفس الوقت يوفر الإنسان هكذا أمراً طائلاً.

كتب فرانشيسكا أو جشتاين Franziska Augstein ذات مرة أن اقتصادات السوق الحرة حقاً يتم - حديثاً بمساعدة هيجل - توطينها أمام بوابات الجنة، أى في أفضل العالم كلها⁽⁸⁾.

ولن يستطيع أحد أن ينكر أن هذا النظام الاقتصادي تحول في الغرب إلى «مجتمع متخم بالرفاهية»، مجتمع التشتت والكابة (Andreas Püttmann)⁽⁹⁾. ولا تعود ملكية رأس المال المعامل والمحرك للاقتصاد الأمريكى إلى مستثمرين مغامرين يستطيعون إعطاء النظام الرأسمالى الحيوية الضرورية، والزيادة تشهدها المؤسسات التي تضمن عائدات الربا وليس المؤسسات التي تغامر برأس المال في مشروعات إنتاجية. ويرتبط بهذا النظام مخاطر مثل الركود.

أما الإسلام ياصراره على منع وتحريم الربا، فإنما يصر بهذا على تشغيل رأس

(7) Ophuls ص ١٩٨.

(8) Augstein «بإلهى قدسيتك عظيمة جداً» FAZ ٢٣/٤ ١٩٩٨.

(9) نقلأً عن FAZ ٢٧/١ ١٩٩٥ ص ٣٨.

المال الباحث عن الربح والزيادة عند شخص ثالث ولكن في صورة مشاركة في الربح والخسارة. ويؤدي تحرير الإسلام ونفيه عن المضاربة إلى حماية رأس المال ومنع التلاعب به في كافة الصور من أسمهم إلى عملات وغيره.

هناك من لا يجد مأرية في النظام الاقتصادي الاشتراكي المبني على الخبط، ولكنه يرفض كذلك الرأسمالية بحرفياتها غير المقيدة. يستطيع من يجد نفسه في مثل هذا الموقف أن يكتشف أن الإسلام يمثل طريقاً وسطاً في الاقتصاد خاصة بعد قراءته للتحليلات المبهرة لعمر شاپرا Umer Chapra، وهو سعودي من أصل باكستاني تعلم في الولايات المتحدة.

بعد أن تناولت بالعرض ما يمكن أن يقدمه الإسلام للغرب من مفاتيح جوهرية ومفاتيح أقل أهمية. (وما يجعل هذا الدين جذاباً بالنسبة للغرب)، فإنني سأحاول أن ألخص هذه الفروق الكثيرة بين الغرب والشرق في مسمى واحد، وإن كان هذا بطبعية الحال يقلل من حجم الحقيقة إن لم يكن يكاد يمحوها. الفارق الأساسي بين العالمين الغربي والشرقي يتلخص في الفرق بين «الكمية» و«الكيفية» & Quantity & Quality. فالغرب لا يعرف قيمة أي شيء مالم يستطع أن يعبر عن نفسه في أرقام. فالقيم الفكرية والروحية لا يمكن تسويقها أو الإعلان عنها، ولذلك فهي بلا قيمة مادية. وفي هذا الإطار، فإن اهتمام الإنسان الغربي يدور حول ما (يملكه وما يكون لديه) أما الإنسان الشرقي فيهتم (بالوجود). ويشتت ذلك أن الحديث يدور بكثرة في الغرب وليس الشرق عن «جودة الحياة». ومن يعيش في الشرق يكتشف في حقيقة الأمر: جودة ومعنى للحياة غير قابل للإعلان عنه أو تسويقه، يظهر في السلوكيات مثل: الموقف غير المتشنج بل الهدادى من الوقت، كرم الضيافة، تواضع العلماء، تحويل كل ما يراه الغرب من ضروريات الحياة إلى مرتبة ثانية، الهدوء والرضا والقناعة كأسلوب حياة.

إن الأمر كله يكمن في هذا «النور»، هذا الضوء الذي كان دائماً يشع من الشرق، هذا الضوء بمعناه الحرفي ومعناه الرمزي (ex oriente lux). إنني بجدالي هنا عن كون الإسلام يملك الإجابات الصحيحة عن أسئلة الغرب الكثيرة وأزماته المتعددة، إنما أوضح وأثبت أن الإسلام ليس طالب إحسان من الغرب، ولكنه مانع رئيسي لكثير من القيم وأساليب الحياة.

أما أن يعترف الغرب بهذا أو لا ، فهذا مسألة أخرى . فجميعنا يعرف بطبيعة الحال الكثير من المرضى أو المدمنين الذين يحججون الحقيقة ويرفضون الذهاب إلى طبيب حتى لا يواجههم بالحقيقة . وهذا هو حال المجتمع الغربي . فبالرغم من وجود تخليلات دقيقة ونافذة ذات دقة بالغة مثل تخليلات William Danill Bell وOphuls المبهرة ، فإن غالبية الناس الذين يعيشون معهم هذه الأزمة ، أزمة حضارتهم ، لا يعون أبعاد هذه الأزمة . فالاتجاه العام في الغرب يميل إلى إصدار أصوات الانتصار ، ولا يفيد التسخيص السليم والعلاج السليم مريضا إلا إذا تناول هذا المريض الدواء وتناوله في أوقاته . ولكن هذا غير متوقع ، فجزء من المشكلة هو أن الغرب قادر على الرؤية والفهم ولكنه غير قادر على الفعل ، كما هو حال كل الحضارات في حالات انهيارها . لقد صاغ ذلك الرئيس الألماني السابق Roman Herzog هذا عندما قال : «نحن لا نعاني مشكلة معرفة ، ولكن مشكلة تحويل هذه المعرفة إلى فعل»^(١٠) .

إن القرآن يتضمن أخباراً عديدة عن شعوب لم تستمع إلى صوت الحق ولم تستجب لرسالها ، بل ضربت بتحذيراتهم عرض الحائط حتى غربت حضارتهم تماماً . والغرب يتنتظر مثل هذا المصير . وبعد انتصاره على الشيوعية يتهدده تدمير الذات ومصير الفناء ، إلا إذا تجاوز تاليه الإنسان ، ووجد طريقه مرة ثانية عائداً إلى التمسك بالقيم الإلهية .

ويشير الإسلام إلى هذا الطريق .

* * *

(١٠) هيرتزوج Herzog خطبة برلين . العالم يوم الأحد ٢٧/٤/١٩٩٧ ص ١١ .

إسلام صنع في أمريكا

شعار ١ : إننا نخاطر بمستقبلنا ومستقبل أولادنا .
(L. Kolbe، أطلنطا جريدة : - USA Today تاريخ ١٩٩٨/١٠/٥).

شعار ٢ : إنني أعتقد أن أوضح صور الدين عند الناس اليوم هي الإسلام :
(F. Diernnatt - NZZ تاريخ ١٩٩٠/٤/٦).

تبعد المقوله القادمه غير متوقعة ، ولكنها بلا شك منطقية ، الا وهي : إذا كان مقدراً للإسلام أن يحقق في المستقبل المرئي نجاحاً في الغرب ، فإنه سيتحقق في الولايات المتحدة الأمريكية . وهناك أسباب كثيرة تؤيد هذا الرأي ، بينما لا ينفيه إلا القليل جداً من المعطيات .

أهم الأسباب التي تؤيد هذه المقوله ، هو في المقام الأول التعدد والتنوع الديني الهائل في الولايات المتحدة الأمريكية . فلا يوجد بلد في العالم - اللهم إلا البلاد المنخفضة (هولندا) . يتبع لمختلف الديانات والطوائف والفرق المختلفة حرية الحركة والعيش والشعور بالراحة ، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية . ولا يعود السبب في هذا إلى فتور ديني عند الأمريكيين ، بل على النقيض ، فالانتماء إلى كنيسة لا يعد - كما يعد في بلدان الغرب - أحد مظاهر الفكر المحدود ، بل هو أمر محمود .

ولكن السبب الحقيقي في رأيي أن الولايات المتحدة منذ تأسيتها ، تمثل الملاذ وبلد المهاجر لأناس فروا من بلادهم بسبب الاضطهاد الديني (بين الطوائف البروتستانتية والكاثوليك) .

ومن هذا المنطلق ، خبر الجميع من البداية ، أن حالة التعايش السلمي الداخلي لن تأتى إلا بالحرية الدينية المكفولة لكل فرد . فالتنوع والتنوع الدينى فى أمريكا يستند إلى العقل ، لا إلى اللامبالاة أو اللاإرادية .

ولكن يمكن القول إن أمريكا لم تولد كبلد يقبل التنوع والتعدد بسهولة ، بل استطاع أن يكتسب هذه الصفة وهذا التسامح بصعوبة .

فما كادت سفينة مای فلاور تصل في يوم 11 نوفمبر عام 1620 إلى الشاطئ ، ليؤسس ويليام برادفورد (1590-1657) مستوطنة بلايموث ، حتى نشب نزاع حول أمور دينية مع المستوطنة الثانية في خليج ماساشوستس . ومن الغريب أن يندلع هذا الخلاف في أوساط البيوريتانيين الذين فروا من أوروبا بفعل الاضطهاد الديني .

وتشير رواية «The Scarlet Letter» لكاتبها ناثانيال هوثورن إلى الأوضاع التي سادت أمريكا ، والتي أقل ما توصف به أنها قاسية ، حتى أن روجرز ويليامز (1603-1683) اضطر بسبب معتقداته الدينية التسامحة ، أن يفر للمرة الثانية ليصبح مؤسس رود آيلاند وعاصمتها بروفيدنس .

كذلك لم يستطع المستوطنون الأمريكيون الأوائل التغلب على حمى مطاردة الساحرات ! . كما هو موثق في :

(Memorable Providence Relating to Witchcrafts & Possessions - 1689).

لقد شهدت أمريكا في القرن السابع عشر ظاهرة حرق الساحرات في سالم^(*) و ماساشوستس ، بينما تظهر مطاردات مماثلة . على طريقة السناتور چوزيف ماكارثي (1909-1957) . من حين إلى آخر على السطح .

ولقد استشعرت مدى تقبل الولايات المتحدة للتنوع وتمتعها بالاختلافات مقارنة بأوروبا ، في زيارة قمت بها عام 1996 للبيتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) . فلقد كنت أناقش مع رئيس لجنة الشئون المعنوية للجيش إشراث رجال دين مسلمين

(*) تم حرق أكثر من 20 ساحراً وساحرة ، وسجن أكثر من مائة في أواخر القرن السابع عشر في مدينة سالم .

في أفرع القوات المختلفة، كال走路ة والجوية والبحرية. ولقد سبقت الموافقة على تعيين ٤ منهم بالرغم من وجود ٤٠٪ فقط من الجنود المسلمين و١٠٪ من الضباط المسلمين في القوات المسلحة الأمريكية (هناك بالنسبة ٥٠٪ و٦٠٪ فقط من اليهود).

لقد تسلم أول إمام في القوات المسلحة الأمريكية «عبد الرشيد محمد» عمله في الجيش الأمريكي عام ١٩٩٣م، وانضم إلى الفرقة ١٨ في فورت براج. وقد تولى مالك بن نوبل عام ١٩٩٨م عمله كأول إمام للبحرية. ومنذ ذلك الوقت، يوجد جامع في قاعدة الماريتر في نورفولك بولاية فيرجينيا لخدمة ٧٢٥ بحار مسلم، كما يتم منحهم وقت لأداء صلاة الجمعة.

أما الأدميرال موشونـ والذى يعتنق سكرتيره الإسلامـ فمهتم للغاية أن يؤمن جنوده بشيء ما، ولكنه لا يهتم بما يؤمنون به!

ولقد كان اهتمامه منصبًا على أشياء أخرى، مثل محتويات «مخلة» الإمام! فمخلة القسيس الكاثوليكي فيها صليب من الفضة، وكتاب العهد الجديد، مطرف، نبيذ وزيت. ولقد أخبرته أن المسلم لا يحتاج إلى تجهيزات خاصة، حيث أنه يحفظ القرآن كما يمكنه الصلاة في أي مكان تتوافر فيه شروط الطهارة، ولكن هذه الإجابة لم تقنع رضا الأدميرال، حيث يرى ضرورة اتباع التعليمات، فالتعليمات هي التعليمات، ويجب على رجل الدين في الجيش أن يحمل «مخلة» حربية. ولم يجد محدثي ارتياحًا إلا عندما أخبرته أن بإمكانه تجهيز «مخلة» المسلم بالقرآن الكريم وكتاب جامع للأحاديث وسجادة صلاة وماء زمزم.

كما أكد الأدميرال ضرورة معرفة هؤلاء بما يجب على المسلم أن يرتديه وما هو محرم عليه أكله. (لقد طبع لوازمه كتيب يضم كافة المعلومات عن ٢٦١ دين مختلف في صفوف قوات الجيش) وبما أنه مذكور أن على المسلم ارتداء غطاء للرأس، فيتحقق وبالتالي للمجنديات الأمريكية المسلمات ارتداء غطاء للرأس أثناء تأديتهن للخدمة.

هناك بجانب هذه التعددية عامل آخر يعزز من فرص الإسلام في أمريكا. فالإسلام لا يمثل في العقل الجماعي أي خطر أو تهديد. وبعد طرد الإنجليز، اهتم الأمريكيونـ على وجه الخصوصـ بما يجري في كل من أمريكا الوسطى والجنوبية،

وخير دليل على ذلك مبدأ مونرو وأزمة كوبا عام 1962. لقد علم الأميركيون منذ الحرب العالمية الأولى خطورة التورط في مشاحنات وصراعات أوروبا، كما نما في وعيهم، بل رsex فيهم، الخطر «الأصفر» وذلك منذ بيرل هاربور في الحرب العالمية الثانية، أما الإسلام فلم يلتفت انتباه المواطن الأميركي المتوسط غير اليهودي، إلا منذ الهجوم على مركز التجارة العالمي.

أما العامل الثالث الذي يظهر في صالح الإسلام، فهو عدم ظهور المسلمين كجماعة إثنية عرقية واحدة، فهم يتبعون إلى كافة بلدان العالم وكافة الأعراق المختلفة، وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن لا تجده مساجد ذات صبغة هندية وپاکستانية وأخرى عربية وثالثة أفر وأمريكانية، ولكن يبقى في نهاية الأمر حقيقة أن المشهد الإسلامي في أمريكا متعدد الأعراق. الاستثناء الوحيد تلقاه في مدينة ديربورن بالقرب من ديترويت، حيث لا تكاد تلقى سوى شيعة لبنانيين، كما تمثل الدوائر الصوفية استثناءً آخر، فمعظم المتصوفة الأميركيين من ذوى البشرة البيضاء، يفضلون الانغلاق على أنفسهم وعدم الاختلاط بغيرهم !

إذا كانت هناك مجموعة متماسكة ومتراقبة من المسلمين، فهم الأفروأمريكيين. ولكن هؤلاء ليسوا مهاجرين يمكن ترحيلهم إلى بلادهم. ويعتقد الكثير من المسلمين السود أن أسلافهم الذين وقعوا في رق العبودية كانوا مسلمين، كما أنهم على يقين أن أسلافهم حملوا على سفن يملكونها يهود إلى أمريكا، حيث أصبحوا: «بضاعة» لتجار رقيق مسيحيين. وهناك قوائم تحمل أسماء سفن العبيد ومالكيها اليهود تتداولها أو ساط السود. ويحمل اعتناق الأميركيين السود للإسلام اليوم احتجاجاً ثقافياً سياسياً وحنين إلى الماضي.

كانت هناك حتى وقت قريب ظاهرة سلبية تمثل في تعرف المسلمين السود على الإسلام واعتناقهم إياه، عن طريق جماعة «أمة الإسلام» وزعيمها إليجا (Elijah) محمد، والذي ينسب لنفسه النبوة، كما يدعوا لإسلام معادى للبيض واليهود، أى لإسلام عنصري. فهناك مسلمون ذوو أهمية - مثل مالكولم إكس، فيما بعد مالك الشباظ (1925-1965) كاسيوس كلاي، فيما بعد محمد على - تعرفوا أول الأمر على الإسلام عن طريق هذا الزعيم.

ولقد اتسمت الخطوة التي اتخذها ابن إلبيجا ووريث الدين محمد، بأهمية ثقافية سياسية بالغة. فلقد استطاع بعد وفاة والده أن يدفع الجزء الأكبر من (أمة الإسلام - Nation of Islam) إلى نبذ كافة أشكال العنصرية، وأن يتعدوا عن المركبة وأن ينضموا إلى الأمة الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية.

كما تيقن مالكولم إكس في مكة أثناء حججه، أن الرجل الأبيض الذي يؤمن بوجود الله الواحد الأحد، يؤمن كذلك بوحدة الإنسانية، وأن حاجة أمريكا إلى الإسلام تتمثل في أنه وحده قادر على تخلص المجتمع من عنصريته.

ومنذ ذلك الوقت، أصبحت لا تجد من يدعوا إلى إسلام عنصري ومغاير للإجماع، سوى الزعيم الجديد لجماعة «أمة الإسلام» لويس فرخان ولكنه على ما يبدو مستعد لأنضمم أتباعه إلى الجماعة السنوية للمسلمين الأمريكيين من أصول إفريقية، ولقد ظهر استعداده هذا بوضوح بعد لقائه التاريخي بوريث الدين محمد في ربيع عام ٢٠٠٠ م.

أما العامل الرابع المميز للإسلام ولفرص انتشاره في أمريكا، فهو أن غالبية المهاجرين المسلمين أتوا ويتلون إلى يومنا هذا. كطلبة علم إلى الولايات المتحدة، وبالتالي فإن الجزء الأعظم من أمة المسلمين في أمريكا يتالف من مسلمين على درجة عالية من التعليم والثقافة.

وأن تكون مسلماً في أمريكا يعني أن تكون أكاديمياً. وتدفع هذه الحقيقة عن الإسلام شبهة أن يكون دين أميين وجهلة. بل على النقيض، هذه الحقيقة تمنع الإسلام وضعاً اجتماعياً متميزاً و موقفاً مالياً قوياً. فعندما يجتمع المسلمون على عشاء بهدف جمع تبرعات، سرعان ما يجتمع مبلغ الـ ١٠٠ ألف دولار وذلك من عدد محدود جداً من المحضور. ولقد رأيت بنفسى تبرعات تصل إلى ربع مليون دولار. ومن أمثال الأكاديميين المسلمين، أحب أن أذكر د. نظير خايا من أصل هندي، وهو طبيب متخصص في الكلية خريج جامعة هارفارد، ويشغل منصب مدير مركز المعلومات الإسلامي IIS (Islamic Information Service) في لوس أنجلوس. أما رئيس منظمة الحقوق المدنية للمسلمين الأمريكيين (Council of American Islamic Relations) CAIR عمر أحمد الفلسطيني الأصل، فهو

متخصص في اختبارات مكونات الكمبيوتر الدقيقة. وفي سانتا كلارا، في قلب وادي السيليكون، تجد ما لا يقل عن ٧٠٠ خبير كمبيوتر مسلم. ولقد شارك الكثيرون منهم في تطوير (PentiumIII).

يمارس بعض المسلمين بكثير من النجاح أعمالهم الخاصة، ويدبرون شركات متخصصة في مجال الـ (Software). وتستفيد هذه الشركات من موهبة الهنود المميزة في مجال الرياضيات.

وهناك حقيقة أخرى تميز وضع المسلمين في الولايات المتحدة عن غيرهم من مسلمي أوروبا مثل ألمانيا، وهو تعميم بحق المواطنة، فغالبية مسلمي أمريكا يحملون الجنسية الأمريكية، ولقد ساعد هذا على اندماجهم في مجتمعهم الجديد، بل إنهم يحاولون غرس جذورهم في هذا الوطن الجديد، كما ساعد على تحقيق هذا بعد المسافة عن الوطن الأم جغرافياً. فالزيارات المتعددة خاصة في وجود عدد هائل من الأولاد إلى الهند أو سوريا يكون مكلفاً للغاية، ولذلك تباعد الزيارات.

تنشط غالبية المسلمين في المشاركة في الحياة السياسية في أمريكا، محتذين بمثال الأقلية اليهودية. ولا يخرج عن هذا الخط إلا جماعات صغيرة مثل حزب التحرير.

يمثل (مجلس المسلمين الأمريكيين - American Muslim Council) مسلمي أمريكا على المستويات العليا عند الحكومة الاتحادية، ويرأس هذا المجلس د. عبد الرحمن المودي وهو من أصل مصرى. وبهتم بشكل ملحوظ بـ لا تخلو الساحة أمام البيت الأبيض من دليل وجود إسلامي، فتتوارد بجوار الرموز اليهودية والمسيحية رموز إسلامية، وإن كلفه الأمر أن يقوم بنفسه بتنفيذ ذلك.

وهناك منظمة أخرى هي American Muslim Association AMA تولى هذه المنظمة الانتخابات اهتماماً خاصاً، فتبحث موقف المرشحين في كل دائرة انتخابية من هموم المسلمين والمسائل الإسلامية، فالمسلمون لا يوصون بحزبيه، ولا تصدر توصية لصالح مرشح على وجه الشمول، أى لا يصوتون للمرشح الديمقراطي أو الجمهوري، بل يحددون موقفهم في كل دائرة على حدة. ولقد حققت المنظمة في الانتخابات الماضية نجاحاً هائلاً، حيث تمنت من دفع مليون

مسلم للإدلاء بأصواتهم في الانتخابات الرئاسية، بعد أن كان الكثير منهم يبتعدون تماماً عن مسألة الانتخابات هذه.

أما منظمة CAIR والتي تنهج نهج المنظمات اليهودية، فتتسم بالنشاط الملحظ، سواء كان هذا في مجال الإعلام أو في حماية شخصيات مسلمة من الاضطهاد، خاصة وأن المنظمة تستعين بخبير إعلامي مثل إبراهيم كوiper (Cooper). يقوم أحد العاملين بالمنظمة كل يوم من خلال إلـ Internet بالتحقق من عدم وجود حوادث أو مواقف معادية للإسلام، وإذا ما وجد مثل هذا الموقف، يتم تعبئة الرأي العام من خلال الإعلام، فينهال ما يزيد عن ٢٥ ألف احتجاج من المسلمين العاملين في كافة المجالات، كالإعلام والاقتصاد والإدارة، فصاحب العمل - على سبيل المثال - الذي يفصل عاملة بسبب ارتدائها للحجاب، سيعجد على بابه جمهور من المسلمين يحملون اللافتات معتبرين على قراره هذا!!

لقد قامت CAIR في بدايات عام ١٩٩٩ بمقاضاة إدارة مطار Dulles في واشنطن D.C. لأنها قامت بطرد ٧ من الموظفات بسبب ارتدائهن الحجاب، وقد نجحت المنظمة في مسعاهما هذا، حتى أن الموظفات رجعن إلى أعمالهن مع دفع رواتبهن بأثر رجعي، وتعويض قدره ٢٥٠٠ دولار، بالإضافة لاعتذار مكتوب، وموافقة على طلب إعطاء العاملين بالمطار دورات تسمى الحساسية الدينية، أي مراعاة الشعور الديني لدى الآخرين (Religious Sensitivity Training).

ولقد كانت هذه الواقعة عمل روتيني بالنسبة لـ CAIR وليس حادثة فريدة. فلقد استطاعت المنظمة من قبل أن تخضع معارضين أقوى من خلال تلويعهم وتهديدهم بالمقاطعة مثل Master Card بسبب إعلان خادش للحياء في أحد المساجد. وكذلك شركة NIKE بسبب نعل حذاء إذا ما قرئ عريساً كان يحمل اسم الله. وكذلك Simon & Schuster بسبب فصل يتضمنه أحد كتب الأطفال يحوي إهانات للإسلام.

وتقوم منظمة CAIR بنشر تقرير عملى مفصل عن وضع الحقوق المدنية للمسلمين في الولايات المتحدة. وذلك بشكل علنى، حيث يتم ذلك في مؤتمر سنوى. ويقوم هذا التقرير بوظيفة قياس الوضع وتحديد الواقع المعادية للإسلام

بشكل إحصائي وتحليلي. ومن الأحداث المثيرة، اللقاء السنوي للمسلمين الأمريكيين والذى يدعوه له المتحمس د/ سعيد محمد سعيد من كشمير، فعندما تدعو الجمعية التى يرأسها (المنظمة الإسلامية لأمريكا الشمالية- Islamic Society Of North America) إلى مؤتمر، يتجمع حوالى ١٢-١٧ ألف مسلم من كافة أنحاء أمريكا، غالبيتهم من الشباب (وغالبية الشباب هذه من النساء). لقاءات عقدت: ١٩٩٦ كولومبوس بولاية أوهايو، ١٩٩٧ شيكاغو، ١٩٩٨ سان لويس بولاية ميسوري.

يصاحب هذه التجمعات واللقاءات إقامة سوق تجاري في إحدى المدن الكبرى، ويضم كل ما يشهده المسلم من ملابس وحلوى ومستحضرات تجميل شرقية ويرامح كمبيوتر إسلامية، وكذلك تلاوات للقرآن على شرائط كاسيت وأسطوانات للكمبيوتر، كذلك كتب وسبح، وسجاجيد صلاة ومشهيات شرقية، وهذا من ضمن ما يتوجه بلد الإمكانيات غير المحدودة أمريكا.

وتتهرز بعض المنظمات الإسلامية. مثل اتحاد الأطباء والمحامين والمهندسين وعلماء النفس والمعلمين والطلبة. فرصة انعقاد هذه المؤتمرات، للدعوة لانعقاد مؤتمراتهم السنوية. وفي مثل هذه التجمعات، يلاحظ المرأة الجو الأكاديمي الخالص والتوجه الأكاديمي الذي تتصف به الأمة الإسلامية في أمريكا.

يتسم المسلمون في أمريكا بصفات أمريكية، مثل الديناميكية ودرجة تنظيمهم العالي، وفضائل المجتمع المدني، وإحساسهم المهني العالي.

وسيزداد كل هذا إذا ما انضم إليهم من الصحفيين والمحامين المتحمسين للعمل من أجل الإسلام من خلال سياسة المنح والرغبة في زيادتها والتي تتبناها CAIR.

تصدر في أمريكا أهم المجلات الإسلامية في العلوم الاجتماعية، وهي مجلة (AJISS) American Journal of Islamic Social Studies

كما ستجد أول كلية معترف بها في الغرب للدراسات الإسلامية وهي: School of Islamic and Social Studies (SISS) في Leesbing بولاية فلوريدا حيث يقوم بالتدرис فيها كل من د. طه جابر العلواني (أمريكي من أصل عراقي) و د. منى

أبو الفضل و د. إقبال يونس، وأستاذ اللغة العربية الأمريكية يوسف طلال دولورنزو . بالإضافة إلى ذلك هناك العديد من دور النشر الإسلامية.

Amana, Razi, American Educational Trust, Threshold Books

والمجلات والمعاهد البحثية مثل معهد الدراسات الإسلامية والعربية في أمريكا: Institute of Islamic and Arabic Sciences in America (IIASA) القائم في Faiv بولاية فيرجينيا.

وهناك شبكة تضم حوالي ٤٠٠ مدرسة إسلامية خاصة، يقوم مجلس المدارس الإسلامية في أمريكا الشمالية بالتنسيق فيما بينها: Council of Islamic Schools in North America (CISNA).

وما يدعو للغخر ، أن يكون الأستاذ خالد يحيى بلاتكشب وهو مسلم ، أستاذ كرسي لادة التاريخ بجامعة Temple في فيلادلفيا .

لا توجد في أمريكا قناة تليفزيونية إسلامية ولا محطة إذاعية كاملة ، ولكن يوجد IIS Videos للمحطات التليفزيونية الخاصة ، كما تقوم منظمة الإذاعة الكندية بتخصيص ساعات إرسال منتظمة للمسلمين ، وكذلك الحال بالنسبة للعديد من المحطات الإذاعية .

يمكنا في مجمل القول أن نتبين أن النشاطات الثقافية الإسلامية تتركز في كل من نيويورك ، شيكاغو ، واشنطن ، ولوس أنجلوس . وتزداد أهمية الأخيرة هذه لوجود د . فتحى عثمان بها ومارسته لنشاطه الممحوظ فيها .

ومن المتوقع بطبيعة الحال وجود الكثير من المساجد في البلاد ، وقد بلغ عددهم عام ١٩٨٨ م « ٣٥٩٦ » مسجداً منهم « ٦٠ » بلوس أنجلوس و « ١٢ » في كليفلاند ، ولكن مما يثير الدهشة أن تجد في صحراء أريزونا في فونيكس ، غودج مصغر لقبة الصخرة بالقدس ، والتي يرتادها الهندو- الدين أسلموا- كجامع ومسجد لهم !

أما أقدم من أسلم من الأمريكيين فهو فيسورتى بي إرفنج والذى أقام أول جامع سنى بالبلاد فى موطن رأسه Ceder Rapids بولاية Iowa وأول من قدم ترجمة أمريكية للقرآن ، فما كان أن يجرؤ أن يحلم بأن يرى فى حياته هذا الكمال

من البنية الأساسية للإسلام في الولايات المتحدة، حتى أنه وصل إلى كلية الحقوق بجامعة هارفارد نفسها. هل كان ليحمل بـ ٦ أو ٧ مليون من الإخوة في الإسلام؟

* * *

نظرًا لما يتمتع به مسلمو أمريكا الشمالية من كثافة المتعلمين المثقفين وتتوفر مقومات البحث المثالية هناك، خاصة عدم وجود رقابة، فإن العالم الإسلامي يرثى بآمال عريضة إلى إخوته وأخواته في أمريكا.

فهل من الممكن أن يستمد الإسلام بوعث نهضته الازمة في الألفية الثالثة من أمريكا؟

ومن الضروري أن نشير إلى أن مسلمي أمريكا يواجهون الكثير من الصعاب، فهم لا يجدون أنواراً من اللبن والعسل في أمريكا، بل يواجهون موقفاً صعباً شرساً نظراً لوجود آلة الإعلام الصهيونية والنفوذ الصهيوني المتغلغل في كافة المجالات والمنظمات، وهناك الكثيرون بينهم يعتقدون أنهم يفيدون إسرائيل عندما يشوهون صورة الإسلام، وبالنسبة لهذه النقطة على وجه التحديد، فإن وضع المسلمين في أوروبا أفضل بكثير من مسلمي أمريكا.

وللأسف، فقد تدهور الأمر في الآونة الأخيرة بالنسبة للمسلمين. ومن المؤشرات الدالة على ذلك رد الفعل الفوري الذي عم أمريكا عندما وقع الانفجار في أوكلاهاما سيتي يوم ١٩/٤/١٩٩٥، فلقد تم الصاق الفعل بال المسلمين دون وجود دليل على ذلك، حتى أنه تم إلقاء القبض على مسافر عربي ملتحى لا لشيء إلا لأنه قام بحجز رحلة طيران إلى إنجلترا. ولقد وقعت في الأيام التالية حوالى ٢٠ حادثة اعتداء وهجوم على منشآت إسلامية وأفراد المسلمين، ومن ضمن الاعتداءات: اعتداء بالأسلحة الخفيفة والضرب المبرح وكسر النوافذ الزجاجية، وتهديد بالموت وإلقاء القنابل عبر التليفون. لقد وجد أطفال مسلمون أنفسهم فجأة منبودين لا يكلمهم أصدقاؤهم في المدرسة (حتى بعد إلقاء القبض على الجناة الذين تبين أنهم ليسوا مسلمين، فما زال المسلمون في انتظار اعتذار لهم).

كما كان إلقاء القبض على «الفهد الأسود» السابق Rap Brown Black Panther (التي سميت الموسيقى به Rap على اسمه) بمثابة ناقوس خطر. لقد أسلم راب وهو في أحد سجون نيويورك، وتعلم العربية وأصبح إماماً يحمل اسم جميل عبد الله الأمين، وهو اليوم يرأس جمعية مساجد أطلنطا بولاية جورجيا، وبعد من أكثر الشخصيات الإسلامية نفوذاً في أمريكا الشمالية. بالرغم من ذلك، وجه له المكتب الفيدرالي تهمة القتل، ولقد تلقى حكماً بالبراءة عندما اعترف الشاهد الرئيسي في قاعة المحاكمة أن البوليس أجبره على الإدلاء بالشهادة الزور، وأعلن اعتناق الإسلام.

إن تأثير القوى الصهيونية على وسائل الإعلام والجامعات ودنيا المال والكونجرس ودوائر الحكومة قوى للغاية، ويسطع ب بصورة متحكم حتى يبدو أن السياسة الأمريكية تجاه العالم الإسلامي لا تأخذ المصلحة القومية في الاعتبار عند اتخاذها لقراراتها!

وليس من المستغرب أن يتهم البعض «قوى العظمى - أمريكا» - بخضوعها لتل أبيب ورغباتها، في كافة قراراتها، ويفيد ذلك تصريحات مثل تصريح آل جور نائب الرئيس الأمريكي والمرشح الجديد للرئاسة (إن التزامنا بحفظ أمن إسرائيل غير مشروط) (١٩٩٨/٥/١٨) هناك بعض الاتجاهات المعارضة لهذا تمثل في كتاب (إنهم يتجرأون على الكلام - Paul Findley - They dare to speak out.

وكذلك كتاب: أمة واحدة تحت سيطرة إسرائيل.

Andrew Hurley - (One Nation Under Israel)

ومن يشير قلق واستياء الأمة الإسلامية الأمريكية، أن أنور خدام مثل الجبهة الإسلامية الجزائرية، والذى مارس نشاطه لسنوات طويلة في واشنطن، قد تم القبض عليه وهو في طريقه إلى السويد دون إدعاء رسمي، كما تم إدراج اسمه على قائمة شرطة الهجرة لخطورته على الأمن. ونظرًا لما سبق، فلا يشير ظهور فيلم (الحصار - The Siege) أدنى دهشة، حيث تم تصوير المسلمين الأمريكيين كخطر إرهابي يهدد الولايات المتحدة. (يمكنك أن تخذل بالثلث أية جماعة دينية يدين لها صناع الفيلم بالولايات).

ولكن الأهم من كل ذلك، أن بعض الكتاب المسلمين من أمثال Betty Bowman يسوقون اليوم حججاً جديدة، مثل رأيهم القائل بتطابق القيم الإسلامية مع قيم الثورة الأمريكية؛ ليتحرك المسلمون من منطلق وطني باستفادة أمريكالياتهم التي هي قيمها الأصلية، بل يتضاعد هذا الاتجاه من خلال كتاب The Sun Rises in The West - الشمس تشرق في الغرب - الصادر عام 1999م، والذي يعطى مؤشراً أن ليس فقط تجديد الولايات المتحدة، بل تجديد الإسلام كله سينطلق من أمريكا!

* * *

ماذا سيحدث إذا أتوا فعلاً؟

شعار: «إن الاحتمال الثالث القائم هو أن يداهمنا الإسلام».

فى حديث مجلة دير شبيجل (Der Spiegel) بتاريخ Fuldaer Bischof Dyba) (١٩٩٧/١٢/٢٢).

١٠

يتضح من الفصول الأخيرة أنه وفقاً لتقديرات البشر، فإن «اختراق» الإسلام للغرب وتحقيق انتصار فيه أمر غير متوقع في الوقت الحالي، حتى في أمريكا الشمالية. هذا النصر كما جاء في سورة النصر (١-٣) التي وردت في القرآن الكريم: «إِذَا جَاءَ نَصْرٌ اللَّهُ وَالْفَتْحُ ١٠ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ١١ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَمْتَغَفِرَةً إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا ١٢». ولكن من المحتمل ألا يكون النصر صورة مستقبلية في عصرنا نحن. قد تكون نبوءة بما وقع فعلاً قبل وفاة الرسول، الدخول السلمي لمكة في ١١ من يناير عام ٦٣٠ والذى واكبه دخول أعداد غفيرة من الناس في دين الله، الإسلام. ويريد هذا التفسير رواية عن الرسول، مرة عن طريق جابر بن عبد الله، وأخرى عن طريق أبي هريرة: «إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا»(*). ولكن لندع أمر المستقبل للمستقبل.

أما ما يشغل بال الناس في الغرب اليوم، فهو ما سيحدث لهم وما سيصيب أسلوب حياتهم إذا ما أصبح المسلمون في الغرب أغلبية. إن هذه المخاوف وإن

(*) [ضعيف] أحمد ٣٤٣/٣، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» [١٧٩٦].

بدت مبهمة، إلا أنها مخاوف حقيقة، يعمل على تجسيدها وزيادتها، بل المبالغة فيها كتابات لكتاب من أمثال Wiheim Dietl في كتابه (الحرب المقدسة في سبيل الله) وكذلك Gerhard Konzelmann (Heiliger Krieg für Allah) في (التحدي الإسلامي) (حكم Peter Scholl - Latour, Rolf Stolz, Die Islamische Herausforderung (Mullahas am Rhein, Kommt der ملا على ضفاف الراين، هل يأتي الإسلام) (Wie Feuer und Wasser - Bassam Tibi Islam?)^(١).

وسيئني هذا الكتاب فصوله بالتعليق على هذه المخاوف؛ لأنها ليست مسألة نظرية فقط، ولكنها مخاوف متعلقة بالمستقبل وذات تأثير على الحاضر. ولذلك فإني أقوم هنا بالإشارة إلى الحماية التي يكفلها الإسلام للأقليات الدينية، وإثبات أن وضع الأقليات في الإسلام، وما تتمتع به هذه الأقليات من حماية وحقوق، ليبين بالفعل أن الإسلام أكثر النظم التي عرفها العالم - إلى يومنا هذا - ليبرالية.

أود من خلال هذا العرض أن أوضح أن المسلمين في الغرب يطالبون دول الغرب بالقليل جداً، مقارناً بما هم، أي المسلمين، على استعداد لمنحه للأقليات التي تعيش في دول إسلامية.

٤٠

تعود ضرورة مناقشة تسامح الإسلام إزاء البيانات الأخرى إلى آيتين وردتا في القرآن وأسيء تفسيرهما، وهما الآية ١٩٠ من سورة آل عمران والآية ٣٣ من سورة التوبة. فالآية الأولى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» (آل عمران: ١٩٠) كثيراً ما يتم ترجمتها بعبارة: «إن الدين عند الله هو دين الإسلام». وهذه الترجمة التي تساوى الإسلام بالشرع الإسلامي ترجمة غير دقيقة؛ لأن كلمة الإسلام التي وردت في الآية إنما تعنى - كما كثُر استخدامها في القرآن في مواضع شتى - معناها الأساسي والأصلي أي التسليم لله، هذا المعنى الذي فهمه الرسول وصحابته، وليس دين

(١) يرى طبي في Der Spiegel ١٩٩٤/٣٧ ص ١٧٠ فيما يكتب تحت هذا العنوان أن الإسلام التقليدي لا يفتح مجالاً لحقوق الإنسان الفردية، حتى الحق في تكوين وإبداء رأي حر ينكره الإسلام على الإنسان، وبالتالي لا تستقيم حرية الرأي مع الإسلام.
فالشرعية تفصل المسلم عن جميع الحضارات التي تعرف بحقوق الإنسان) (ص ١٧٢).

الإسلام^(٢). ولذلك لابد أن تفهم هذه الآية على محملاها الصحيح ، أي أن الدين الحق عند الله هو التسليم له^(٣). فالإسلام يعني إسلام النفس لله والتسليم له.

ويجدر أن نكرر نفس القول بالنسبة للآية ٨٥ من السورة نفسها (سورة آل عمران): «وَمَن يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامَ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ». وهنا يجدر كذلك فهم الإسلام على أنه التسليم لله.

وهذا الأمر يسرى كذلك على ترجمة الآية ٣٣ في سورة التوبه: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهُ الْمُشْرِكُونَ». وهنا يسمح فعل «ظهير»، بمعناه في اللغة العربية، بتفسير الآية بأن دين الحق سطع على الديانات الأخرى، كما يسطبع نور أقوى على مصادر أخرى للنور، وليس انتصار دين وسحق أديان أخرى.

ولقد تعرضا في فصل سابق (لا تفرقة على أساس اللون) لما يتضمنه الإسلام من مبدأ أساس للمساواة بين البشر، ولرفضه التفرقة بجميع صورها. ونحن هنا ننتقل من نفي عدم تسامح الإسلام مع الديانات الأخرى، إلى إثبات أن الإسلام يتسامح مع الأديان كافة من خلال موقف مبدئي واضح. وإننى أستشهد هنا بالآية ٤٨ من سورة المائدة: «لَكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرَعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوْكُمْ فِي مَا آتَيْكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَبْيَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ». ولكن هناك عدة مواقع قرآنية أخرى تناولت مثل هذا الموقف، مثل: الآية ١٣ من سورة الحجرات: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُرًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرَفُوا إِنَّ أَكْثَرَكُمْ عِنْ دِينِ اللَّهِ أَنْقَاتُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»، وكذلك الآية ٢٥٦ من سورة البقرة: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، والآية ٦١ من سورة الكافرون:

(٢) مثلاً ترجمة القرآن لـ محمد حميد الله (Paris, 1967) وكذلك (Brattleboro, 1989) Denise Masson (Paris, 1967) وكذلك (Brattleboro, 1985) T. B Irving.

Rashif Said Kassab (Amman, 1987) Marmaduke Pickthall (London, 1930)

كذلك الترجمات السعودية الرسمية إلى اللغة الإنجليزية (المدينة ١٩٩٢).

(٣) هناك أقوال يعنى فيها «الإسلام» الدين الإسلامي فعلاً كما هو في الآية (٣) من سورة المائدة.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ . والآية (٢٩) من سورة الكهف: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رِبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلِيُؤْمِنْ وَمَنْ مِنْ شَاءَ فَلِيَكُفَّرْ﴾ . والآيات (٦٧-٦٩) من سورة الحج: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يَنْأِزُنَّكُمْ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَيْ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ لَعَلَىٰ هُدَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٧) وإن جَادَلُوكُمْ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ه﴾ . وأيات سورة المائدة (٤٢-٤٨): ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكُمْ وَعِنْهُمُ الْتُورَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّنُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١) إِنَّا أَنْزَلْنَا الْتُورَاةَ فِيهَا هُدَىٰ وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْجَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابٍ اللَّهُ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءٍ فَلَا تَخْشُوا النَّاسَ وَأَخْشُونَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثُمَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٢٢) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسَّنَنَ بِالسَّنَنِ وَالْجُرُوحُ فِصَاحِبُ فِيْهَا تَصْدِقُ بِهِ الْهَرَبَ كُفَّارَةً لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَقَهَّنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِسَى ابْنِ مَرِيمَ مُصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتُورَاةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدَىٰ وَنُورٌ وَمُصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتُورَاةِ وَهُدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّهِنِينَ (٢٤) وَلَيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٢٥) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِيمَنَا عَلَيْهِ فَاحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَبَعُ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ لَكُلُّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكُمْ لِيَسْلُوكُمْ فِي مَا أَنْتُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُبَشِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ه﴾ .

لابد أن هذه الآيات تكفي دليلاً على أن الإسلام يرى:

- ١- النوع الديني والعرقي طبيعة أرادها الله وأقرها.
- ٢- الإيمان مسألة لا تخضع لأى ضغوط أو إكراه.
- ٣- النزاعات والخلافات الدوجماتية غير مشمرة.

لابد أن هذا الموقف جدير بالإعجاب إذا كان يهدف إلى التعايش السلمي

فحسب، ولكنه يتجاوز هذا لأن الإسلام مهتم بالوحدة والتنوع كمبادئين في حد ذاتهما.

يرى الإسلام أن وحدة البشر ترتكز على دعامتين، أولى هذه الدعائم هي الوحدة الأنثropolوجية للبشر، أي وحدة الوجود والوحدة التي تجمع المخلوقات كافة وما خلقت من أجله، وهي عبادة الله. فقد ورد في القرآن في الآية ٤١ من سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرُ صَافِاتٍ كُلُّ قَدْ عِلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

أما في سورة النحل فقد ورد في الآيتين ٤٨ و ٤٩: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ مُسْجَدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكِبِرُونَ﴾.

- وورد كذلك في الآية ١٨١ من سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ...﴾.

ووفقاً لهذه الوحدة الكونية لكل الموجودات والمخلوقات، فلا توجد فوارق إذا بين السنى والشيعى، بين الكاثوليكى والبروتستانتى، بين المسيحى واليهودى، بين البوذى والهندوسى. فهم جميعاً شركاء في الفطرة البشرية. ويركز الله هذا في سورة الأنبياء الآية ٩٢: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ والمقصود: بالأمة هنا هي أمة البشر كافة أي البشرية جمعاء.

أما الركيزة الثانية لأساس الوحدة، فهي الرابطة الإبراهيمية التي تجمع الموحدين كافة كما تعبّر الآية ١٣ من سورة الشورى بوضوح عن هذا المعنى. ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكُمْ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَنْفَرُّوْا فِيهِ...﴾. وهذا الدور الموكول لإبراهيم غاية في الأهمية، ولإبراهيم مكانته حتى إن السورة ١٤ في القرآن مسماة باسمه.

يسىءَ المسيحيون كثيراً فهمَ وحدة المخلوقات وما يعنيه الإسلام بها، كما يرتابون كثيراً في الرابطة الإبراهيمية ويشكون في أنها فخ منصوب لهم. ولكن الإسلام لا يعني ضمن أحدٍ إليه كارها. فالوحدة بين المتنوعين ممكنة. وهذه الرابطة الإبراهيمية تشكل القاعدة الطبيعية لأى حوار إسلامي- مسيحي، ولأى حوار ثلاثي الأطراف، أى حوار يهودي- مسيحي- إسلامي. وإذا ما اختار كل منا أن يدخل في مثل هذه الحوارات الجماعية التي تضم البشرية من منطلق هذا الفهم وبهذه الروح لأمكن لكل من مر من قبل John Hick و Paul Schwarzenau و Hans Küng أن يخلدوا أخيراً للراحة.

لا يعتقد الإسلام أن مثل هذا الحوار الثلاثي الأطراف يهدف في نهاية الأمر إلى خلق نسبية لا أدبية، فهناك أمور غير قابلة للنقاش أو التفاوض بشأنها والتغريط فيها، وهي: أن الطريق إلى الله كما جاء به محمد سيظل منسوباً إلى محمد، وأن التوحيد حقيقة لا مساس بها، وأن الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد مسألة غير قابلة للمساس بها، أو التغريط فيها أو التفاوض بشأنها؛ فكما قيل سابقاً إن الذهب النقى - ذا الـ ٢٤ قيراطاً - لا يمكن تحسينه أو تنقيتها.

٤٠

لقد استطاعت علوم القانون الإسلامية إعداد قوانين لحماية الأقليات الدينية على أساس هذه القاعدة الدينية المتينة التي سبق شرحها، وذلك منذ زمن بعيد. فقد أقرت هذه العلوم قواعد قانونية وسير تبدو بعد ١٤٠٠ عام من وضعها حديثة جداً^(٤)!

لقد اتسم العرف العربي بكرم ضيافة شديد. فكان يسمح لكل فرد من أفراد القبيلة حتى النساء منها باستضافة الضيوف من الأغراط ومنحهم الأمان المعروف^(٥). ومن هذا العرف تطورت علاقة الحماية القائمة بين الدولة الإسلامية

(٤) سير تعنى هنا سلوكاً فيما يخص حقوق الشعوب أو الحق الخاص الدولي.

(٥) انظر Doi من ٤٢٦-٤٣٧ وkruse من ٧٤-١٥٤.

ومن لهم حق الحماية من غير المسلمين، أى من أهل الذمة، الذين يذكرون القرآن
فيسيمهم أهل كتاب^(٦).

ويفضل هذا الوضع تمعن الأقليات الدينية بحكم ذاتي في المسائل الدينية التي يدخل في نطاقها مجالات الأسرة والميراث والحدود. ولذلك تتمتع هؤلاء الذميين بنوع من الحكم الذاتي، وإن تمعنوا بالحماية التي تكفلها الدولة. ولقد استطاع المسيحيون في ظل هذا القانون أن يقوموا بتربيه الخنازير وأن يتاجروا في الخمور. واستطاع اليهود أن يقوموا بالتعامل بالرضا في المسائل المالية^(٧). وفي الوقت نفسه تمعن أهل الذمة بالحماية التي تكفلها الدولة للنفس وللجسد وللحياة وللملكية وحماية الأداء العلني للعبادات وعمارة الشعائر الدينية، وتمتعت في ظل هذا القانون الكنائس والمعابد بنفس الحماية التي تكفلها الدولة للمساجد، بلا أي تفرقة، كما وعد محمد. صلى الله عليه وسلم. عام ٦٣١ جماعة من مسيحيين نجran عندما بعث إليهم بوأحد من خيرة رجاله. هو أبو عبيدة^(٨).

فجرية قتل مسيحي تعادل جريمة قتل مسلم^(٩). وروى أن محمدًا قد قال: «من آذى ذميا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»^(١٠).

لقد اختلفت معاملة الذميين عن المسلمين في ثلاث نقاط فقط، هي:

١- لم يكن عليهم واجب الانضمام للقوات^(١٠) المحاربة^(**) (الخدمة العسكرية حديثاً).

٦) انظر رمضان من ١٠٦-١٥٥.

(٧) انظر الترجمة (١٩٩٢) ص ٣٣-٣٥.

(٨) انظر سالم ص ١٥٣ فيما يخص الاتفاق مع مسيحيي نجران، فإنه يقل هذا عن كتاب الخراج لأبي يوسف، القاهرة ١٩٣٣ ص ٧٢، ٧٣.

انظر كذلك سنن أبي داود حديث رقم ٣٠٣٥ . وأيو عيادة أحد المشتبهين باللجنة .

(٩) البخاري جزء ٩ رقم ٤٩ / أبو داود سنت رقم ٢٦٣٥ / المصرى ٥٢٠١ (٣٨٢).

(*) [موضع الخطيب في «تاريخ بغداد» ٣٧٠، وأورده القاري في «الأسرار المرفوعة» رقم ٤٨٢].

(١٠) لم يحرم هذا الذمين من أشياء مادية أو غيرها لصالح مجهوداتهم الخاصة للدقاع عن أنفسهم.

(**) ليس عليهم واجب الانضمام للقوات المحاربة، ولكن يمكنهم ذلك، إذا أرادوا.

٢- في مقابل هذا كانوا يدفعون الجزية، وهي ضريبة (تحتسب على الفرد). لم تكن بالضرورة تزيد عما يدفعه المسلم من ضريبة في صورة زكاة^(١١).

ولقد كانت الدولة الإسلامية ترد هذه الجزية إلى أهل الذمة في حالة ضعف الدولة وحين لا تتمكن من أداء واجبها في حماية هؤلاء ورد المعتدي عن البلاد، كما حدث في عصر الخليفة الثاني عمر، عندما أعلن أبو عبيدة شكه في قدرته على ردع العدو البيزنطي ورده عن البلاد وبالتالي حماية أهل الذمة، فرد إليهم الجزية.

٣- كان ولا يزال أمراً طيباً أن يشارك أهل الذمة في الإدارة العامة للدولة وفي اتخاذ القرارات، كما حدث عندما تكون في المدينة عام ٦٢٢ نواة لدولة إسلامية تضم نسبة كبيرة من اليهود^(١٢). ولكن يظل منصب رئيس الدولة حكراً على المسلمين. بيد أن هناك عدداً كبيراً من وزراء الحكم من غير المسلمين على مر التاريخ الإسلامي حتى يومنا هذا، فيتقلد المسيحيون واليهود مناصب الوزراء في مصر والمغرب والعراق.

لقد اتسم قانون الأقليات هنا وتنفيذها بكرم بالغ، حتى إنه الحق ضرراً بالأغلبية الإسلامية في القرن ١٩. فلقد مهدت الإمبراطورية العثمانية لانهيارها وأفولها عندما تمسكت بحق الأقليات في البلقان بالتمتع بجميع الحقوق التي يكفلها لها الإسلام، ومنحتها حمايتها، مما أتاح لهذه الأقليات اليونانية والصربيّة والبلغارية الفرصة لتكوين إحساسهم بقوميتهم الخاصة.

وبالرغم من كل ما سبق، يخشى البعض في ألمانيا أن لا يسرى قانون حماية الأقليات الإسلامي- في الدول الإسلامية- على جماعات بعينها، مثل الملحدين واللادرين، لأن هؤلاء ليسوا أهل كتاب كما ورد في القرآن. وبالفعل فلقد كان تعبير أهل الكتاب يُفهم دائمًا على أنهم اليهود والمسيحيون فقط، ولكن اتسع

(١١) بلغت الجزية على الفقير من أهل الكتاب في العصور الوسطى ما يزيد على ١٢ درهماً وديناراً للفرد الواحد. شرح التوسي على صحيح مسلم [١٢/٣٩] طبعة دار الريان.

(١٢) لقد شاركت القبائل اليهودية في تأسيس الكيان الفيدرالي بنفس قدرة مشاركة المسلمين، فنواة الدولة الإسلامية الأولى لم تكن إسلامية خالصة.

المفهوم ليشمل أصحاب ديانات أخرى مثل الزرادشتية (فارس)، حتى إن هذا المفهوم أصبح يشمل كذلك الهنودس^(١٢).

ولذلك نستطيع أن نقول إن حدود تعبير أهل الكتاب ليست مفصلة بدقة. ولذلك يعتقد أحمد البرعي عام ١٩٩٥ بصحبة اقتراحه القائل: «إن أهل الكتاب هم كل الناس من لهم نص ديني أو كتاب ديني أو نصوص يمكن أن تأخذ يوماً ما شكل كتاب بشرط ألا يكونوا مشركين»^(١٤).

ولكنني أعتقد أن هذا الرأي الأخير غفل عن الآية ٦٦ من سورة التوبة: والذى يقدم الخل لهذه المشكلة من وجهة نظرى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا مَأْتَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ». وأعتقد أنه من المؤكد إسلامياً أن الملحدين من هؤلاء المشركين هم الذين تحدثت عنهم الآية. ونستنتج من هذا أن الملحدين يتمتعون مثلهم مثل الأقليات الدينية بحرية العبادة، ولا يصح إكراههم على شيء. وهناك أعداد متزايدة من السلطات الإسلامية التي تعلن عن حمايتها للملحدين بناءً على هذا الرأي. وفعلاً، كيف ننكر عليهم هذه الحماية دون أن نخالف بذلك ما يأمرنا به الله في قوله تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»؟

كل ما سبق عرضه يدخل ضمن النظرية، ولكن دعونا نرى حقيقة الأمر عند التطبيق. ولحسن الحظ لم يختلف التطبيق عن النظرية كثيراً على مر التاريخ الإسلامي، إلا في حالات محلية نادرة جداً عندما يتشرى بين الطرفين اعتقاد بقيام حرب بينهما. ولقد أدى هذا في بعض الحالات النادرة المترفرفة إلى فرض معايير خاصة بالملابس، لمنع غير المسلمين من ركوب الدواب (ما عدا الحمير)، أو منع دق نوقيس الكنيسة، أو منع إقامة كنائس في مدن جديدة^(١٥) وكان أحياناً يتم منع المسيحيين «من أكل الخنزير وشرب الخمور»^(١٦).

(١٢) انظر المصرى فصل ١١٠١ ص ٦٠٧.

(١٤) La Condition des minorités en Islam وضع الأقليات في الإسلام.

دراسة مقدمة للاجتماع العام للمجلس الأعلى الإسلامي المصرى السابع والمعقد في القاهرة في يونيو عام ١٩٩٥، ص ١٩.

(١٥) شرح التووى للحديث رقم (١٩٩٤).

(١٦) سالم ص ١٥٥-١٥٨.

وكل هذه السلوكيات المنافية لنصوص القرآن ولروحه كان يتم تسويفها في العصور الوسطى بجزء من الآية ٢٩١ من سورة التوبه والتي تقول: ﴿فَاتَّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحِرِّمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوَا الْجِزِيرَةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ﴾^(١٧). ولكن النص العربي هذا يتبع ترجمة (الترجمة الألمانية شديدة القسوة) أخرى تتماشى مع المبادئ العامة للإسلام، أي أن يحارب أهل الكتاب حتى يدفع كل حسب مقدوره أما عن الإهانة والبطش والسلط فلا حديث عن مثل هذه الأمور^(١٨).

مجمل القول ليس هناك سند قرآني يبيح السلوك غير المذهب إزاء غير المسلم. لقد استطاع المسيحيون واليهود بفضل الحقوق التي تتمتع بها الأقلية الدينية وفق الشريعة الإسلامية أن يقوموا بدور إيجابي في المجتمعات المسلمة، فلقد كان معاوية الخليفة الأموي متزوجاً من مسيحية ومن قبله الرسول محمد الذي تزوج من ماريا القبطية، وصفية اليهودية.

٤٠

وأعود هنا بحديثي إلى الواقع المعاصر، إلى حاضرنا، خاصة في ألمانيا.

أعتقد أن السؤال المهم الذي يجب أن يطرح ليس هو ماذا سيفعل المسلمون إذا ما أصبحوا أغلبية؟ ولكن كيف تصرف الأغلبية في الدول الغربية اليوم إزاء الأقلية المسلمة؟ هل الغرب على استعداد لأن يسلك سلوكاً ليبراليًا إزاء المسلمين؟ سلوكاً يعادل ما يأمر الإسلام المسلمين به إزاء المسيحيين؟

يعترف المسلمون شاكرين بأن جميع أنواع الاضطهاد وعدم التسامح إزاء كل ما هو إسلامي قد أخذ يتضاءل في الغرب منذ أو اخر القرن الثامن عشر. ولقد كان للتطور الذي شهدته الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية أثر بالغ في هذا الصدد،

(١٧) هذه رؤية التوبي.

(١٨) انظر محمد أسد (الرسالة ١٩٨٠) عن الآية ٢٩ من سورة التوبه.

حيث أصبحت هذه الولايات بعد فترة من التعثر ملاداً وملجاً للمضطهدين دينياً، وبالتالي أخذت تتطور بشكل إيجابي نحو التعدد والتنوع الديني.

ولقد أدت موجات الهجرة المغاربية والهندية والتركية إلى أوروبا دوراً بارزاً؛ لأنها أحدثت تغيرات في صورة أوروبا ذات الدين الواحد، ومن ثم عرفت أوروبا تنوع الأديان وتعايشها.

وعلينا كذلك أن نتعامل بإيجابية في هذا الصدد مع ما أقرته الولايات المتحدة والمجلس الأوروبي من قوانين لحماية حقوق الإنسان عامة وحرياته الدينية خاصة، وتؤدي «الاتفاقات التالية» في هذا الشأن دوراً مهما:

- الإعلان العام لحقوق الإنسان الصادر في ١٩٤٩/١٢/١٩ (١٩) المعاهدة الأوروبية لحقوق الإنسان الصادرة في ١٩٥٠/١١/٤ (٢٠).

- الاتفاق الدولي لحقوق المدنية والسياسية الصادر في ١٩٦٦/١٢/١٩ (٢١). ولقد جاء في المادة ٢٧ من هذا الاتفاق: «لا يحق في الدول ذات الأقلية العرقية والدينية واللغوية أن يُمنع أفراد هذه الأقلية من حقوقهم في ممارسة حياتهم الثقافية، والاعتراف بدينهم ومارستهم لشعائر دينهم، واستخدام لغتهم الخاصة في ضوء تعاونهم ومشاركتهم لأعضاء الجماعات الأخرى».

لقد كان لكل هذا آثاره الإيجابية على التطورات التي يشهدها العالم الغربي. ولكن يظل قانون حماية الأقليات الغربي الحديث أضيق بكثير، وأقل كرماً بكثير مما ينحه الحق الإسلامي للأقليات الدينية وذلك منذ ١٤٠٠ عام.

إذاً فمن يجب أن يخشي الآخر؟

إن المسلمين ليسوا بالحاملين، فهم لا يتوقعون أن تنتهي لهم دولة غربية حقوقهم

(١٩) خاص بهذا الموضوع: المادة ٢ (عدم التفرقة).
المادة ١٤ (حق اللجوء).

المادة ١٨ (حرية العبادة).

(٢٠) خاص بهذا الموضوع: المادة ٩ (حرية العبادة).
المادة ١٤ (عدم التفرقة).

(٢١) خاص بهذا الموضوع: المادة ١٨ (حرية العبادة).

كاملة، أو حتى حق تقرير أشياء تخصهم، أعني أي شكل من أشكال الحكم الذاتي.

ال المسلمين ليسوا بالحاصلين أو المتمردين، فهم على استعداد للخضوع للقوانين التي تحكم البلد التي يقيمون فيها كأقلية. ولقد أفردت علوم القانون الإسلامية دراسات عديدة منذ خمسة قرون لوضع المسلم في بلد غير إسلامي، أي عندما يصبح المسلم ذمياً للمسيحي. وذلك لأنه في هذا الوقت أصبح الكثير من المسلمين الأندلسيين تحت حكم كاثوليكي؛ لأنهم- أي المسلمين- لم يهاجروا كافة إلى شمال إفريقيا^(٢٢). فلقد أقر الإسلام ببقاء المسلم في العالم المسيحي طالما كان متاحاً له أن يمارس الواجبات الأساسية والفرضيات الإسلامية التي لا غنى عنها. ولكن إذا تعذر هذا، فعليه الهجرة إلى حيث يتمكن من ممارسة دينه. ولقد أمرت علوم القوانين الإسلامية في ذلك الوقت المسلمين المهاجرين أن يتزموا تماماً بقوانين البلد التي يعيشون فيها. وحتى إن المذهب الحنفي أaffer المسلم في هذه الحالة من بعض المبادئ، مثل عدم التعامل بالربا. فمن إذا يجب أن يخشى الآخر؟

لقد قمت - على ما أظن - بتوسيع ما يطالب المسلمين الغرب به أو ما يتوقعه المسلمون من الدولة في الغرب. إن المسلمين لا يطالبون بحقوق الأقلية كما كفلها الإسلام، ولكن يطالبون بالمعاملة بالمثل، أي أن يتساوا وامع كل من يعيش في هذه الدولة، أي أن يتوقف الكيل بمكيالين.

ولكن هناك الدلائل الكثيرة التي تشير إلى صعوبة تحقيق هذا الأمر. ويتبين هذا جلياً عندما نتعرض لأمر بناء جامع؛ إذ لا يتم التصرير بأمر البناء إلا بعد عدة سنوات من تقديم الطلب، ويصرح بالبناء في موقع بغيض بجوار سلخانة أو خلف القطارات. لابد أن تساوم من أجل ارتفاع كل متر للمئذنة، كما لو أن هناك قانوناً يلزم بالارتفاع المئذنة عن أي كنيسة (لم يتم التصرير ببناء قبة الجامع لأنها- وإن توافقت مع النسب الكلاسيكية- إلا أنها ترتفع ٥٠ سم أكثر مما ينبغي). أما إذا تم بناء الجامع، فكتيراً ما يتم منع استخدام المئذنة للنذاء للصلوة بدون إيداء أي سند قانوني لهذا المنع، ولكنهم يأتون بأسباب واهية. يتم هذا بالرغم من تصرير المسئول عن

(٢٢) انظر دراسة الفضل المستفيضة.

شئون الأجانب في الحكومة الاتحادية عام 1997 بأن الأذان المنبعث من مكبرات الصوت خاضع للحماية الدستورية، وبالتالي فإنه ليس في حاجة للحصول على إذن، كما أنه لا يسبب أي أضرار للبيئة ولا يلحق أضراراً بالمرور أو الصحة^(٢٢)

أما أسوأ ما في الأمر، فإنه لبناء الجامع، غالباً ما يضطر المسلمين لانتزاع تنفيذ ذلك خطوة وراء خطوة، وسبيل ذلك يكون بأمر من المحكمة. وكثيراً ما يرفض المسؤولون إعطاء التصاريح، مع أن القانون لا يمانع في التصريح بهذه الإجراءات. ولا يختلف الوضع في فرنسا عنه في ألمانيا^(٢٤). لا تملك أى ديمقراطية حيال المقاومة السلبية للبيروقراطية حلاً.

أما المسألة الثانية بعد بناء الجامع، فهو غطاء الرأس الذي ترتديه المسلمة. قطعة النسيج هذه التي تستطيع أن تهزم جمهوريات بأسرها. فإذا كان ارتداه يعد دعائية للإسلام، فلماذا لا يتم منع ارتداء الصليب^(٢٥) أو دق نواقيس الكنائس^(٢٦)؟ وإذا كان ارتداء غطاء الرأس هذا دليلاً قمع للمرأة، فلماذا لا تسأل المرأة التي ترتديه؟ وإذا كان ارتداء غطاء الرأس يخالف قواعد الملبس في العمل، فلماذا لا يتم تغيير هذه القواعد؟

يسعد كثير من المسلمين عندما يتضح لهم أن الكثير من دول الغرب دول غير دينية ظاهرياً فقط؛ لأن هذه الدول قد أدمجت الكثير من الدين في أمور الدولة، ولكن لهذا السبب ذاته يبدو غريباً جداً أن ينazuوا المسلمون حق تقرير ارتدائهم لغطاء الرأس من عدمه!

(٢٢) نشرها المسؤول عن شئون الأجانب في الحكومة الاتحادية ص. ب ٥٣١٠٧ و ٥٣٠٢٨٠ بون.

(٢٤) لقد صاغها القانوني Dior Diop في مقوله أنيقة:

Construire une mosquée - est - ce si difficile?
الأمر لا يتعلّق بالنص القانوني ولكن تنفيذه تجاه المسلمين.

(٢٥) انظر : edd. Stefan Hustler, Winfried Brugger Baden - Baden 1998. الخلاف حول الصليب في المدرسة.

(٢٦) لقد سمحت محكمة إدارية لكنيسة في أشفيبورج Aschaffenburg بدق الناقوس بصوت يبلغ ٣٨٦! ورد في FAZ ١٢/١٢/١٩٩٨.

أما ما يصيب المسلمين من ذهول ويخرجهم عن شعورهم، فهو أن تقوم بعض السلطات غير المسئولة بتفسير القرآن للمسلمين بدءاً من رئيس حماية الدستور ومروراً برئيس الكنيسة الإنجيلية في مقاطعة «هسن ونساو» وزيرة الثقافة في مقاطعة بادن- فربنبرج Baden - Württemberg، وصولاً إلى محاكم إدارية!

فالمسلمون يتعلمون من هؤلاء المذكورين أنه على عكس فهمهم، يحق لهم تناول أنواع اللحوم كافة، كما يحق لهم ارتداء البكيني في مجتمع مختلط، كما أن المرأة المسلمة ليس لها أن تغطى شعرها وترتدي غطاء للرأس. وتقع مثل هذه المحاولات من المسلمين موقع الإمبريالية الثقافية الأوروبية المركز.

ولكن لن يجرؤ أحد تحت أي ظروف أن يسمح لنفسه بتفسير التوراة أو المشنة أو التلمود للمواطنين اليهود.

ويتحدث المسلمون بسخرية لاذعة عن الكيل بمكيالين في أمر الذبح وفق الشريعة الإسلامية. فمن المعروف أن هذا الذبح يتطابق مع ذبح اليهود لذبائحهم. فبينما مسموح لليهودي بالذبح وفق شريعته - بعد نفس أسلوب الذبح عندما يقوم به مسلم سلوكاً مخالفًا لحقوق حماية الحيوان والرفق به.

لم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد حاولت محكمة إدارية أن تثبت للمسلمين أن بقدورهم التغاضي تماماً عن مسألة الذبح الشرعى هذا: فالقرآن يسمح في حالة الضرورة القصوى بأكل ما نهى عنه، وبما أن هناك قانون دولة يحرم مسألة الذبح الشرعى هذا، فإن بإمكان المسلمين في حالة الضرورة هذه أن يتناولوا جميع أنواع اللحوم الأخرى. ولم يتبيّن القاضي بطبيعة الحال أن الضرورة هنا تعنى للمسلم حالة تعرّضه للموت جوعاً، (ولكن الحقيقة أن بإمكان المسلم تناول اللحوم عند المسيحي حتى لو لم تكن ذبحت وفق الشريعة الإسلامية شريطة ألا تكون هذه اللحوم من الخنزير).

وهذا المبدأ المذكور، أي أن تملّى السلطات على المسلمين ما يجب أن يفعلوه من منطلق أن هذه السلطات تفهم الإسلام وتقوم بتفسيره مثلهم، تتبعه بعض

المقاطعات الألمانية فيما يخص دروس الدين الإسلامي في المدارس. ولذلك، فإنني أعتقد أن السماح بإعطاء دروس دين إسلامي في المدارس تحت إشراف الحكومة فهو انتصار وهمي للمسلمين. فوزارة التعليم تحديد مناهج الدين الإسلامي لل المسلمين في مدارسها دون الرجوع للمسلمين أو الاتفاق معهم أو حتى السماح لهم بمراجعة هذه المناهج! ولا أستبعد أن يتعلم أطفال المسلمين (على يد مدرسين غير مسلمين بطبيعة الحال) أن صيام رمضان في مجتمع صناعي كالمانيا لهو أمر غير عملي، وغير قابل للتطبيق، وغير ذلك كثير.

لقد أراد Jörg Schönbohm عام 1998، عندما كان نائباً، منع جميع حচص الدين الإسلامي بالمدارس الحكومية في برلين، ليتحقق بذلك مبدأ الانسجام والتجانس بين الأطفال؛ لأن هذا التدريس كما يعتقد، يؤدي في نهاية الأمر إلى تشكيل جسم غريب عن بقية المجتمع. ولقد اعتمد في رأيه هذا على خطابات كثيرة وصلته تحدى من خطورة تعرض الشعب الألماني لعملية تبديل على المدى الطويل^(٢٧).

لقد أطلق Konrad Schuller صيحة تهم Schönbohm بأنه لم يعد يُعرف على وطنه حيث بات ضرورياً «أن يتخذ كفته اللحم (Bulette) (طعام ألماني تقليدي) موقفاً دفاعياً من الكتاب»، ووجه سؤاله ساخراً إلى Schönbohm: «هل تريده أن تقرب مسلمي العاصمة من الإيمان بالثالوث، أم تريده إقناعهم بتناول لحم الخنزير مع الكرنب المخلل (أكلة ألمانية تقليدية)؟»^(٢٨)؟

لم يستطع المسلمون في برلين المشاركة في هذا المزاح؛ لأنهم يعلمون خلفية هذا النقاش. فقد أثبت استبيان أجرى في ألمانيا عام 1995 أن ٤٨٪ من شملهم هذا الاستبيان يرون في الإسلام «خطراً يهدد الحضارة والثقافة الغربية». وهناك ٣٧٪ ينفون هذا، بينما هناك ١٥٪ لا رأي لهم^(٢٩).

(٢٧) خطاب قارئ من Bijorn Clemens في FAZ ١/٣١ ١٩٩٩. إنه يُعَذِّبُ السماح بمحضن للدين الإسلامي في المدارس في ألمانيا فطاعة كبرى.

(٢٨) انظر Konrad Schuller: عندما تخسر كرات اللحم (كفتة / طعام ألماني شديد الحصوصية) يتضمّن Schönbohm مخاطر الجيتو (استخدم لوصف حالة الشم فعلاً لا يستخدم إلا مع الكلاب) في FAZ ٦/١٥ ١٩٩٨.

(٢٩) انظر Reinhard Hesse صورة العنوان: الإسلام. جريدة الأسبوع ٤/٢٣ Die Woche ١٩٩٧.

فمن يجحب أن يخاف الآخر إذا؟

لا يعطى المسلمون حالياً أدنى اهتمام لمسألة حقوقهم في الاعتراف بهم كجماعة دينية لها كافة الحقوق العامة، كما جاء في دستور فاييـار^(٢٠).

هذا هو حال الغرب مع مسلميـه، ونحن على اعتاب الألفية الثالثة، والتي تعدّ بأنها ستكون مشحونة، وسيقوم الإسلام بأداء دور فيها، فلماذا لا يترك له المجال ليقوم بتأدية دور إيجابي؟

إنـى أختـتم هذا الفصل من كتابـى هذا بالسورة ١٠٣ من القرآن، وهي سورة العصر (١ - ٢): «وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّمْرِ ٣».

* * *

(٢٠) لقد تم إضافة المواد ١٣٦ - ١٤١ - ١٤٢ الخاصة بالدين التي وردت في دستور فايـار إلى الدستور العام من خلال المادة ١٤٠.

LITERATUR

مراجع أخرى

- : *Conferences of Riyad on Moslem Doctrine and Human Rights in Islam*. Beirut: Dar al-Kitab al-Lubnani (o.J.).
- : *Der Koran*, Übers. Max Henning, überarbeitet und herausgegeben von Murad Wilfried Hofmann. München: Diederichs 1999.
- : *Die Bedeutung des Korans*, 5 Bde., Übers. Fatima Grimm u.a. München: SKD Bavaria Verlag 1998, 2. Aufl.
- Abd el-Wahab, Ahmad: *Dialogue Transtextuel entre le Christianisme et l'Islam*. Paris: Centre Abaad 1987.
- Abdou, Mohammed: *Rissalat al-Tawhid, Exposé de la Religion Musulmane*. Paris: Geuthner 1984.
- Affendi, Abdel Wahab El-: *Turabi's Revolution*. London: Grey Seal Books 1991.
- : *Who Needs an Islamic State?* London: Grey Seal Books 1991.
- Afifi, Zeinab: »Die Stellung der Frau im Islam«, in: *Gesichter des Islam*. Berlin: Haus der Kulturen der Welt 1992, S. 119 ff.
- Afkhami, Mahnaz: *Faith & Freedom – Women's Human Rights in the Muslim World*. London: Tauris 1995.
- Ahmad, Kurshid (Hrsg.): *Elimination of Riba from the Economy*. Islamabad: Institute of Policy Studies 1994.
- : »Man and the Future of Civilization: An Islamic Perspective«, in: *Encounters*, Jg. 1, Nr. 1, 1995, S. 103.
- Ahmad, Mumtaz: »Islam and Democracy: The Emerging Consensus«, in: *Middle East Affairs Journal*, Jg. 2, Nr. 4, 1996, S. 29 ff.
- Ahmed, Akbar: *Post Modernism and Islam*. London: Routledge 1992.
- Ahmed, Akbar S./Hastings, Donna: *Islam, Globalization, and Postmodernism*. London: Routledge 1994.
- Ahsan, Manazir/Kidwai, A.R.: *The Satanic Saga – Muslim Perspectives on the Satanic Verses Affair*. Markfield, LE: The Islamic Foundation 1991.
- Ahsan, Manazir: »Arrival, Expulsion and Return: Muslim Experience in Europe«, in: *Al-Mizan*, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 23 ff.
- Ali, Ausaf: »An Essay on Public Theology«, in: *Islamic Studies*, Jg. 34, Nr. 1, 1995.
- Alwani, Taha Jabir al-: *Ijtihad*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1993.
- Amin, Hussein: *Le livre du musulman désemparé*. Paris: La Découverte 1992.
- Amin, Qasim: *Die Befreiung der Frau (1889)*. Würzburg: Echter 1992.
- Antes, Peter: *Der Islam als politischer Faktor*. Hannover: Niedersächsische Landeszentrale für Politische Bildung 1991, 2. Aufl.
- Arkoun, Mohammed: *Pour une critique de la raison islamique*. Paris: Maisonneuve 1984.
- : *Ouvertures sur l'Islam*. Paris: Jacques Grancher 1989.

Armstrong, Karen: *Holy War – The Crusades and their Impact on Today's World*. New York: Papermac 1992.

—: *Nah ist und schwer zu fassen der Gott* (A History of God). München: Droemer-Knaur 1993.

Asad, Muhammad: *Islam at the Crossroads*. Lahore: Ashraf Press 1934.

—: *The Message of the Qur'an* (Koran-Übersetzung mit Kommentar). Gibraltar: Dar al-Andalus 1980.

—: *The Principles of State and Government in Islam* (1961). Gibraltar: Dar al-Andalus 1980.

—: *This Law of Ours and other Essays*. Gibraltar: Dar al-Andalus 1997.

—: *Vom Geist des Islam* (1979), Übers. Hasan Ndayisenga. Köln: Islam. Wiss. Akademie 1984.

—: »Muhammad Asad und die Reise nach Mekka«, Interview von Karl Günter Simon, in: *Frankfurter Allgemeine Zeitung* vom 18.11.1988.

Asad, Talal: *Genealogies of Religion: Discipline and Reason of Power in Christianity and Islam*. Baltimore: John Hopkins Univ. Press 1993.

Aschmawy, Muhammad Said: *L'Islamisme contre l'Islam (al-Islam al-siyasi)*. Paris: Ed. la découverte 1989.

Atlan, Henri: *A tort et à raison – Intercritique de la science et du mythe*. Paris: Seuil 1986.

Attas, Syed Muhammad Naquib: *Islam and Secularism*. Kuala Lumpur: ABIM 1978.

—: (Hrsg.): *Islam and the Challenge of Modernity*. Kuala Lumpur: I.I.I.T. 1996.

Ayoub, Mahmoud: »Islam and Pluralism«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 2, 1997, S. 103.

Azmeh, Aziz al-: *Islam and Modernities*. London/New York: Verso 1993, 2. Aufl.

Azzi, Abderrahmane: »Islam in Cyberspace«, in: *Islamic Studies*, Jg. 38, Nr. 1, 1999, S. 103 ff.

Bachelard, Gaston: *Le Nouvel Esprit Scientifique*. Paris: Presses Universitaires de France 1968, 10. Aufl.

Badri, Malik: *The Dilemma of Muslim Psychiatrists*. London: MWH 1979.

—: *the aids crisis: an islamic socio-cultural perspective*. Kuala Lumpur: ISTAC 1997.

Bahnassawi, Sali El-: *Die Stellung der Frau zwischen Islam und weltlicher Gesetzgebung*. München: SKD-Bavaria Verlag 1993.

Balic, Smail: »Die islamische Überlieferung in der Postmoderne«, in: *Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident*. Köln: Böhlau 1991, S. 108 ff.

Banna, Hasan al-: *Five Tracts of Hasan al-Banna (1906–1949)*, Übers. Charles Wendell. Berkeley: Univ. of California Press 1975.

Barboza, Steven: *American Jihad – Islam after Malcolm X*. New York: Doubleday 1994.

Barrett, Swaantje: *Islam, Blasphemie und freie Meinungsäußerung – Was hat Salman Rushdie getan?* Hildesheim: Internat. Kulturwerk 1994.

Baumann, Zygmunt: *Modernity and the Holocaust*. Oxford: Polity Press 1991.

—: *Modernity and Ambivalence*. Oxford: Polity Press 1993.

Behrens, Michael/Rimscha, Robert von: »Politische Korrektheit« in *Deutschland. Eine Gefahr für die Demokratie*. Bonn: Bouvier 1995.

Bell, Daniel: *The Cultural Contradictions of Capitalism*. London: Heinemann 1976.

Benchekroun, Mohamed: *L'Islam et les obligations fondamentales*. Rabat: Arrissalat 1988.

Benjamin, David: *Muhammad in der Bibel*. München: SKD Bavaria Verlag 1987.

Berque, Jaques et al.: *aspects de la foi de l'Islam*. Brüssel: Facultés universitaires Saint Louis 1985.

Bielefeldt, Heiner: »Schwächlicher Werterelativismus? Zur Notwendigkeit des interkulturellen Dialogs über Menschenrechte«, in: Kai Hafez, *Der Islam und der Westen*. Frankfurt: Fischer 1997, S. 56.

Boisard, Marcel: *Der Humanismus des Islam*. Kaltbrunn: Verlag zum Hecht 1982.

Bormans, Maurice: *Wege zum christlich-islamischen Dialog*. Frankfurt: Cibedo 1985.

Brown, Daniel: *Rethinking tradition in modern Islamic thought*. Cambridge: Cambridge University Press 1996.

Buaben, Jabal Muhammad: *Image of the Prophet Muhammad in the West*. Markfield, LE: Islamic Foundation 1996.

Bürgel, Johann C.: *Allmacht und Mächtigkeit, Religion und Welt im Islam*. München: C.H. Beck 1991.

Bukhari, al-: *Sahih al-Bukhari*, 9 Bde., Übers. Muh. Muhsin Khan. Chicago: Kazi Publications 1976–1979.

Bukharyy, al-: *Auszüge aus Sahih al-Bukharyy*, Übers. Muh. Ahmad Rassoul. Köln: IB Verlag 1989.

Blumenberg, Hans: *The Legitimacy of the Modern Age*. Cambridge, MA: MIT Press 1984.

Bucaille, Maurice: *Bibel, Koran und Wissenschaft – Die Heiligen Schriften im Licht moderner Erkenntnisse*. München: SKD Bavaria Verlag 1984.

Bunt, Gary: »Islam in Cyberspace«, in: *The muslim world book review*, Jg. 18, Nr. 1, 1997, S. 3 ff.

Buti, Muhammad Sa'id al-: *Jihad in Islam – How to understand & practice it*, Übers. Munzer Adel Absi. Damaskus: Dar al-Fiqr 1995.

Cahen, Claude: *Orient et Occident au temps des croisades*. Paris: Aubier 1983.

Chapra, M. Umer: *Islam and the Economic Challenge*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1992.

—: *Towards a Just Monetary System*. Leicester: The Islamic Foundation 1995.

Chejne, A.G.: *Ibn Hazm*. Chicago: Kazi Publ. 1982.

Cherfils, Christian: *Napoleon and Islam, From French and Arab Documents*. Kuala Lumpur: Utusan Publ. 1999.

Chimelli, Rudolph: *Islamismus*. Zürich: Vontobel Holding 1993.

Choudhury, Masudul Alam: *Reforming the Muslim World*. London/New York: Kegan Paul 1998.

Cohn-Sherbok, Dan (Hrsg.): *Islam in a World of Diverse Faiths*. London: Macmillan 1991.

Cooper, John/Nettler, Ronald/Mahmoud, Mohamed (Hrsg.): *Islam and Modernity*. London: Tauris 1998.

Coury, Ralph: »Neo-Modernization Theory and its Search for Enemies: The Role of the Arabs and Islam«, in: *Islamic Studies*, Jg. 35, Nr. 4, 1996.

Cragg, Kenneth: *The Christ and the Faiths: Theology in Cross-Reference*. London: SPCK 1986.

Daniel, Norman: *Islam and the West – The Making of an Image*. Oxford: One World Publ. 1993, 2. Aufl.

Davutoglu, Ahmet: *Alternative Paradigms: The Impact of Islamic and Western Weltanschauungs on Political Theory*. London: Univ. of America Press 1994.

—: *Civilizational Transformation and the Muslim World*. Kuala Lumpur: Mahir Publications 1994.

—: »The Clash of Interests: An Explanation of World [Dis]order«, in: *International Discussion*, Jg. 2, Nr. 2, 1994, S. 107 ff.

Daweke, Klaus (Hrsg.): »Der rechte Weg – Versuche einer Annäherung an den Islam«, in: *Zeitschrift für Kulturaustausch*, Jg. 42, Nr. 4, 1992.

Benffer, Ahmad von: *Der Islam und Jesus*. München: IZM 1991.

Deschner, Karlheinz: *Der gefälschte Glaube*. München: Knesebeck & Schuler 1988.

Diamond, Larry: »The Globalisation of Democracy«, in: Robert Slater/Barry Schutz/Stephen Dorz, *Global Transformation and the Third World*. Boulder, CO: Lynne Rienner 1993, S. 31 ff.

Doi, Abdur Rahman: *Shari'ah, The Islamic Law*. London: Ta Ha Publishers 1984.

Dürr, Hans-Peter (Hrsg.): *Physik und Transzendenz*. München: Scherz 1989.

Dunn, Michael: »Islamic Movements at the End of the 20th Century«, in: *Middle East Affairs Journal*, Jg. 2, Nr. 4, 1996, S. 3 ff.

Duran, Khalid: »Demographic Characteristics of the American Muslim Community«, in: *Islamic Studies*, Jg. 36, Nr. 1, 1997, S. 57 ff.

Eaton, Charles de Gai: *Der Islam und die Bestimmung des Menschen (Islam and the Destiny of Man)*. München: Diederichs 2000, 3. Aufl.

Eisenmann, Robert/Wise, Michael: *Jesus und die Urchristen*. München: Bertelsmann 1992, 2. Aufl.

Elmessiri, Abdelwahab: »Feature of the New Islamic Thought«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 1, 1996, S. 45 ff.

—: »Towards a More Comprehensive and Explanatory Paradigm of Secularism«, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 2, 1997, S. 137 ff.

Engineer, Asghar: *The Rights of Women in Islam*. London: Sterling Publ. 1992.

—: *Rethinking Issues in Islam*. London: Sangam Books 1998.

Esack, Farid: *On Being a Muslim – Finding a religious Path in the World today*. Oxford: Oneworld Publ. 1999.

Esposito, John: *Voices of Resurgent Islam*. Oxford: Oxford Univ. Press 1983.

—: *The Islamic Threat: Myth or Reality?* Oxford/New York: Oxford Univ. Press 1992.

Fadl, Khaled Abu el-: »Islamic Law and Muslim Minorities«, in: *Islamic Law and Society*, Jg. 1, Nr. 2, 1994.

—: *The Authoritative and Authoritarian in Islamic Discourses*. Los Angeles: MIV 1997.

Falaturi, Abdoljavad (Hrsg.): *Islam: Raum-Geschichte-Religion*, Der Islamische Orient. Köln: Islam. Wiss. Akademie 1990.

Falk, Richard: »False Universalism and the Geopolitics of Exclusion: the Case of Islam«, in: *Third World Quarterly*, Jg. 18, Nr. 1, 1997, S. 7 ff.

Faruqi, Ismail Raji (Hrsg.): *Triologue of the Abrahamic Faiths*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1991.

Feindt-Riggers, Nils/Steinbach, Udo: *Islamische Organisationen in Deutschland*. Hamburg: Deutsches Orient-Inst. 1997.

Fox, Matthew: *Vision vom kosmischen Christus. Aufbruch ins Dritte Jahrtausend*. Stuttgart: Kreuz 1991.

French, Hal: *Adversary Identity: A Study of Religious Fanaticism and Responses to it*. Lampeter, Wales: Edwin Mellen Press 1990.

Fricke, Wedding: »Standrechtlich gekreuzigt«, Person und Prozeß des Jesus aus Galiläa. Buchschlag: Mai Verlag 1986.

Fukuyama, Francis: »The End of History?«, in: *The National Interest*, Frühjahr 1990.

—: *The End of History and the Last Man*. New York: Penguin 1992.

Fulton, John/Gee, Peter: *Religion in Contemporary Europe*. Lampeter, Wales: Edwin Mellen 1994.

Garaudy, Roger: *Pour un Islam du XXe siècle (Charte de Séville)*. Paris: Tougui 1985.

—: *Verheißung Islam*. München: SKD Bavaria Verlag 1988.

Gardell, Matthias: *Countdown to Armageddon – Louis Farrakhan and the Nation of Islam*. London: C. Hurst 1996.

Gardet, Louis: *Les Hommes de l'Islam*. Paris: Hachette 1977.

Gellner, Ernest: *Relativism and the Social Sciences*. Cambridge: Cambridge Univ. Press 1985.

—: *Postmodernism, Reason and Religion*. London: Routledge 1992.

Ghannouchi, Rachid al-: »Towards Inclusive Strategies for Human Rights Enforcement in the Arabs World« – a Response, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 2, 1996, S. 190 ff.

Ghaussy, Ghania: *Das Wirtschaftsdenken im Islam*. Bern: Haupt 1986.

Ghazali, Abu Hamid al-: *Ihya Ulum-id-Din*, 4 Bde., Übers. Fazul-ul-Karim. Lahore: Sind Sagar Academy (o.J.).

Gibb, H./Kramers, J.: *Shorter Encyclopaedia of Islam*. Leiden: Brill 1974.

Gleave, Robert: »Elements of Religious Discrimination in Europe: the Position of Muslim Minorities«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 2, 1998, S. 169 ff.

Goethe, Johann Wolfgang von: *Werke*. Frankfurt: Insel 1993.

Guazzone, Laura (Hrsg.): *The Islamist Dilemma*. Reading: Garnet 1995.

Habermas, Jürgen: *Faktizität und Geltung*. Frankfurt: Suhrkamp 1992.

Haddad, Yvonne/Smith, Jane (Hrsg.): *Muslim Communities in North America*. Albany: SUNY 1994.

Hafez, Kai (Hrsg.): *Der Islam und der Westen*. Frankfurt: Fischer 1997.

Haikal, Muhammad Hussein: *Das Leben Muhammads*. Siegen: Tackenberg Verlag 1987.

Hamidullah, Muhammad: *The First Written Constitution in the World*. Lahore: Sh. Muhammad Ashraf 1975, 3. Aufl.

—: *The Emergence of Islam*. Übers. Afzal Iqbal. Islamabad: Islamic Research Institute 1993.

Harrington, Michael: *The Politics at God's Funeral: The Spiritual Crisis of Western Civilization*. New York: Holt, Reinhart & Winston 1983.

Hart, Michael: *The 100. A Ranking of the Most Influential Persons in History*. New York 1978, S. 33.

Hasenfratz, Hans-Peter: *Das Christentum – Eine kleine »Problemgeschichte«*. Zürich: Theologischer Verlag 1992.

Hashemi, Nader: »How dangerous are the Islamists?«, in: *Middle East Affairs Journal*, Jg. 2, Nr. 4, 1996, S. 12.

Hathout, Hassan: *Reading the Muslim Mind*. Plainfield, IN: American Trust 1995.

Heine, Peter: *Halbmond über deutschen Dächern*. München: List 1997.

Herman, Edward: »Free Expression in the West: Myth and Reality«, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 23 ff.

Hesse, Reinhard: »Feindbild Islam«, in: *Die Woche vom 23.04.1997*.

Hibri, Aziza al-: »Islamic Constitutionalism and the Concept of Democracy«, in: *24 Case Western Reserve Journal of International Law*, Nr. 1, 1992.

Hick, John: *The Myth of God Incarnate*. London: SCM Press 1977.

—: *God in the Universe of Faiths*. London: Macmillan 1988.

—: *An Interpretation of Religion*. Basingstoke, Hampshire: Macmillan 1989; deutsche Ausgabe: *Religion – Die menschlichen Antworten auf die Frage nach Leben und Tod*. München: Diederichs 1996.

—: *The Metaphor of God Incarnate*. London: SCM Press 1993.

—: »Religiöser Pluralismus und Absolutheitsansprüche«, in: *Kirste*, 1994, S. 128–149.

—: »Wahrheit und Erlösung im Christentum und in anderen Religionen«, in: *Kirste*, 1994, S. 113–127.

—: *The Rainbow of Faiths*. London: SCM Press 1995.

Hick, John/Meltzer, Edmund (Hrsg.): *Three Faiths – One God; A Jewish Christian, Muslim Encounter*. London: Macmillan 1989.

Hicks, Neil: »Islam and Human Rights«, in: *Muslim Politics Report*, Nr. 12. New York: Council on Foreign Relations 1997.

Hilal, Iyad: *Studies in Usul ul-Fiqh*. Walnut, CA: Islamic Cultural Workshop (o.J.), 2. Aufl.

Hilf, Rudolf: *Weltmacht Islam*. München: Bayr. Landeszentrale für pol. Bildung 1988.

Hodgson, Marshall: *The Venture of Islam*, 3 Bde. Chicago: Univ. of Chicago Press 1974.

Hoffmann, Christian (Abdul Hadi): *Zwischen allen Stühlen - Ein Deutscher wird Muslim*. Bonn: Bouvier 1995.

Hofmann, Murad Wilfried: *Der Islam als Alternative*. München: Diederichs 1995, 3. Aufl.

—: *Islam 2000*. Beltsville, MD: amana 1996, 2. Aufl.

—: *Reise nach Mekka*. München: Diederichs 1996.

—: »The European Mentality and Islam«, in: *Islamic Studies*, Jg. 35, Nr. 1, 1996, S. 87 ff.

—: *L'Islam que cherche-t-il en Europe?* Casablanca: Ministère des Habous 1997.

—: »The Protection of Religious Minorities in Islam«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 2, 1998, S. 137 ff.

Holt, Maria: »Palestinian Women and the Contemporary Islamist Movement«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 1, 1997, S. 64.

Houellebecq, Michel: *Die Welt als Supermarkt*. Köln: DuMont 1999, 2. Aufl.

Hughes, Thomas Patrick: *Dictionary of Islam* (1886). Chicago: Kazi 1994.

Hunke, Sigrid: *Allah ist ganz anders - Enthüllungen von 1001 Vorurteilen über die Araber*. Bad König: Horizonte 1990.

Huntington, Samuel: »The Clash of Civilizations«, in: *Foreign Affairs*, Jg. 72, Nr. 3, 1993, S. 17-33.

—: *The Clash of Civilizations and the Making of a New World Order*. New York: Simon & Schuster 1996.

—: »The West: Unique, Not Universal«, in: *Foreign Affairs*, Jg. 75, Nr. 6, 1996, S. 28-46.

Ihsanoglu, Ekmeleddin: »Europe and Islam, New Challenges, New Horizons«, in: *The West and Islam*. Istanbul: IRCICA 1999, S. 3.

Imam, Ahmad 'Ali al-: *Variant Readings of the Qur'an*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1998.

Iqbal, Muhammad: *The Reconstruction of Religious Thought in Islam*. (1928/29). Lahore: Sh. Muhammad Ashraf 1986.

Izetbegovic, 'Alija 'Ali: *Islamic Declaration* (1979). Anonymer Samisdat-Druck.

—: *Islam between East and West*. Indianapolis, IN: American Trust 1989, 2. Aufl.

Jamil, Javed: *Islamic Model for Control of AIDS*. Saharanpur (Indien): Mission Publications 1996.

Jaweed, Najma: »Human Rights in Islam«, in: *Al-Mizan*, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 65 ff.

Jayyusi, Salma Khadra (Hrsg.): *The Legacy of Muslim Spain*, HdO. Leiden: Brill 1992.

Kabbai, Shaykh Muhammad/Bakhtiar, Lalah: *Encyclopedia of Muhammad's Women Companions and the Traditions they related*. Chicago: ABC International/Kazi Publ. 1998.

Kant, Immanuel: *Kritik der reinen Vernunft* (1781), Bd. 1 und 2. Frankfurt: Suhrkamp 1996.

—: *Kritik der praktischen Vernunft* (1788). Frankfurt: Suhrkamp 1996.

Karic, Enes: »In Europe there are no ›indigenous‹ and ›imported‹ religions«, in: *Islamic Studies*, Jg. 37, Nr. 1, 1998.

Kathir, Ibn: *Tafsir Ibn Kathir*. London: Al-Firdous – erscheint fortlaufend seit 1996.

—: *The Life of the Prophet Muhammad – al-Sira al-Nabawiyya –*, 4 Bde. Reading: Garnet – seit 1998.

Kausar, Zeenath: »Sexuality and Reproductive Rights in ›Platform for Action‹ and Islam«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 2, 1997, S. 149.

Kepel, Gilles/Yann, Richard (Hrsg.): *Intellectuels et militants de l'islam contemporain*. Paris: Seuil 1990.

—: *Die Rache Gottes. Radikale Moslems, Christen und Juden auf dem Vormarsch*. München: Piper 1991.

Khaldun, Ibn: *The Muqaddimah. An Introduction to History*, Übers. Franz Rosenthal. Princeton: Bollingen Series, Princeton Univ. Press 1967.

Khaleel, Shawki Abu: *Islam on Trial*. Beirut: Dar el-Fikr el Mouaser 1991.

Khan, Mujeeb R.: »Bosnia-Hercegovina and the Politics of Religion and Genocide in the ›New World Order‹«, in: *Islamic Studies*, Sonderausgabe Islam in the Balkans, Jg. 36, Nr. 2 und 3, 1997, S. 287 ff.

Khir, Bustami Muhammad: »Concept of Sovereignty in the Contemporary Islamic Movements«, in: *Encounters*, Jg. 1, Nr. 1, 1995, S. 5 ff.

Kierkegaard, Søren: *Die Krankheit zum Tode*. Köln: Jakob Hegner 1956.

Kirchhoff, Jochen: *Räume, Dimensionen, Weltmodelle. Impulse für eine andere Naturwissenschaft*. München: Diederichs 1999.

Kirste, Reinhard: »Entwicklungslinien der Bibelauslegung – Chancen für ein sachgemäßes Koranverständnis?«, in: *Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident*. Köln: Böhlau 1991, S. 362–395.

Kirste, Reinhard et al. (Hrsg.): *Interreligiöser Dialog zwischen Tradition und Moderne. Religionen im Gespräch (RIG)*, Bd. 3. Balve: Zimmermann 1994.

Köse, Ali: *Conversion to Islam*. London: Kegan Paul 1996.

Krämer, Gudrun: »Der ›Gottesstaat‹ als Republik«, in: Kai Hafez, *Der Islam und der Westen*. Frankfurt: Fischer 1997, S. 44.

Kramer, Martin: *Arab Awakening & Islamic Revival*. New Brunswick, NJ: Transaction Publ. 1996.

Kreeft, Peter: *Ecumenical Jihad*. San Francisco: Ignatius Press 1996.

Kremer, Alfred von: *Geschichte der herrschenden Ideen des Islam* (1868). Hildesheim: Georg Olms 1961.

Kruse, Hans: *Islamische Völkerrechtslehre*. Bochum: Brockmeyer 1979, 2. Aufl.

Küng, Hans/Ess, J. van: »Islam«, *Christentum und Weltreligionen*, Bd. 1. Gütersloh: Mohn 1987.

Küng, Hans/Kuschel, Karl-Josef (Hrsg.): *A Global Ethic: The Declaration of the Parliament of World's Religions*. London: SCM Press 1993.

Küng, Hans: *Pourquoi suis-je toujours chrétien?* Paris: Centurion 1988.

—: *Projekt Weltethos*. München: Piper 1990.

—: Vorwort, in: Karl-Josef Kuschel/Hermann Häring (Hrsg.), *New Horizons for Faith and Thought*. London: SCM Press 1993.

Kuschel, Karl-Josef: *Abraham – a Symbol of Hope for Jews, Christians and Muslims*. London: SCM Press 1995.

—: *Vom Streit zum Wettstreit der Religionen – Lessing und die Herausforderung des Islam*. Düsseldorf: Patmos 1998.

Lang, Jeffrey: *Struggling to Surrender*. Beltsville, MD: amana 1995, 2. Aufl.

—: *Even Angels Ask*. Beltsville, MD: amana 1997.

Laoust, Henri: *la profession de foi d'Ibn Taymiyya – La Wasitiyya*. Paris: Geuthner 1986.

Lawrence, Bruce B.: *Shattering the Myth – Islam beyond Violence*. Princeton: Princeton University Press 1998.

Lee, Robert: *Overcoming Tradition and Modernity: The Search for Islamic Authenticity*. Boulder, CO: Westview Press 1997.

Lelong, Michel: *Si Dieu l'avait voulu ...* Paris: Tougui 1986

Lemu, Aisha/Heeren, Fatima: *Women in Islam*. Leicester: Islamic Council of Europe 1978.

Lerch, Wolfgang Günter: *Muhammads Erben – Die unbekannte Vielfalt des Islam*. Düsseldorf: Patmos 1999.

Lincoln, C. Eric: *The Black Muslims in America*. Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans Publ. 1994.

Little, David/Kelsay, John/Sachedina, Abdulaziz: *Human Rights and the Conflicts of Culture: Western and Islamic Perspectives on Religious Liberty*. Univ. of South Carolina Press 1989.

Lüdemann, Gerd: *Die Auferstehung Jesu*. Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht 1994.

—: *Ketzer – Die andere Seite des frühen Christentums*. Stuttgart: Radius 1995.

Lyotard, Jean-François: *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*. Manchester: Manchester Univ. Press 1986.

Maalouf, Amin: *Les croisades vues par les Arabes*. Paris: Edition J'ai lu 1991.

Mack, Burton: *The Last Gospel – The Book of Q and Christian Origins*. Element Books 1993.

Malik b. Anas, Imam: *Al-Muwatta*, Übers. 'Aisha 'Abdarahman und Yaqub Johnson. Norwich: Diwan Press 1982.

Malley, Robert: *The Call from Algeria*. Berkley: Univ. of California Press 1996.

Mantran, Robert: *les grandes dates de l'Islam*. Paris: Larousse 1990.

Manzoor, Parvez: »An Epistemology of Questions: The Crisis of Intellect and Reason in the West«, in: *The Muslim World Book Review*, Jg. 7, Nr. 2, 1987.

—: »Human Rights: Secular Transcendence or Cultural Imperialism«, in: *The Muslim World Book Review*, Jg. 8, Nr. 3, 1994, S. 3 ff.

—: »Hubris and Humility: Christian Perplexity at the Plurality of Faith«, in: *The Muslim World Book Review*, Jg. 15, Nr. 4, 1995, S. 3 ff.

- : »Desacralizing Secularism«, in: *The American Journal of Islamic and Social Sciences*, Jg. 12, Nr. 4, 1995, S. 545 ff.
- : »Against the Absolutism of Science and Society«, in: *The Muslim World Book Review*, Jg. 18, Nr. 2, 1998, S. 3 ff.
- : »Freedom as Transcendence? Contemporary Islam and the Puzzle of Modernity«, in: *The Muslim World Book Review*, Jg. 19, Nr. 2, 1999, S. 3 ff.
- Martinez, Florentino Garcia: *The Dead Sea Scrolls*. Leiden: Brill 1994.
- Marty, Martin/Appleby, Scott (Hrsg.): *The Fundamentalism Project*, 4 Bde. Chicago: Univ. of Chicago Press 1993, 1994.
- Maududi, Abu 'Ala: *Islam in the Face of Contemporary Challenges*. Kuwait: Dar al-Arqam 1971.
- Mayer, Ann Elizabeth: *Islam and Human Rights*. Boulder, CO: Westview 1995, 2. Aufl.
- Mazrui, Ali: »Islam and the End of History«, in: *The American Journal of Islamic Social Studies*, Jg. 10, Nr. 4, 1993, S. 512-535.
- : »North American Muslims: Rising to the Challenge of Dual Identity«, in: *Islamic Studies*, Jg. 34, Nr. 4, 1995, S. 451 ff.
- : »Human Rights between Rwanda and Reparations: Global Power and the Racial Experience«, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 3 ff.
- : »Islamic and Western Values«, in: *IQRA*, Jg. 18, Nr. 1, 1998, S. 13 ff. (1997 in *Foreign Affairs*).
- Meier, Andreas: *Der Politische Auftrag des Islam*. Wuppertal: Peter Hammer 1994.
- Mernissi, Fatima: *Sultanes Oubliées, femmes chefs d'état en islam*. Casablanca: Le Fennec 1992.
- : *Der politische Harem. Mohamed und die Frauen*. Frankfurt: Dagerli 1989.
- : *Die Angst vor der Moderne*. Hamburg: Luchterhand 1992.
- Miles, Jack: *Gott - Eine Biographie* -. München: Hanser 1996.
- Misri, Ahmad ibn Naqib al-: *The Reliance of the Traveller*, Übers. Noah Ha Mim Keller. Dubai: Modern Printing Press 1991.
- Monshipouri, Mahmood: *Islamism, Secularism, and Human Rights in the Middle East*. Boulder, CO: Lynne Rienner 1998.
- Moore, Kathleen: *Al-Mugharibun: American Law and the Transformation of Muslim Life in the United States*. Albany, NY: State Univ. Press 1995.
- Moten, Abdul Rashid: *Political Science: An Islamic Perspective*. Basingstoke, Hampshire: Macmillan 1996.
- : »Democratic and Shura-based Systems«, in: *Encounters*, 3. Jg., Nr. 1, 1997, S. 3 ff.
- Mousalli, Ahmad: *Radical Islamic Fundamentalism: The Ideological and Political Discourse of Sayyid Qutb*. Beirut: American Univ. of Beirut Press 1992.
- Munoz, Gema Martinez (Hrsg.): *Islam, Modernism and the West*. London: Tauris 1999.
- Murad, Khurram: »Islam and Terrorism«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1997, S. 103 ff.

Murray, Stephen O./Roscoe, Will: *Islamic Homosexualities*. New York: New York University Press 1997.

Muslim: *Sahih Muslim*, 4 Bde., Übers. Abdul Hamid Siddiqi. Lahore: Sh. Muhammad Ashraf 1976.

Muzaffar, Chandra: *Human Rights and the New World Order*. Penang (Malaysia): JUST 1994.

Nadvi, Syed: *Habib ul-Haque*. Durban (Südafrika): Academia 1995.

Nagel, Tilman: *Staat und Glaubensgemeinschaft im Islam*, 2 Bde. Zürich/München: Artemis 1981.

—: *Geschichte der islamischen Theologie*. München: C.H. Beck 1994.

Na'im, Abdullah A. an-: *Human Rights in Cross-Cultural Perspectives*. Philadelphia: Pennsylvania Press 1992.

Nasr, Seyyed Hossein: *Ideal and Realities of Islam*. Kairo: American Univ. in Cairo Press 1989.

—: *Ideal und Wirklichkeit des Islam*. München: Diederichs 1993.

Nawawi, an-: *Minhaj-et-Talibin. A Manual of Muhammadan Law*. Lahore: Law Publishing Co. (1914) 1977.

—: *Vierzig Hadite*, Übers. Ahmad von Denffer. Leicester: The Islamic Foundation 1979.

—: *Riyad us-Salihin, Gärten der Tugendhaft*, Bd. 1. Garching: Dar-us-Salam 1996.

Nielsen, Jørgen S.: »Muslims in Europe or European Muslims: the Western Experience«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 2, 1998, S. 205 ff.

Nietzsche, Friedrich: *Werke in zwei Bänden*. München: Hanser 1967.

Nu'man, Fareed: *The Muslim Population in the United States*. Washington: American Muslim Council 1992.

Nyazee, Imran Ahsan Khan: *Theories of Islamic Law, The Methodology of Ijtihad*. Islamabad: I.I.I.T. 1994.

O'Ballance, Edgar: *Islamic Fundamentalist Terrorism 1779-1995*. Basingstoke, Hampshire: Macmillan 1997.

Ophuls, William: *Requiem for Modern Politics - The Tragedy of the Enlightenment and the Challenge of the New Millennium*. Boulder, CO: Westview Press 1997.

Osman, Fathi: *Jihad - a Legitimate Struggle for Human Rights*. Los Angeles: Minaret 1991.

—: *Sharia in Contemporary Society - The Dynamics of Change in the Islamic Law*. Los Angeles: Multimedia Vera International 1994.

—: *The Children of Adam - An Islamic Perspective on Pluralism*. Washington: Georgetown Univ. Press 1996.

—: *Human Rights on the Eve of the 21st Century - Problems for Muslims and Others*. London: Islam & Modernity 1996.

—: *Concepts of the Quran - A Topical Reading*. Los Angeles: Multimedia Vera International 1997.

Otaibi, Moneer al-/Rashid, Hakim: »The Role of Schools in Islamic Society«, in: *The American Journal of Islamic Social Sciences*, Jg. 14, Nr. 4, 1997, S. 1 ff.

Ott, Claudie: »Das Feindbild in den westlichen Medien«, in: *Cibedo*, Jg. 7, Nr. 3, 1993, S. 76.

Otto, Rudolf: *Das Heilige – Über das Irrationale in der Idee des Göttlichen und sein Verhältnis zum Rationalen*. München: C.H. Beck 1997.

Packard, Vance: *Pyramid Climbers*. Harmondsworth: Pelican 1962.

—: *The Sexual Wilderness*. New York: David McKay 1968.

Parrinder, Geoffrey: *Mysticism in the World's Religions*. Oxford: One World 1995.

Pasquier, Roger du: *Unveiling Islam*. Cambridge: The Islamic Texts Society 1992.

Pearl, David: »Conflicts and Tensions in the Proposal for a System of Personal Law for Muslims in the UK«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1998, S. 3 ff.

Phipps, William: *Muhammad and Jesus*. London: SCM Press 1996.

Piscatori, James: *Islam in a World of Nation States*. Cambridge: Cambridge Univ. Press 1986.

Popper, Karl R./Eccles, John C.: *The Self and its Brain*. Heidelberg: Springer 1977.

Pryce-Jones: *At War with Modernity: Islam's Challenge to the West*. London: Institute for European Defence and Strategic Studies 1992.

Qaradawi, Jusuf al-: *Islamic Awakening between Rejection and Extremism*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1987.

—: *Erlaubtes und Verbotenes im Islam*. München: SKD Bavaria Verlag 1989.

Qutb, Muhammad: *Einwände gegen den Islam*. München: SKD Bavaria Verlag 1994.

Qutb, Sayyid: *Milestones (Ma'alim fi-l-Tariq)*. Indianapolis: American Trust Publ. 1990.

Rahim, Muddathir 'Abd al-: *The Development of Fiqh in the Modern Muslim World*. Kuala Lumpur: IKIM 1996.

Rahim, Muhammad 'Ata ur-: *Jesus – A Prophet of Islam*. London: MWH Publishers 1977.

Rahman, Fazlur: *Islam*. New York: Holt, Rinehart and Winston 1966.

—: *Islamic Methodology in History* (1964). Islamabad: Islamic Research Institute 1995, 3. Aufl.

Rahman, Mohibur: »Clash of Civilizations or Clash of Ideas?«, in: *Al-Mizan*, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 38.

Ramadan, Said: *Das islamische Recht*. Wiesbaden: Harrassowitz 1980.

Rehs, Michael: »Die Welt des Islam zwischen Tradition und Fortschritt«, I/II, in: *Zeitschrift für Kulturaustausch*, Jg. 35, Nr. 3 und 4, 1985.

Reich, Charles A.: *The Greening of America*. New York: Random 1970.

Riesmann, David et al.: *Die einsame Masse*. Reinbek: Rowohlt 1958.

Riße, Günter: »Der Islam, eine politische Religion?«, in: *Cibedo*, Jg. 7, Nr. 2, 1993, S. 33.

Robinson, Neal: *Discovering the Qur'an – A Contemporary Approach to a Veiled Text*. London: SCM Press 1996.

Rodinson, Maxime: *Die Faszination des Islam* (1980). München: C.H. Beck 1985.

Runnymede, Trust: »Islamophobia in Britain«, in: *The Muslim Politics Report*, Jg. 15, 1997, S. 2 f.

Rushd, Ibn (Averroës): *The Distinguished Jurist's Primer* (Bidayat al-Mujtahid), 2 Bde. Reading: Garnet 1994, 1995.

Safi, Louay: »Islam and the Global Challenge: Dealing with Distortions of the Image of Islam by Global Media«, in: *Islamic Studies*, Jg. 35, Nr. 2, 1996, S. 191.

Said, Edward: *Orientalism*. New York: Random House 1978.

—: *Covering Islam*. New York: Pantheon 1981.

—: *Culture and Imperialism*. London: Chatto & Windus 1993.

Salem, Isam Kamel: *Islam und Völkerrecht*. Berlin: Express 1984.

Salvatore, Armando: *Islam and the Political Discourse of Modernity*. Reading: Garnet 1997.

Sardar, Ziauddin: *Postmodernism and the Other: The New Imperialism of Western Culture*. London: Pluto Press 1997.

Sardar, Ziauddin/Nandy, Ashish/ Davies, Mervyn: *Barbaric Others: A Manifesto of Western Racism*. London: Pluto Press 1993.

Sartori, Ralf/Steidl, Petra: *Tango. Die einende Kraft des tanzenden Eros*. München/Kreuzlingen: Atlantis 1999.

Schacht, Joseph: *An Introduction to Islamic Law*. Oxford: Clarendon 1964.

Schimmel, Annemarie: *Mystische Dimensionen des Islam. Die Geschichte des Sufismus*. München: Diederichs 1985.

Schlatter, Adolf: *Die Geschichte der ersten Christenheit* (1926). Darmstadt: Wiss. Buchgesellschaft 1971, 5. Aufl.

Schmidt, Helmut (Hrsg.): *Allgemeine Erklärung der Menschenpflichten*. München: Piper 1997.

Schönig, Hannelore: »Die rechtliche Stellung der Frau im Islam«, in: *Die Welt des Islam zwischen Tradition und Fortschritt*, II. Stuttgart: Inst. für Auslandsbeziehungen 1985, S. 439 ff.

Schulze, Reinhard: »Gibt es eine islamische Moderne?«, in: Kai Hafez, *Der Islam und der Westen*. Frankfurt: Fischer 1997, S. 31 ff.

Schuon, Frithjof: *Den Islam verstehen*. Bern: O.W. Barth Verlag 1988.

Schwarzenau, Paul: *Korankunde für Christen*. Stuttgart: Kreuz Verlag 1982.

—: »Biblische und koranische Grundlagen für den christlich-islamischen Dialog«, in: *Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident*. Köln: Böhlau 1991, S. 499–508.

—: *Das nachchristliche Zeitalter*. Stuttgart: Kreuz Verlag 1993.

Shafi'i, al-: *Risala. Treatise on the Foundation of Islamic Jurisprudence*, Übers. Majid Khadduri. Cambridge: Islamic Texts Society 1991.

Shahrour, Mohammad: »The Divine Text and Pluralism in Muslim Societies«, in: *Muslim Politics Report*, Nr. 12, 1997, S. 3–9.

Sharif, M.M. (Hrsg.): *A History of Muslim Philosophy*, 2 Bde. Wiesbaden: Harrassowitz 1963, 1966.

Siddiqi, Muhammad Nejatullah: »Towards Regeneration: Shifting Priorities in Islamic Movements«, in: *Encounters*, Jg. 1, Nr. 2, 1995, S. 3 ff.

—: »Christian-Muslim Dialogue: Problems and Challenges«, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 2, 1998, S. 123 ff.

—: »Future of the Islamic Movement«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1998, S. 91 ff.

Siddiqui, Jawed ul-Haq: *21st Century & the Birth of United States of Islam*. Karachi: USI Publ. 1997.

Sigler, John: »Understanding the Resurgence of Islam: the Case of Political Islam«, in: *Middle East Affairs Journal*, Jg. 2, Nr. 4, 1996, S. 79 ff.

Smith, Wilfred Cantwell: *What is Scripture?* London: SCM Press 1993.

Spuler-Stegemann, Ursula: *Muslime in Deutschland*. Freiburg: Herder 1998.

Stoltz, Rolf: *Mullahs in Deutschland – Der Sprengstoff von morgen*. Frankfurt/München: Ullstein 1996, 2. Aufl.

—: *Kommt der Islam? Die Fundamentalisten vor den Toren Europas*. München: Herbig 1997.

Swinburn, Richard: *The Existence of God*. Oxford: Clarendon Press 1979.

Tahtawi, Rifa'a al-: *Ein Muslim entdeckt Europa*. München: C.H. Beck 1989.

Talbi, Mohamed/Bucaille, Maurice: *Réflexions sur le Coran*. Paris: Seghers 1989.

Talbi, Mohamed: »Is cultural and religious co-existence possible? Harmony and the right to be different«, in: *Encounters*, Jg. 1, Nr. 2, 1995, S. 74 ff.

Tamimi, Azzam: »Fundamentalist Islam and the Media«, in: *Al-Mizan*, Jg. 2, Nr. 1, 1996.

—: »Democracy in Islamic Political Thought«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 1, 1997, S. 21 ff.

—: »Democracy: The Religious and the Political in Contemporary Islamic Debate«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1998, S. 35 ff.

Tibi, Bassam: *Die Krise des modernen Islam*. Frankfurt: Suhrkamp 1991.

—: »Wie Feuer und Wasser«, in: *Der Spiegel*, Nr. 3, Jan. 1994, S. 170–172.

—: *Der wahre Imam. Der Islam von Mohammed bis zur Gegenwart*. München: Piper 1996.

Troll, Christian: »Witness meets Witness: the Church's Mission in the Context of the Worldwide Encounter of Christian and Muslim Believers Today«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1998, S. 15 ff.

Turabi, Hasan al-: *Women, Islam and Muslim Society*. London: Milestones 1991.

—: *Islam, Democracy, the State and the West*, in: Arthur Lowrie (Hrsg.), *A Round Table with Dr. Hasan Turabi*. Tampa, FL: The World and Islam Studies Enterprise 1993.

Turner, Bryan S.: *Orientalism, Postmodernism and Globalization*. New York: Routledge 1994.

Tworuschka, Udo (Hrsg.): *Gottes ist der Orient – Gottes ist der Okzident* (Festschrift für Abdoljavad Falaturi). Köln: Böhlau 1991.

Wagner, Peter: *Soziologie der Moderne*. Frankfurt: Campus 1995.

Walker, Dennis: »The Revived Nation of Islam and America's Western System in the 1990s: Ambiguous Protest of a new Black Elite«, in: *Islamic Studies*, Jg. 37, Nr. 4, 1998, S. 445 ff.

Watt, William Montgomery: *Religious Truth for Our Time*. Oxford: Oneworld Publ. 1995.

Wehr, Hans: *Arabisch-Deutsches Wörterbuch*. Wiesbaden: Harrassowitz 1985, 5. Aufl.

Westerlund, David/Hallencreutz, Carl (Hrsg.): *Questioning the Secular State: The worldwide Resurgence of Religion in Politics*. London: Hurts & Co. 1996.

Woods, John: »Imagining and Stereotyping Islam«, in: *Muslims in America – Opportunities and Challenges*. Chicago: Intern. Strategy and Policy Inst. 1996, S. 45–77.

Zakzouk, Mahmoud et al.: *Gesichter des Islam*. Berlin: Haus der Kulturen der Welt 1992.

Zaman, Muhammad Qasim: *The Making of a religious Discourse – an Essay in the History and Historiography of the Abbasid Revolution*. Islamabad: I.I.T. 1995.

الدكتور مراد هوفمان

- ولد الدكتور مراد هوفمان عام ١٩٣١ في ألمانيا لأسرة كاثوليكية ، ثم أتم دراساته الجامعية والعليا في نيويورك وميونيخ وهارفارد على التوالي .
- عمل في الخارجية الألمانية ، وتقىد مناصب عديدة ، منها خبير نووي في حلف الأطلنطي ، وأنهى خدمته سفيراً لألمانيا في الجزائر ثم المغرب .
- عاش الدكتور هوفمان خمسين عاماً من عمره كاثوليكياً ، وعشرين عاماً مسلماً ، فخبر الجانبين .
- تفرغ الدكتور هوفمان من منتصف التسعينيات للاشتراك في الندوات وإلقاء المحاضرات عن الإسلام ، وجال في ذلك العالم من شرقه إلى غربه .
- يرى الدكتور هوفمان أن في الإسلام فرصة أوروبا والولايات المتحدة لحل أزماتهم .
- وفي نفس الوقت ينتقد العالم الإسلامي لأنحرافه عن جوهر الإسلام ويقترح لذلك أفكاراً إصلاحية .